مجموعة رسائل موحّدية

من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية

حرّره وعلّق عليه

إ. ليفي بروفنسال

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

obeikan.com

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية / حرره: ا.ليفى بروفنسال
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010
400 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-481-8
1- الرسئل العربية
ا- بروفنسال، ا.ليفى (محرر)

ديوى: 816

رقم الايداع: 8675

obeikandl.com

مقدمة

اتفقت كلمة الباحثين المعتنين بماضي الغرب الإسلامي على المكان الذي يشغله العهد الموحّدي في تاريخ القرون الوسطى.

ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر الآن أهمية الانقلاب المشاهد بشمالي إفريقيا والأندلس حينما قام المهدي بن تومرت بدعوة التوحيد ونجحت حركته الدينية السياسية الاجتماعية وأُسست دولةٌ مستقلة على يدي خليفته عبد المؤمن. وقد لبث تاريخ هذه الفترة الخطيرة معروفًا معرفةً إجمالية حسبما عرضته المصادر العربية العادية المستفاد منها من زمان مثل «الروض القرطاس» لابن أبي زرْع و«الحُلل الموشية» لمؤرخ مجهول وكتاب «العِبَر» لابن خلدون و«تاريخ الدولتين» المنسوب إلى الزركشي وغيرها من التواريخ المتأخرة.

أما المصادر المعاصرة للدولة نفسها فقد كانت تلفتْ بجميعها ما عدا كتاب وحيد وهو «المُعْجِب» لعبد الواحد المراكشي، إلا أنه تأليف أدبي أكثر من تاريخي. ولا حاجة هنا إلى التبسط فيما كان يتلقاه النقد من المصاعب كلما حاول الفرق بين الحقيقي والخرافي في مختلف تلك المصادر المختصرة.

ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت لحسن الحظ وثائق جديدة معاصرة للعهد الموحدي. فمنها كتاب «أخبار المهدي» لصاحبه البيْذق الذي عثرنا عليه في مكتبة الاسكوريال بأسبانيا ونشرناه وترجمناه إلى اللغة الفرنسية. ومنها جزءٌ من كتاب «نَظْم الجُمان» لابن القطان مشتمل على تاريخ ابتداء الموحدين وسيطبع عن قريب. ومنها سلسلة الوثائق المؤمنية التي نقدمها اليوم إلى الجمهور المثقف وبالخصوص

إلى غواة ماضي المغرب التاريخي الأدبي.

تتركب هذه المجموعة من سبعة وثلاثين رسالة رسمية من إنشاء مهمّي كُتَّاب الخليفة عبد المؤمن وبنيه، اقتبسنا جلَّها من مجلد خطي مغربي مبتور الطرفين قد كان اكتسبه منذ سنوات صديقنا وزميلنا المستشرق ج.س.كولان. وتفضَّل حينذاك بإعارته إيانا؛ فنسدي إليه الثناء اللائق بهذا التجمل.

لا يكاد من طالع هذه السلسلة يستصغر قيمتها من الوجهتين التاريخية والأدبية. أما من الوجهة التاريخية؛ فإنها تعرض لنا بيانًا مباشرًا دقيقًا منظَّمًا لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية وغزوات وانتصارات حربية. وأما من الوجهة الأخرى، فإنها ستمكّن كل من يدرس تطور الآداب بالديار الغربية الإسلامية من نماذج شتى عن فن الكتابة الرسمية في العهد الموحدي، كما ستأذن له مقارنةً تحليليةً بينها وبين سائر المنتجات النثرية المسجوعة التي أُنشئت في هذا المعنى، لا سيما في دواوين البلاطات الأندلسية والمغربية قبل الموحدين وبعد سقوط دولتهم.

وليس من شأننا أن نطنب هنا في الكلام على متضمن المجموعة من ناحيتي النقد التاريخي والنقد الأدبي؛ على أننا معولون على نشر درس خصوصي باللغة الفرنسية على المواد الجديدة المتحصل عليها عَبْرَ هذه الرسائل. فمن راجع درسنا سيجد فيه برهانًا عما قدمناه من قيمتها، وكذلك بعض الإشارات على أسلوبها الاصطلاحي ومميزاتها التعبيرية والضوابط الشكلية التي كان يراعيها الكُتَّاب في المكاتبة الرسمية.

سيرى القارئ أننا أضفنا إلى المجموعة رسالةً (وهي العاشرة) لم يقع نصها في

المخطوط وإنما نقلناها من كتاب «صُبح الأعشى» للقلقشندي. فلا بأس أن ننتسخ هنا ما ذكره هذا المؤلف عن الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين. قال إنها على أسلوبين؛ الأسلوب الأول أن تفتتح المكاتبة بلفظ «من فلان إلى فلان»، والأسلوب الثاني أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أما بعد».

أما الأسلوب الأول -وهو المستعمل بالأكثر في السلسلة التي ننشرها- فقال فيه: «وكان الرسم في المكاتبة أن يقال: «من أمير المؤمنين إلى فلان» ويُدعى له بما يناسبه «إلى فلان» ويُدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضية على الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود، ويختم بالسلام. والخطاب فيه بِنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه»[1].

لا يحتاج المطَّلع على الرسائل إلى طويل بحث ليتعرف حقيقة هذا الرسم الذي حدده القلقشندي ويلاحظ أن الكُتَّاب كانوا يحافظون عليه كل المحافظة.

ولعل من الفائدة أن نقول الآن كلمة في شخصية كل واحد من أولئك الكُتَّاب؛ وهم حسب الترتيب الزمني أبو جعفر بن عطية، وأخوه أبو عقيل، وأبو الحسن بن عياش، وأبو الحكم بن المُرْخي، وأبو القاسم القالمي، وأبو الفضل بن محشرة، وأبو عبد الله بن عياش.

أما الأولان، فهما أبو جعفر أحمد وأبو عقيل عطية ابنا جعفر بن محمد بن عطية القضاعيان المراكشيان. وكان أصلهما القديم من قرية بناحية طرطوشة بشرق الأندلس. وقد ترجم لأبي جعفر بن عطية عددٌ من المؤلفين كعبد الواحد المراكشي في

(١) راجع «صبح الأعشى» طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة (٦/ ٤٤٣).

«المُعْجِب»[١] وابن الأبّار في «الحُلَّة السيراء»[٢] وابن الخطيب في «الإحاطة»[٣] والمقَّري في «نفح الطيب»[٤]. ولد بمراكش في سنة ٥١٧ وكتب للسلطانين المرابطين علي بن يوسف وابنه تاشفين. وكان على ما ذكره ابن الخطيب أحظى كُتَّابهم. ثم لما انقطعت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف نبه عليها مترجموه. وتصفُه «الإحاطة» ككاتب «بليغ سهل المأخذ منقاد القريحة سيَّال الطبع رائق الخط». وبعد أن أدرك المحل الأبرز عند مولاه جرت له محنة وقُتل هو وأخوه أبو عقيل في أواخر سنة ٥٥٣.

وأما أبو الحسن بن عياش، فهو عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي وأصله من مدينة يابُرة من غرب الأندلس. وذكر ابن الأبار في «تكملة الصلة»[٥] أنه صحب بني حمدين بقرطبة وكتب لهم أيام قضائهم. ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك في الكتابة. قال ابن الأبّار: «وكان عبد الملك مع تقدمه في الآداب وتصرفه في النثر، مشاركًا في النظم من أبرع الناس خطًّا وأحسنهم وراقة. وكانت له من الولاة منزلة جليلة» وكانت وفاته سنة ٥٦٨.

وأما أبو الحكم بن المُرْخي، فهو علي بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الأشبيلي، وشهر بمعرفته ابن المُرْخي، ولي خطَّة الكتابة للموحدين، وقد

---

(١) راجع طبعة دوزي ص١٤٣-١٤٤.

(٢) راجع طبعة دوزي ص١٩٨، ٢١٥-٢١٦، ٢٢٢، ٢٣٤.

(٣) راجع «مركز الإحاطة» طبعة القاهرة (١/ ١٣٢، ١٣٩).

(٤) راجع طبعة بولاق (٢/ ١٠١-١٠٤).

(٥) راجع طبعة قديرة بمجريط رقم ١٧٢١.

ترجم له ابن الزبير في «صلة الصبلة»[١] وابن الأبّار في «التكملة»[٢] ترجمةً مختصرة، ولم يذكرا تاريخي ميلاده ووفاته.

وأما أبو القاسم بن عبد الرحمن القالمي، فلم نعثر على ترجمته في معاجم أدباء هذا العصر. إلا أن عبد الواحد المراكشي أشار إليه في «المُعْجِب»[٣] وعدَّه من كُتَّاب عبد المؤمن وابنه الأمير أبي يعقوب يوسف. قال: «استوزر عبد المؤمن أبا جعفر أحمد بن عطية؛ فجمع بين الوزارة والكتابة وهو معدود في الكُتَّاب والوزراء؛ فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلًا من نبهاء الكُتَّاب يقال له أبو القاسم القالمي». ثم قال إنه «من أهل مدينة بجاية، من ضيعة من أعمالها تُعرف بقالم».

وأما ابن محشرة، فهو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من أهل بجاية. وأصل بيته من قلعة بني حماد. وقد ترجمه الغُبريني في كتابه «عنوان الدراية»[٤] وذكر أن الخليفة ابن عبد المؤمن استدعاه إلى حضرته مراكش واستكتبه، وأنه ولد سنة ٥٤١ أو قبلها بيسير وتوفي سنة ٥٩٨.

وأما الأخير من أولئك الكُتَّاب فهو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عُبيد الله بن عياش التجيبي؛ أصله من قرية بُرشانة من عمل ألمرية بجنوبي الأندلس، ولد بها سنة ٥٥٠. وقد ترجم له صفوان بن إدريس في «زاد المسافر»[٥]

---

(١) راجع طبعتنا الرباط ١٩٣٨ رقم ٢١٦.

(٢) راجع طبعة قديرة رقم ١٨٧٢.

(٣) راجع طبعة سلا (١٣٥٧-١٩٣٨) ص١١٩، ١٢١، ١٤٨.

(٤) راجع طبعة ابن أبي شنب (الجزائر ١٣٦٨-١٩١٠) ص٣٠-٣٢.

(٥) راجع طبعة محداد (بيروت ١٣٥٨-١٩٣٩) رقم ٤٦ ص٩٤-٩٥.

وابن الأبّار في «التكملة»[١] وفي «إعتاب الكُتّاب»[٢] وابن الخطيب في «الإحاطة»[٣]. فذكر ابن الأبّار أنه «كان عالمًا بالآداب، رئيسًا في صنعة الكتابة، خطيبًا مصْقَعًا بليغًا مفوّهًا، ذا حظ صالح من قرض الشعر، وأنِ السلطان بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦؛ فنال دُنيا عريضة». وتوفي بمراكش في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٦١٨.

أما ابن الخطيب، فقال في حاله، ناقلًا عن ابن عبد الملك المراكشي: «كان كاتبًا بارعًا فصيحًا، مُشرفًا على علوم اللسان، حافظًا للغات والآداب، جزلًا، سريَّ الهمة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع، نفّاعًا بجاهه وماله، كثير الاعتناء بطلبة العلم والسعي الجميل لهم وإفاضة المعروف على قُصّاده، مستعينًا على ذلك بما نال من الثروة والحظوة والجاه عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصدًا الإعراب في كلامه لا يخاطب أحدا من الناس على تفاريق أحوالهم إلا بكلام مُعْرَب؛ وربما استعمل في مخاطبة خَدَمته وأمته من حُوشي الألفاظ ما لا يكاد يستعمله ويفهمه إلا حُفّاظ اللغة من أهل العلم: عادة ألفها واستمرت حاله عليها».

لا يسعنا أن نختم هذه الكليمات التمهيدية دون أن نقضي واجبًا. وهو أن نتقدم الشكر إلى أصدقائنا وزملائنا الشرقيين وبعض الغربيين الناطقين بالضاد[٤]، لما تفضلوا منذ سنوات ولا يزالون من الاعتراف بسعينا المواصل لدرس المدنية

---

(١) راجع طبعة قديرة رقم ٩٥٢.

(٢) راجع مخطوط المكتبة الشريفية بالرباط رقم ٤٠٩، الترجمة السبعون.

(٣) راجع مخطوط المكتبة الاسكوريالية رقم ١٦٧٣ ص٥٠-٥٢.

(٤) ممن لا يمتثل كلمة الحديث المشهور: «خالفوهم!».

الإسلامية في العصور الوسطى، وبجهدنا لاستكشاف بعض نواحيها المبهمة ونشر مصادرها التي أُتيح لنا إخراجها من زوايا النسيان؛ وبقيامنا بالدفاع عن تلك المدنية، والتقدير لمجدها، والرفع لمنارها، والانتصاف لدورها البارز وتأثيرها المكين في نهضة الفكر الإنساني واشتراكها في ازدهار الآداب والفنون الجميلة في أوربا. فنتمنى أن يساعدنا الدهر في المستقبل، ولا يخيب أولئك الأصدقاء في مأمولهم منا، وأن لا تزال الأيام تؤهّلنا لعطفهم وتشجيعهم وتحبيذهم، وتمكننا من تتبع نشاطنا الدرسي العادي، بحسب ميلنا إليه وعنايتنا بمختلف مظاهرات الثقافة العربية وتجديدها الحالي المُعجب.

ا.ل.ب

الرباط في ٨ مارس ١٩٤١

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطَّلَبة الذين بسَبْتة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة وفقهم الله وسددهم سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله مولي الرغائب، ومسني الآمال والمطالب، وقابل توبة النائب، نحمده بما يتعين من حمده الواجب، ونصلي على محمد نبيه العاقب؛ وعلى آله وصحبه أُولي المفاخر السنيَّة والمناقب. ونصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المحرز شرف المبادئ والعواقب، المجلي بنوره الثاقب، حبب الظلام الواقب.

وكتبناه إليكم -كتب الله لكم شكرًا مُوالى مُعادا، وتوبةً تجعلونها قاعدةً لأعمالكم وعمادا، وصلاحًا لا يفارق بحمد الله نماءً أو ازديادا- من حضرة مراكش حرسها الله وقد وصَلْنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن، وعُدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن؛ بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها، وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها، وإلصاقِ أنوف الكفرة المرتدين برغامها، وقطع دابر القوم المجرمين في هذه الجهة وما انتظم في نظامها؛ ونال الغزاةُ في هذه الحركة الميمونة من الأجور، والمغنم الموفور، والفضل الذي ينشر عليهم أجنحته يوم النشور، ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال، ولا يتأتى لمخلوق نعته على استيفاء وإكمال. فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر، وأخلص نيته في غزوه الميمون

بمبلغ ما استطاع وقدر، وتساعدت جوارحه في تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل واذخر.

وإن النعمة وفقكم الله بهذه الفتوح العميمة العامة شاملةٌ على من أخذ بهذا الأمر العزيز ودان، وتزيا بحلته البهية فازدان؛ فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي رضي الله عنه العجبُ العُجاب، وفاض فيها من بركاته الفيضُ المنساب، ودرت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكُرم المآب. وكان أمرها مخصوصًا بالمرتدين الخاسرين؛ فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب.

فاشكروا الله، عباد الله، شكرًا دائمًا مستمرًّا مع الأحيان، وأحسنوا ضمائركم، وطهروا سرائركم، في مقابلة هذا الإحسان، وتوبوا إلى الله جميعًا توبةً نصوحًا غاسلةً للقلوب من الأدران؛ فالتوبةُ أصلٌ للأعمال الراجحة، والمتاجر الرابحة؛ ونعوذ بالله من الخسران.

وقد آن لكم، أيها المؤمنون، أن تجددوا توبتكم تجديدًا وكيدا، وتغتنموا من هذه النصائح التي تتداولكم حظًّا مُفيدا، وتشهدوا الله على التمسك بعصم الإيمان، وكفى به شهيدا. فبادروا رحمكم الله إلى طاعة الله تعالى في العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على هذا الحبل الأمتن الأقوى، واعلموا أنكم راحلون، فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى؛ وحافظوا أصلحكم الله على إخلاص النيات، والتزام الصلوات، وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد فهي أكرم التلاوات، واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة بإيمان الأيمان تستفتحوا؛ وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم بمعروف تنجحوا. واشتغلوا بدينكم اشتغالًا يُخلصكم، والتزموه التزامًا يخصكم على الدوام ويُحرصكم، وتزيدوا من

الأعمال الصالحة في هذه الأعمار التي لا تزال مع اللحظات تُنقصكم. ورحم الله امرأ سمع النصيحة فابتدرها، وجاهد نفسه على طاعة الله فقهرها، وأخذ عليها مآخذ الشهوات فنهاها بالحق وأمرها. أعاننا الله وإياكم على شكر نعماه، وطلب رحماه، بعزته. والسلام.

obeikandl.com

الرسالة الثانية

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج أدام الله كرامته بطاعته وتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي عمت برحمته نعمه، والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه، وعلى آله وصحبه الذين عُرفت في هديهم أخلاقه العظيمة وشيمه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله ثابتًا في بسطه قدمه، ظاهرًا في تمشيته في البسيطة سبقه وتقدمه؛ فإنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم عقد الإيمان وربطه، ونظم لكم بطاعته سلك العمل وسمطه- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نشكره سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلةِ تيسيره لأوليائه ويسره.

وقد وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمد، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون أكرمهم الله بتقواه فأدوا من حق هجرتهم البرة ما قلدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة ما اعتمدوه؛ ثم انصرفوا مبرورين مسرورين بما ألقوه من بركة هذا الأمر الكريم ووجدوه، وقام عذركم وفقكم الله على ساقه فقُبِل، ومَثَلَ ولاؤكم نائبًا عن الوصول فوصِل.

ولكم عندنا وفَّقكم الله وأكرمكم من حظوظ التقريب والإيثار، وموالاة التنبيه

على سبيل الدوام لكم والاستمرار، فوق ما تؤمّلونه، وخير ما تستقبلونه. فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم، وتقربوا إليه بالأعمال الصالحة يضاعف قربكم، والله يحفظ إيمانكم وأمانتكم منا لكم ورتبكم؛ بمنه. والسلام.

obeikandl.com

الرسالة الثالثة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بصنهاجة تاسغرت والمشيخة والأعيان والكافة وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله على أنعمه التي أضفاها، ورحمته التي نرجو أن تقربنا زُلفاها؛ والصلاة على محمد نبيه الذي قضى حقوق الأمانة ووفاها؛ ومحا بأمر الله آثار الكفر وعفاها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وليّه الذي تقبل سُبُل الهداية واقتفاها، وأقام رسوم الشريعة على رغم من جحدها ونفاها؛ فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد، وتوكل على صادق وعده واعتمد– من حضرة مراكش حرسها الله، في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وكلمة الحق بفضل الله لا تفارق سموًّا وعلوا، وأمر الله يكبت أعداءه عدوًّا فعدوا، وبركات إمامنا المهدي رضي الله عنه تتزيد على مر الزمان رواحًا وغدوًّا.

وقد صدَرْنا وفقكم الله على الحضرة العلية تينملل كرمها الله بعد أن قضينا بحمد الله أوطارنا، واقتضى النظر في المصالح صرفنا وإصدارنا؛ واجتمعنا بالجماعة الواصلة من قِبَلكم على أحسن حال، ووعينا جميع ما تحملوه من مقال؛ ومن قِبَلهم تقفون إن شاء الله على مقتضى نظرنا ومعناه، وينتهي إليكم بحول الله ما رأيناه. وتصلكم طيَّ كتابنا هذا نسخةُ كتابٍ خاطبْنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين

وفقهم الله فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله، ويعضُد، ورأينا إنفاذها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون إثره قريبا، وتحوزون من خيره حظًّا وافرًا ونصيبا.

فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم من فضله، وخصكم به من عميم طوْله؛ واعلموا مقدار ما نلتموه من الأجر في صبركم وجهادكم، وإخلاصكم لهذا الأمر أعلاه الله بجميل اعتقادكم؛ وسترون من بركات ما تحمدون به آراءكم، وتجنون ثمرته لكم ولمن وراءكم يسركم الله للخير، وجعلكم ممن سار في مرضاته أكرمَ السير والسلام عليكم ورحمة الله.

obeikandl.com

الرسالة الرابعة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ الأجلّ أبي زكرياء يحيى بن علي وفقه الله ويسره لما يرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي ظهرت قدرته، وختمت بالسعادة لأهليها فطرته، وأقامت أود الدين معونته الغالبة ونصرته؛ والصلاة على محمد نبيه صلاةً تكتنفه بها ذاته الطاهرة وآله وعترته، وعليهم أجمعين من السلام الطيب ما ينعمهم نعيمه ونضرته؛ والرضا على الإمام المعصوم المهدي المعلوم، الذي تهللت به قسمات الدين وأُسرتُه، وانفرجت بهدايته أزمات الأمر وعسرته. وكتابُنا إليكم -كتب الله لكم أسعد الأعمار عاقبة وتماما، وأقرب الأقدار اتصالا بمنازل الأبرار وإلماما، وأعْوَدَ الأقطار بجوامع الاختيار ربطًا لها ونظاما- من حضرة مراكش حرسها الله.

ونحن نسأل الله عونًا على ذكر أياديه التي لا يحصرها حاصِر، ونعمه التي كل لسان في وصفها قاصر، ونستنصره على القيام بحقوقها فهو وليٌّ وناصر؛ ونقبل بولاء الإيمان وإخلاصه على كل من أقبل وأخلص، ونُبادر بكرم الإجابة إلى كل من جنح نحونا وحرص؛ ونصِل في ذات الله كل وليّ وصل ووالى، وتتلقاه من قبولنا بما يستمر نماؤه ويتوالى. وما غرضنا -والله يوفقكم- إلا خيرٌ بجميع المسلمين شامل، ورشدٌ لا يخيب عن أمله آمل، وصفاءٌ للمصافي آخذٌ بآداب الله عامل.

وقد تواردت علينا كتب الطلبة الذين بالأندلس وفقهم الله يعلموننا بما أنتم

عليه لهذا الأمر كرمه الله من الميل والنزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء الصحيح؛ وذكروا من تحققهم لمحبتكم وصفائكم، واختبارهم لصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق وسدده، وأوصله التحقيق موصله وأشده.

ثم وصل الشيخ أبو فلان فشافه من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء ظاهرة في الصلاح بينة، ووصف جانبكم الأثير، في إرادة الخير، بأوصاف مُفصحة بكرمه مُعلنة. فلتلقينا ذلك كله تلقي الرضا والاستحسان، واستقر بنا غاية عهدكم بما استقربناه من ذلك العنوان، وسررنا أن تكون لهذه الطائفة العزيزة من أخلص الإخوة في ذات الله والإخوان.

وهذا الأمر وفقكم الله هو أمر المهدي رضي الله عنه حقٌّ فتأمل، ومع معالمه الجلاء فلا ظنٌّ ولا تخيل؛ والمهدي رضي الله عنه قد بشَّر به النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديث؛ ودل على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه، بأدلة رفعت الإشكال والتعسف؛ فأتى رضي الله عنه كما نعت النبي عليه السلام ووصف؛ وقال صلى الله عليه وسلم فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الإشاعة والإذاعة، وقضى بوجوب الايتمار والايتمام والطاعة، وأخبر في جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة.

والأمر في ذلك كله في الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بيان، ولا يفتقر إلى إقامة برهان، فهو معلوم كما أنبأ به الخبر الصحيح في العرب والعجم والبدو والحضر في كل ديوان وإوان. وقد تبين الصبح لذي عينين، وجدع الحق أنف الكذب والمين، وجلت الهداية ضد الضلال والرَّيْن.

وأنتم وفقكم الله أولى من شد على هذا الأمر كرمه الله يد المتمسك، وأحلَّ نفسه بحبوحة هذا المنسك، وأقام دينه على هذه القاعدة التي هي نجاة المؤمن ومهواة المشرك.

والذي لكم عندنا وفقكم الله من إرادة الخير واعتقاده، وإسعاف أملكم فيه وإسعاده، ما تميل إليه الأفئدة، وتجنح نحوه النفوس المسترشدة. فاعلموا ذلك علم اليقين، واعقدوا عليه عقد المغتبط الضنين.

وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذلة جوانحكم تخلل المبالغ الممعن، ما خص الله به مسوفة أكرمهم الله الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم، فإن حبهم ثبت لهذا الأمر على تحققه وتثبته، وقام ودهم له في مواطن الصفاء وقبلته، وهاجروا إليه وهجروا سواه، وكانوا إلفًا على من أراده بسوء ونواه؛ وظهر ولاؤهم ظهورًا أغنى عن وصفه اشتهاره، وصفا أديمه فاتضح نهاره؛ واشتمل عليهم منه بفضل الله أكرم مشتمل، وعاد عليهم بكل متمنًّى ومتأمل.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحيى بن إسحاق بن إبراهيم أعزه الله وبنوه وقرابته رعاهم الله قد تمكنوا من محبته في أعلى الرتب؛ واعتقدوه لما وجدوه كما قصدوه غاية المطلب؛ فاتسعت لهم ولسواهم من أعيان القبائل المذكورين كافةً أكنافه، واستقر بهم إلى منازل البر والترفيع استدناؤه واستعطافه، فهو آلَفُهُم بفضل الله عليهم وهم أُلّافُه. وإن كُتُب جماعتهم لتردُ من صحرائهم، وتقرر ما لديهم، من حسن أغراضهم وسداد آرائهم.

ومثلكم وفقكم الله اقتطع لنفسه من هذه الحظوظ المباركة بأوفاها، وأخذها عن أحفل وجوهها وأحفاها، فدنا ببركتها وقرب زُلفاها. جعلنا الله وإياكم ممن نورت

الحكمة قلبه بنورها، وملأت المحبة جوانحه ببشراها وسرورها، وأتته آمال الصلاح بمنقادها وميسورها، بمن الله وعونه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة الخامسة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بسبتة وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله فاتح الفتوح، وواهب الخير الممنوح؛ والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح، وعلى آله وصحبه الآخذين بأخذه المحض وقصده الصريح؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القاطع بأمر الله آثار الكفرة من الأقطار المعمورة والمهامه الفيح.

فإنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم في طاعته سعيًا متقبلا، وجعل الصلاح متبعًا لكم ومتقيلا- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نوالي بشكره سبحانه على ما يواليه سبحانه بأمره العظيم من إظهارٍ دائم، وعضدٍ بنصر أوليائه قائم، وإرداف حزب ظافر بحزب غانم.

وقد وُصلْنا أكرمكم الله بمخاطبتكم الأثيرة. فوقفنا على ما سنى الله تعالى لصاحبكم أبي محمد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافذين معه في القطائع عمرها الله حين ركبوا ثبج البحر غزاةً في سبيل الله، مستمطرين من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه.

فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر صنعه الكريم لأوليائه وبان؛ واجتازوا بأهل مالقة والمُنكَّب فأظهروا لهم من أحوال الامتناع، والاستعداد للدفاع، ما

أظهروا، وأبدوا سبلاحهم مجاهدين وشمروا.

ثم استخاروا الله على قصد المريَّة فألفوها قد أخذت بأشعار أولئك الأشقياء حذرها، وجمعت على دفع ما لا يدافع من أمر الله أمرها. فصبحها أولياءُ الله بكرة باكرتها بحتفها، وقطعَتْ دون المدافعة ما قطعته من سيوفها وأكفها؛ والكفرة الذين بها يرون ما لم يستطيعوا من ضم شخاتيرهم وتحصيلها، وتفريقها من وسقها ومحمولها.

فلما أظلَّت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعةً برومهم، قارعةً لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويوْمهم، راموا التحصن بالشخاتير المذكورة فملئوها سلاحًا ورجالا، وتخيَّلوا من رد أمر الله خيالًا فاسدًا وضلالا.

فبادر من بادر من الموحدين أعانهم الله إلى الحبال التي وثقوها بها شخاتيرهم المذكورة في البرّ، واعتقدوا الإسناد إليه بها جُنَّة من ذلك الأمر؛ فقطعوها قطعًا بتا، وفتوا بصرمها عن البرّ أعضاد الكافرين فتا. فلما عاين أعداءُ الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتنموا الفرار طمعًا في الإبقاء على ذلك الذماء.

فاقتفى الموحدون بالقتل آثارهم، ووصلوا باللحاق المستأصل فرارهم؛ ودخلوا عليهم الباب آمنين، وتخللوا أثناء القطر المذكور أعاده الله لاستنفاذهم طالبين. فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشيئات الكافرين ما حرقوا، استأصلوا بالقتل كل ما أدركوا منهم ولحقوا، ورأوا أن وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مدركُ ما ابتدروا واستبقوا.

ثم أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم

واحتثوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغُراب والشخاتير وحرقوا.ما لم يمكنهم جلبُه، ولا توجَّه لديهم طلبه؛ وغنموا من تلك الآلات الحربيات ما أتى الوصف على ذكره، وأحاط الأعلام بقدره. وعادوا بفضل الله ظافرين بأربح تجارة، ظاهرين بأوضح علامة للنصر وإمارة. فالحمد لله الذي أيد وأسعد، ومد لأوليائه من أكناف أعدائه ما مهد.

ووقفنا على سائر ما ذكرتموه وأعلمتم به من سؤال ذلك الوعد، والخروج به عن سبيل القصد، إلى غير ذلك مما يتبين من ذلك المضمر الفاسد والعقد، والله كفيل بقهر من خادع، وقاطع.

ووقفنا على ما ذكرتموه من وصول ابن مقدام إلى ما ذكر لكم من التعاون معكم في تلك الغزوة المباركة فألفاكم بحمد الله قد فُزْتُمْ بربحها، واختصصتم بمنحها، إلى سائر ما يشتمل عليه كتابكم من الأنباء الجامعة لفصول السراء. فاشكروا الله تعالى على ذلك شكرًا يكون لفضله مستزيدا، ورددوا ذكر آلائه ترديدا، واستديموا ببركة المهدي رضي الله عنه حظًّا من التوفيق سعيدا.

وأما ما ذكرتموه أكرمكم الله من أمر أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها فلتنظروا نظرًا أكيدًا في قطعهم، وردعهم؛ ولا سبيل لأحد من خلق الله أن يمد أحدا من تلك الأصناف بمادة حتى يتضح وجه ما ادعوه وتعرفونا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه. وكل من أُخذ حاملًا إليهم مادة، فالسيف جزاؤه، والقتل من تلك العادة، دواؤه. فاعتمدوا وفقكم الله على ما ذكرناه، واجتهدوا فيما أمرناكم به قبل هذا وألزمناه؛ وكونوا على قدم الاستعداد والمستعانُ الله. والسلام.

الرسالة السادسة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي فلان وجماعة المشيخة بقرطبة حرسها الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإنَّا نحمد إليكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح، ويلهم الراشدين من عباده إلى كل رأي نجيح، ويقرب للمتقربين بالتوبة النصوح، وكل آمّ شاسع ومأمول نزوح، ويشفي بدواء الإقالة، من مرض البطالة، كل كبِد ذات كَبد، وقريحة ذات قروح.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح، واستنفذ جهده في شكر مآله من خير موهوب وفضل ممنوح؛ ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاةً يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح؛ ونستنزل ببركتها على جنابه الأنضر كل سحاب سفوح، وعلى آله الأكرمين وأصحابه الظافرين من هداه بحظ ربيح، الجائلين في ميادين حقائقه، وأتباع طرائقه، مدى أجلّ فسيح.

ونصل الرضوان المستدام، على من وجب الله الاقتداء بها والائتمام. الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح؛ والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه على ما جبله عليه من صحة بالهداية وتصحيح.

وهذا كتابُنا إليكم -كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه، ونصرة ما أملتموه، أكرم إدامة، وأقام لكم في العالمين من شواهد الإخلاص أبين إمارة وأوضح علامة- من حضرة مراكش حرسها الله وبفضله جلت قدرته ما استفاض ببركة هذا الأمر المبارك من نور قدسي، وخير معنوي وحيّ، وما قربه بيمنه من أمل قصي، ولينه من شديد قسي، وأسمعه أولياءه من نبأ إنسي، حتى انتشرت في الآفاق مطارح أشعته، وابتدرت عشائر الإيمان ما ابتدرته من تعزُّزٍ بعزته الأبدية ومنعته، واستنار شرف سنته الطاهرة وشرعته، وأقبل كل موفق إلى ما وفق له من فيئته إلى الله تعالى ورجعته؛ واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم، واعتصموا بما لا ينجي من دعوته الربانية ويعصم، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكصُ المتأخر والألدُّ الخصم.

وقد وافانا أدام الله كرامتكم كتابكم الأثير؛ فكان عن عقيدتكم لسانًا مبينا، وأخذ في وصف انقطاعكم إلى هذا الأمر العظيم، واعتلاقكم بجانبه الرحيم، مأخذًا سهلًا بينا، ونبَّأنا بما تطوقتموه من رفقته حين فرض التوفيق عليكم منها واجبًا متعينا.

وانتهت إلينا بيعتكم التي ضمنتموها بما اشتملت عليه من عهودها ومواثيقها، والتزامكم لما أوجه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها؛ والله يمنُّ عليكم بتثبتها في مواطن الخلد وتحقيقها، ويوجدكم بركة ما أشممتموه من بروقها. وليس لكم وفقكم الله عن هذه الطائفة العزيزة إلا ما يطابقَ أملكم من إسعاف وإجابة، واحتلال قرار من لديها ومتابة، وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإطلاء مطالبكم أكرم إنابة، ووصلة تربط لكم بفضل الله موات أُخوة إيمانية وقرابة؛ فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكرًا تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة، وتستدعون

ببركة الله ولاء هذه العصابة، التي جعلها الله من خير أمة أُخرجت للناس خير عصابة.

واستقبلوا أكرمكم الله بالأعمال البرَّة عمرًا جديدا، وأحيوا أنفسكم بنور الحكمة إحياءً سعيدا، وعضوا على طاعة الله ورسوله ومهديه بالنواجذ عضًّا مسكبًا لإباحتها مفيدا، وأشهدوا الله تعالى على التزامها، والدخول تحت إحكامها، وكفى بالله شهيدا؛ واسألوا الله أن يطهركم بالثلج والبرد والماء الأبرد سؤالًا مستكثرًا من رحمته مستزيدا.

واستبشروا فقد نفحتكم البشرى بعاطر نفحها، وتلقتكم الكرامة بريحانها وروحها، وأجلتكم الأمنة أجوان كثبانها ودوحها؛ واستمسكوا بأمر المهدي رضي الله عنه فهو سبب النجاة والخلاص، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص، والموعود بالظهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص؛ هو أمر الله الذي أتمه صدقًا وعدلا، هو ستره الذي أصفاه على أوليائه سترًا وسدلا، هو رحمته التي شملت المؤمنين فكانت لهم أهلا، وكانوا لها أهلا، وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه، وتجدون عما قريب في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ما يظهر لكم بركته ونفعه، والنظر بعون الله يكنف تلك الأقطار وينتظمها حتى تبل أرحامها، ويؤمن حرمها، ويكون على سواء السبيل أممها، وينتحى الجادّة طوائفها وأممها.

وقد وفد لنا أكرمكم الله أصحابكم الشيوخ أبو محمد وأبو الحسن وأبو عبد الله وفقهم الله فألفوا بهذه الحضرة حرسها الله عصا تسيارهم، ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة منتهى طلبهم واختيارهم، وبلغوا ما تحمَّلوه من أخبارهم.

ونرجو أن الله تعالى يعيد تلك الأحوال إلى أفضل عوائده من الصنع الكريم، ويسقيها ما ينعمها به من ماء النعيم، ويوجدها من لطائف الرحمة ما كان قبل هذا الأمر المبارك في حكم المعدوم، بمنه. والسلام.

كُتب في الثاني من صفر عام أربعة وأربعين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة السابعة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة وفقهم الله لما يرضاه، وتولى بهم سبيل هداه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله الذي أيد بنصره المؤمنين، وفتح لأوليائه الفتح المبين، وجعل هذا الأمر المبارك التبشير والتيسير والتأمين؛ والصلاة على محمد نبيه الذي اختاره لإبلاغ رسالته، وحمل أمانته، فكان القوي الأمين، وقرن به من آله الطاهرين وأصحابه الطيبين الغر الميامين؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى مقيمًا دينه المتين، موضحا من آيات ربه، في قطع الباطل وجبّه، ما أراد به الإيضاح والتبيين.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله ممن نوَّر قلبه بنور الإيمان، وكرَّه إليه ما يكرهه من الكفر والعصيان، وقضى له بالخاتمة الحسنة، في تيسير السلامة والأمنة، والانقياد والإذعان- من حضرة بجاية حرسها الله وبحبل الله نتمسك ونعتصم، وإلى مرضاته نقصد ما نقصد ونيمم ما نيمم، وهو المستعان على أداء ما يتعين من واجباته ويلزم.

ولما قضى الله سبحانه في فتح هذه البلاد المشرقية بخير قضائه، وأجرى لهذه الطائفة المباركة في الإظهار والإيثار معهود اختياره وارتضائه، وبسط لهذا الأمر العزيز في أكناف هذه الأنحاء والأذراء بساط غلبته واستيلائه، وأصار من كان فيها

من الجبابرة والطغاة والكفرة، إلى غايات إبعاده وإقصائه، وغايات إعدامه وإفنائه؛ فأراهم أن الإعراض عن إجابة دعائه، والاعتراض عن محكمات سور الحق وآيه، والانتهاض إلى إطفاء نوره وضيائه، ممحقةٌ لا تبقي ولا تذر، وبطشةٌ لا تُمهل ولا تؤخر، ونقمةٌ تحرق بصواعقها من يتحرق في سبيل الغواية ويستعر، رأينا أن نُخاطبكم أرشدكم الله داعين إلى الله ورسوله، بما أوجبه سبحانه من الدعاء إلى سبيله، والتحريض على اعتماد الحق وقبوله، والتحذير من التوقف في مواقف إغواء الشيطان وتضليله.

وكما أوجب جلَّت قدرته على الداعي بدعوته العالية ما أوجب، وأندب أن ينادي إليه كل من عسى أن ينادي ويندب؛ فكذلك أمر المدعو بالإجابة والإنابة، وخصه من القبول والبدار الجميل على إتيان باب الإحسان والإصابة، وحذره من إمهال الامتثال، وإهمال الإقبال، ما يعدل به عن قرار الأمن والمثابة.

فبادروا وفقكم الله إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه، وسارعوا بالتوبة النصوح تسارع الراغب بدينه المقبل إلى ما يعنيه، الصارف نفسه عن ما كانت تكسب من الإثم وتجنيه. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطان لطلب الرضوان به واغتنامه.

فكيف به وقد أظلَّتكم في عقر دياركم رايته، وتجلَّت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته ووِلايتُه. واستغفروا الله إنه كان غفارا، وتوبوا إلى الله توبةً تُظهر تعويلكم عليها إظهارا، واحذروا ثم احذروا تماذيًا على الخطيئات وإصرارا، واحرصوا على ما ينجيكم وقوا أنفسكم وأهليكم نارا. وكونوا

أرشدكم الله ممن سار على الواضحة أحسن سيره، وسارع إلى نعيم هذا الأمر وخيره، واذكروا ما حاق بالمتوقف عنه من سوء مآله وصيره، واتعظوا بغيركم فالسعيد من وعظ بغيره.

وقد علم من علم ما منَّ الله به من فتح هذه الأقطار، أن من كان بها من زعماء الخسار والبوار، ورؤساء الاستعلاء الجاهلي والاستكبار، إما حقت عليه كلمة العذاب والدمار، بعد تقديم الإنذار إليهم والإعذار، والتربص عليهم أمدًا طويلًا رجاء الاستبصار.

فلما أبوا ما دُعوا إليه من الحق، واغتروا بما عاينوه من اللطف والرفق، واختاروا لأنفسهم الأمَّارة بالسوء ما اختاروه من المروق عن دين الله والفسق، أحلَّ الله بهم من ضروب الانتقام ما صيَّرهم عبرةً لمن يعتبر، ومزدجرًا لمن يزدجر، وآيةً كبرى يتأملها من يتأمل ويبصرها من يبصر.

وتلك سنَّة الله فيمن صدف عن آياته، وانصرف عقب سيئاته، وتصرَّف في زوايا ضلالاته وغواياته، وتوقف عن أن يستمد من مواد هذا الأمر السعيد الممدود مادة حياته. وإن لله من تخصيص من يخصصه بإرشاده، ويخلّصه لإسعاده، سرًّا يبديه فيمن شاء من عباده، ويظهره فيمن يؤثره بحسن طويته وصفاء ضميره واعتقاده.

وقد كان الشيخ القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون أكرمه الله في هذه البلاد المفتتحة على ما عرفتموه، وألفيتموه. وكان الحديث عنه خيرًا يُذكر، وجنوحًا إلى هذا الأمر المبارك يتكتم به ويتستر.

وكان أكثر الواردين على هذه الحضرة والصادرين عنها من صنف الطلبة وغيرهم من التجار، المتصرفين في هذه الأقطار، يصفونه بهذه الصفات الحميدة،

ويروون عنه آثار هذه الطوية الصالحة والعقيدة، وتستفيض أخبارهم فيما لديه من الإرادة الحسنة والنصيحة الأكيدة، إلى أن يسر الله وبشر له حسناه بالانتظام في هذا السلك النظيم، والاعتصام بهذا الأمر العظيم.

فصار بفضل الله عليه من أشياعه وأوليائه، وحملة أياديه وآلائه. وها هو الآن وأخوه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدون وسائر من بنيهم وإخوتهم وقرابتهم -وفق الله جميعهم- يتفيئون إلى ظلاله الممدودة، ويتصرفون بأعماله السعيدة، ويردون ما يأملونه من زُلاله في حياضه المورودة. وذلك من فضل الله على من أهَّله له، وإحسانه على من أمَّ إحسانه وأمَّله.

وأنتم -وفقكم الله- مدعون إلى الله سبحانه فلبوا، ومعنيٌّ بإيقاظكم من نوم الغفلة فهبوا، ومحبوبٌ لكم الخير فأحبوا. ولن تعدموا إن شاء الله بالمسارعة الحسنة، والتوبة المتمكّنة، أمانًا يشملكم، وصلاحًا يستقبلكم، وكرامةً تحلُّكم في محالها وتنزلكم.

والله ييسركم لما يزلف غده، ويعرّفكم هُداه ورشده، بمنه. ولتعلموا -وفقكم الله وسلك بكم سبيل هداه- أن قصد هذا الأمر الكريم، في الخصوص والعموم، إظهارُ دين الله تعالى على ما أوجب وفرض، وجهادُ من نكب عن سبيله وأعرض، وقطعُ آثار الظلمة كثيرها وقليلها، وإجراءُ الأمور كلها على منهجها الشرعي وسبيلها.

وقد كان بهذه الأصقاع، من آثار أهل الاختلاق والابتداع، ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع. وكان الأشقياءُ من ولاتها يرون إيجابها وإلزامها شرعًا يلتزمونه، وواجبًا يقدمونه؛ ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من

الزكوات والأعشار، بل كانوا يطرحون ذلك اطراح أمثالهم من الفجار.

وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم، وأزاح عن عباده جوهرهم ونزوعهم ورُدَّ الأمرُ إلى أصله الأكرم ونصابه، وأُجري الشرعُ بالإمام المهدي رضي الله عنه على بابه؛ وأراح جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم، ويعرفونه من أسباب المظالم.

ولما منَّ الله على أهل البلد بما منَّ به من التسليم والتأمين، وأحلهم بفضله ورحمته كنف هذا الأمر المكين الأمين، انقطعت عنهم أسباب الظلم بانقطاع أهله، وسُدَّت عنهم أبوابُ الباطل كثره وقله. فلا يُطلبون إلا بما توجبه السنة وتطلبُه، ولا يُلزمون -ومعاذ الله- مكسًا ولا مغرمًا ولا قبالة ولا سيما مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبُه. ولكن في علم ذلك ومعرفته دليلٌ على ما سواه، والله يهدي بهداه من اختاره وارتضاه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الثامنة

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية في فتح قسنطينة وإنابة يحيى بن العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بتلمسان وجميع من فيها من الموحدين أدام الله كرامتهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق، وتمت نعمته تمامًا على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق؛ والصلاة على محمد نبيه المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أولي البواء إلى مرضاته والاستباق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، علَم الأعلام، وذخيرة الإيمان والإسلام، وبدر الكمال والتمام، الطالع بأشرف مطالع الإشراق، الفارع عند تطاول الرءوس والأعناق، الجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة، ومكّن في تمكينكم وإصلاح شئونكم الإنالة والإفادة، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة- من حضرة بجاية حرسها الله عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر ينزه بشرُها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب المألوف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تخليها واتضاحها عن كل برهان ووجوده، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها في المستولية محصى العادة ومعدوده. نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر، وعمي

الأبصار والبصائر، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونًا يعين وينهض، وعملًا يتخلص بشكر آلائه الباهرة ويمحض، وقوة لا تتتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض.

وقد تقدم إعلامكم وصل الله سروركم، وضاعف شكوركم بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسّر مرامها بحوله واقتداره، ونُور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره، وصيَّر أباطحها وآكامها من مواطئ أوليائه وأنصاره؛ وكيف كانت صورةُ الحال في درجها. وتصرف الانتقال من محصبها إلى عرجها.

وأن أبا زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور وجميع إخوته وقرابته وخوولة حين أتاهم الذائد الذي لا يكذب أهله، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله؛ لم يكن لهم بدٌّ عن التولي عن قرارهم، والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم؛ لأمرٍ قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه، وشأنٍ طوى الخيرة درج تضمنه واقتضائه، فكان مأمهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته، بلد قسنطينة عمره الله لكونه بحيث لا يُنال بقدرة مخلوق، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق.

وكانت جملٌ من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه، واعتدادهم في عداد من يحويه ويؤويه، بجهة القلعة حرسها الله على أثر فتحها الميسَّر، ونيل أجرها على الوجه المتنجي، فأنهض منهم بعون الله إلى تلك الجهة من رُجي الخير في إنهاضه، وحُضَّ على خدمة هذا الأمر وإعراضه. فحين ألمَّ الناهضون المذكورون وفقهم الله بجهات قسنطينة حرسها الله فُتح لهم الفتح الذي تقدم إليكم بيانُ القول فيه وإعرابه، وأُورد عليكم إبداع القدر في تقريبه وإغرابه، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال وأحزابه؛ وحلَّ الموحدون هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وذراه، وغشيه منهم ما غشيه وغراه، وما ترك القطا به أن يقطم كراه.

وكان التخييم الملاصق، والتدويم المراهق؛ والحق يتجلى، والنصر يتولى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولى، إلى أن صرف الله ألباب القوم المذكورين إلى قبلة الإصابة، واراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقرُّ قرار اليمن والمثابة؛ فاتفق رأيهم على إنقاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى، مستسلمين للأمر الذي لا يقابل بعناد ولا يلقى، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى.

ووصلت الجماعة المذكورة إلى هذه الحضرة المحروسة، يسعى أملها بين يديها، ويعرف القصد عما لديها، وأنهت ما تحملته من المخاطبة، وأمَّتْهُ لها ولمن وراءها من حسن العاقبة، فمنَّ الله على جميعهم بتيسير مطلبهم، وإجمال منقلبهم؛ وصدروا إلى مُرْسلهم تتهلل أسرَّتُهم، وتتحمل بحلل العافية والنعمة الصافية كرَّتُهم. فأتوا قومهم على تطلُّع إلى بشراهم، وتمتُّع بطيب ذكراهم، وأعلموهم بالصنع الذي عرَّفهم تعظيم صنع الله وأدراهم. فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنَّى لهم بفضله غاية ما طلبوه. ورزقهم من حيث لم يحتسبوه؛ ووهبهم من إيواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا، حين لم يكن لهم منجأ إلا الذي نُزحوا عنه وغُرّبوا.

وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحققه، وتعرُّف سنَّة هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه؛ وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة. ودخل القطر من أُمناء الموحدين وغزاتهم وفقهم الله من أُمر بعمارته، والاستقرار في قرارته. واستقبل أبو زكرياء المذكور ومن معهم وفقهم الله هذه الجهة حرسها الله على أحسن حال، وأكرم إقبال.

وأتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط، والصنع المبسوط، إتمامًا بلَّغ الآمل غاية مأموله، والسائل كافة مسئوله. فذلك القطر هو الطرف الأعلى، والرابط الأحق

الأولى، ورأس الجسد الذي استتبع بعضه بعضًا واستتلى؛ وبه انعقدت روابط هذا الإقليم العظيم وقواعده، وفقدت ضرر من كان ينوي الضرر فواقده، ومعه متأتى جمع شمله وضمه، وإمساك شأنه كله وعزمه، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه. والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عونًا ممدودا، وحولًا بمعاقد المعونة الربانية معقودا، وقوة تلقي من حمدها إلى كل جديد منها جديدا؛ بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكُتب في العاشر من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة التاسعة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي محمد وسنار، وجماعة أصحابه الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة من أهل مراكش أكرمهم الله بتقواه، وأعانهم على شكر نعماه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق إتمامه وإنجازه، وتحصَّل لحزبه الآخر السابق إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوه الفاسق المارق قهره وأعجازه؛ والصلاة على محمد نبيه الأمين، الذي أُظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، الذي تجلى بهم تعيُّنُ الإسلام وامتيازُه؛ والرضوان المستدام عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُوضح سبيل الرشاد حين عم استغواءُ الشيطان واستفزازه، ومُنجح أسباب الارتياد إذ تيسر اغتنام المطلوب وانتهازه.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله من عباده الشاكرين في الرعيل الأول، وعرفكم عوارف الصنع المنيف بكم على المحبوب المؤمَّل، ولا أعدمكم بوصل الاستيلاء، وإدامة الإظهار والإعلاء، وعزةً حاملة على سنامها المذلل، شاملة بغمامها المضلل، عاملة على تمامها المكمل- من حضرة تلمسان حرسها الله وقد تعالى فتح الله أن تحيط به الأقوال، وتجاوز ما تطمح نحوه الآمال، ويتناهى إليه الطلب والسؤال، وعلى الرويَّة والمروَّى فما البديهة والارتجال، وانتشر على البلاغة والإدراك فلا التقسيم ولا الحصر ولا التفصيل ولا الإجمال، ومع اعتماد التحقيق، وارتياد التصديق، فما الأمر

مما يدرك بنعت ولا ينال.

وقد تقدم إليكم وفقكم الله وأعانكم على شكر ما آتاه من ذكر ما تحملته الإشارة والإلماع، ولهذا الكتاب التالي، الذي من شأنه برزت الأيام والليالي، نُبَذٌ قررها الأصفاق والإجماع، وبِشَرٌ انتهت عند أولها الأماني والأطماع.

فقد كان صنع الله في افتتاح هذه البلاد الشرقية على ما تقدم ذكره من التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع، وإراحة النفوس بإزاحة القواطع والموانع؛ وهذا الأمر العظيم في درجاتها يستعلى، وعلى غاياتها ونهاياتها يستولى؛ وببركات باسطة في الوجود، وحائطة على الرسوم الشرعية والحدود، يستتبع نواشئ النماء المزيد ويستتلى؛ حتى جمعها بجوامع القهر، وأنطق فيها لسان الإيمان إنطاق الإعلان والجهر، وصير غرائب التفسير فيها آيات بينات على باقيات الدهر؛ ومن يرتضع أشطرها من الأعراب، ويودع أعمرها دواعي الجلاء والخراب، قد قذفتهم الغلبة حينئذٍ إلى صحرائها. ونبذتهم الروعة بعرائها، وحدَّثتهم حال الكرَّة المهدية عن كماتها وضرائها.

فصاروا بين تدافع الحيرة والتيه، وتراجع التخييل والتمويه، مظهرين الإنابة إلى المتاب، متكررين في أكثر الأحيان على مراتب الشك والارتياب. وعساكر الموحدين المتقدمة إلى فتح القلعة وقسنطينة حرسهما الله مخيمون على إشعال تلك الجهات بإزائهم، حريصون على غزوهم في عقر مواقفهم ومراقب انتزائهم، راغبون في الإذن لهم بمسئولهم، ناظرون إلى منشآت خيال الضالين وتخييلهم.

وهم آخذهم الله في خلال ذلك يوالون المراسلة على معنى المخادعة، ويخافون عقبى المصارمة والمقاطعة، ويترددون في التقدم والتأخر مع الانقياد والمنازعة؛

واضطرابهم في أحوالهم تلك مستوضح، وارتيابهم مع ظهور الجلاء ممقوت مستقبح؛ والأمن مع ذلك يتفقد الموحدين المذكورين بالتأكيد عليهم في الإضراب عنهم وإن سفهوا، والألباب على تنبيههم ليتنبهوا.

ورسائلهم ورُسُلُهم أثناء ذلك تقابل عندنا؛ فعادة هذا الأمر العزيز هي الاحتمال والإجمال، والرفق بالجهال، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإسهال؛ لتشملهم التوبة بحسناها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوهها وأسناها، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها؛ إذ لا مراد من أهل الدنيا إلا توبةٌ يصدّقونها، وعقيدةٌ بالإيمان يحققونها، ويدٌ بالطاعة يمدونها إلى الشريعة ويلقونها.

فلم يرد الله إلا أن يكون هؤلاء الأشقياء ممن تقذفه الهلكة إلى سحيقها، وتتقسمه النقمة بأيدي تبديدها وتمزيقها، وتنصبه العبرة على منزوحة سبيلها وطريقها، لأنهم كانوا خلال ما ذكرناه لكم من أحوال استئلافهم، والتصبر على حفاتهم وأحلافهم، وإمساك الموحدين عن مقدورهم من تدميرهم وانتسافهم؛ يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى جهات الإسكندرية من العرب المغمورين بغوامر الجهالة، المغرورين بأوامر الضلالة، مخاطبة الاستصراخ والاستنجاد، ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد.

فحين شاء الله أن نحق عليهم كلمة العذاب، ونشق إليهم مهامة ذلك اليباب، عند العزم على هذه الحركة الميمونة لمعنى الانصراف والإياب، أتت بالحائمين أرجلهم، وعجل إليهم بالدمار تعجلهم، وأسرع به الويل لا يؤخرهم عن ميقاتهم ولا يؤجلهم. وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بن عامر من عرب اليمن، وشعوب الحروب والفتن، بقضهم وقضيضهم، عاملين

على إغواء إخوانهم الضالين وتحريضهم، نافرين أفواجًا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهم، حتى التقى المصرخ والمستصرخ.

وقعد الشيطان على نحورهم أجمعين يتبن وينفخ، وألقى في قلوبهم المظلمة أن يكون جيشهم الذي يدوخ، وأراهم أن الجميع مروعٌ بهم روعًا لا يسكن ولا يفرخ؛ وزين لهم سوء أعمالهم والله يكتب ما يعملون ويستنسخ. فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد، وكتائبهم تتعاقد على الاعترام وتتعاقد، وأمدادهم التي غصت لها تلك المشارع المعينة والموارد، تتناصر على رايها الخاسرة وتتعاضد، إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العد خيلًا ورجلا، وعمَّروا أنجاد تلك الأرض وأغوارها وعرًا وسهلًا؛ فما استطاعتهم جملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرارًا ولا أن يكون لها أهلا.

والموحدون الكائنون إذ ذاك هناك مقبلون على ما أُمروا به من ارتحالهم إلى العرب وانتقالهم، والكف عن معارضة أولئك الخاسرين وقتالهم؛ فزادتهم تلك الحال الظاهرة اغترارا، واقتضت عندهم عفوكًا على الطغيان وإصرارا، والأقدار تجرهم برسن الإهمال إجرارا، وتطوى في صدر الزمن مخبيئات من الامتحان وأسرارا.

فكلما رحل الموحدون المذكورون إلى مأمنهم مرحلةً رحل الضالون على أثرهم، وعملوا على شاكلة تخيلهم الذميم وتصورهم، واعتقدوا مصاقبتهم في المحال، وتمكنهم من ذلك السعي الضال، قدرةً من قدرهم، ونتيجةً من نتائج آرائهم ونظرهم، بوادي الأقواس بجهات سطيف عمَّرها الله ورأوا أن الأشقياء المذكورين يلازمونهم ملازمة الظل، ويرادفونهم على الترحال والحل. وأن الحال تقتضي مناجزتهم ومفاصلتهم، وتوجب مقارعتهم على دين الله ومقاتلتهم.

ولم يجدوا دواءً يشفي من دائهم العضال، ويستوفي الإراحة منهم في تلك الحال، إلا العزم على جهادهم بعد الاعتماد على ربهم والاتكال؛ فخاطبونا بعزمهم على ذلك، وأعلموا بصورة أحوالهم هنالك، وعرَّفوا بكونهم عند مخاطبتهم المذكورة ناظرين في غزوهم، مجيلين في لقائهم بعون الله تعالى أعنَّة عَدْوهم.

فكان من التوفيق الممنوح، والرأي السالك إلى السداد سبيل البيان والوضوح، وإنفاذُ جُمَل مباركة وأعداد مسددة من عساكر الموحدين أعانهم الله إلى الجهات المذكورة على وجه الاستظهار بحركتها، والاستكثار من بركتها؛ ونحن إذ ذاك بمتيجة عمَّرها الله على سبيل الصدر، وحالة المعلن المقدر.

فبذل الموحدون الناهضون إلى إخوانهم جدهم في السير، ورجوا نيل حظوظهم من ذلك الخير؛ فلحقوا بهم أعان الله جميعهم على المرغوب والمرجو، وأطلوا على جنابهم إطلال الظهور والعلو، وكان الاتصال بفضل الله قبل مناجزة ذلك العدو. وألفوا آجالهم أعانهم الله على غاية من الاستشراء، ونهاية من الاسترسال على تلك الأذراء؛ واجتمعوا على بركة الله اجتماعًا أحمدوا عاقبته، وقصدوا ملاحظة أمر الله تعالى ومراقبته، ودارت بين الموحدين أعانهم الله مواعظ التذكير والتذكر، وتقررت عزائمهم على نصر كلمة الله كل التقرر، وحسن المتاب ورُجي الثواب للأمد المضروب والميقات المقدر، وقصدوا أعداءهم بعد الاستعانة بالله والتوكل على نصره المؤزر، عندما أشرقت شمس الضحى، ونُصبت رحى الحرب فكانوا قطب الرحى، وانتحى من نصر الله وفتحه القريب من حزبه المظفر ما انتحى.

ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الإيماني والالتزام، راموا فحيلَ بينهم وبين المرام، وتخيلوا الإقدام على ثبت الأقدام، من مدارك أمثالهم من الطغام، وأشكالهم من الأوباش اللئام، فلم يُغن

عنهم عمل الأوهام، من هول ذلك المقام، وأحدق نصر الله بأوليائه إحداقًا جمعهم على أقطاب الالتيثام، وأودعهم خِلال البَرَرَة الكرام؛ وكانت للكافرين دفعات جاهلية عادت بها عليهم عوائد الانتقام، والتقمتهم الحرب الزبون عندها أوحى الالتقام؛ وكابد ذلك الهول الكبار جميع فرسانهم وأعيانهم، ومن يدعي البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم، فالتقت عليهم حلقتا البطان، واستقبلت بهم تلك الهزيمة الشنعاء جهات تلك المراحات والأعطان.

فاختلطوا بمواشيهم اختلاط الأنعام بالأنعام، وأُزعجت أوساطهم إلى حواشيهم إزعاج الإرهاق والإرغام، وفُرّقوا ولا حول ولا قوة إلا بالله تفريقًا بعد الاجتماع ونثرًا بعد الانتظام؛ وأخذت المنايا تلتقطهم، فتنشرهم على الأرض وتبسطهم، وتُريهم أن الغواية توقع الغاوين وتورطهم.

واستمر القتلُ فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره، ولم يسِر الموحدون فيه على ما ذكروه إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدورٍ على عمدتها منصوبة قائمة، وأبقار وأغنام لم تُحِط بها الأبصار، ولا قيدها في عيون الناظرين التناهي والانحصار، وغير ذلك من أنواع الأنفال، وضروب المغانم التي لا تجري على حكم التمثيل ولا الأمثال، حيٌّ إلى جنب حي، وشيءٌ متصلٌ بشيءٍ، مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال.

فبأعداء الله ما بهم من قتلٍ مُفْنٍ، وانهزام مُبْعِد وحمام مُدْنٍ، وانصرامٍ بكل صارم ماضٍ وانتظامٍ بكل ناقدٍ لذْنٍ؛ غشيتهم تلك الغواشي الغوامر، فذل لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويلُ بهلال بن عامر، أقل الهلال وخرب العامر، ولم يحل بين سيوف الموحدين، ورقاب الفل من أولئك المفسدين، إلا ليلٌ أجنَّه بغسقه، وطواه على أخريات رمقه.

ثم انقسمت جيوش الموحدين وفرها الله صبيحة اليوم الثاني إلى أقسام أخذ كل قسم منها سبيلًا غير سبيل غيره، واستقبل ما يستقبله الطالب المجد من قصد مرامه وإعداد سيره؛ فمنهم من غاب عن المجتمع، وجدَّ في ذلك الاتباع والتتبع، أربعة أيام وأكثر وأقل كلٌّ يغزو ويغنم، ويجول في تلك المهامه الفيح لا يضني ولا يتلوَّم، حتى انتهوا إلى أوائل بلاد إفريقية وما يجاورها، لا يرون لبقية المارقين أثرا، ولا يجدون محدّثًا عنهم ولا مخبرا.

ثم آبوا بفضل الله ورحمته ومعهم من الأنفال المضافة إلى ما تقدم ذكره، والغنائم التي يتضاءل لها عدُّ كل عادٍّ وحصره، ما لا يعبر عنه بعبارة تحديد، ولا يتوهم متوهمٌ أن وراءه في الكثرة من مزيد. وأخذ الموحدون أعانهم الله بعد اجتماعهم على مركزهم، وظفرهم بمحبوبهم وبمنجزهم، يضمون من سبي الكافرين وغنائمهم وما أوبقته الحرب من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيع الضم، ولا يتناوله الكثير الجم. ثم أخذوا في الحركة بما أُقدروا على سوقه من ذلك إلى هذه الجهات حرسها الله بعد أن لم يتمكن لهم بوجهٍ من الوجوه عد ما تحملوه، ولا استولت إحاطتهم على ما نقلوه. وهُم الآن رعاهم الله مقبلون بها على أتم ما تتعلق به الآمال البالغة، وتقتضيه الكرامة السابغة.

وأعلَمْناكم بذلك أعزكم الله ليعظم منالكم من هذا الفتح الذي طبَّق الآفاق حديثه، وملأ الأبصار والأقطار منشوره ومبثوثه؛ ولتشكروا الله عليه شكرًا يستنفذ غاية استطاعتكم، ويستنجد عزائم نشركم له وإذاعتكم. والحمد لله الذي عمَّنا وإياكم ببركاته، ونصب على حقيقة هذا الأمر الحق إلا من أدلة آياته، وجعل العاقبة لأولياء دينه المتين وولاته. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكُتب مستهل ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

الرسالة العاشرة

لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور[١]:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسره لما يرضاه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العونُ لأوليائه والإقدار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار؛ والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواءُ والأنوار، وعمرتْ بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بحجته الكفر والكفار؛ وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وتقدم الامتعاض له والانتصار. وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم نظرًا يريكم المنهج، ويُلفيكم الأبهج فالأبهج؛ وآتاكم الله من نعمة الإيمان، وعصمة الانقياد له والإذعان، ما تجدون به اليقين والثلج- من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ولا استظهار إلا بقوته وحوله، ولا استكثار إلا من إحسانه وطوله.

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه، ومطيةً لرقيه وقرارة لإقامة حقه؛ وحمَّل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه؛ وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة، وأحكامه المرتبة، ومنجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والأحوال المُعْطبة؛ رأينا أن نُخاطبكم بكتابنا هذا أخذًا

---

(١) راجع كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، ط مصر، (٦/ ٤٤٣-٤٤٥).

بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتوصيله.

فأجيبوا رفعكم الله داعي الله تسعدوا، وتمسكوا بأمر المهدي رضي الله عنه في اتّباع سبيله تهتدوا؛ واصرفوا أعنَّة العناية إلى النظر في المآل، والتفكر في نواشئ التغير والزوال، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف هذه الأحوال، واعلموا أنه لا عزة إلا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال؛ ولا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال، وليس لكم في قبول النصيحة، وابتداء التوبة الصحيحة، والعمل بثبوت الإيمان في هذه العاجلة الفسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمنة والدعة، والكرامة المتسعة، والمكانة المرفعة، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة. فنحن لا نريد لكم ولا لسائر من نرجو إنابته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الأعم، والنجاح الأتم.

وتأملوا سددكم الله من كان بتلك الجزيرة حرسها الله من أعيانها، وزعماء شانها؛ هل تخلَّص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويُعِدُّه، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأدوم الأبقى، وتنعم بما لقي من هذا النعيم المُقيم ويلقى. وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه، فقد عُلم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوءُ منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به.

وحق عليكم وفقكم الله ويسركم لما يرضاه أن تُحسنوا الاختيار، وتصلوا الادكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار. وما حقُّ من انقطع إلى هذا الأمر الموصول الواصل، وأزمع ما يناله من خيره المحُوز الحاصل، أن يناله منكم شاغلٌ يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه ومودوده؛ فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية

حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان.

ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في أمر أهل لوْرَقة وفقهم الله حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم؛ وليس لذلك وأمثاله عاقبةٌ يُحمد، فالخير خير ما يُقصد، والنجاة فيما يُنزح عن الشر ويُبعد. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظرٌ موفق، ومتاعٌ محقق؛ ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسعد، وسائقٌ يُرشد. والله يمنُّ عليكم بما ينجيكم، ويمكّن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم؛ بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكُتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الحادية عشرة

وهي عديمة الرأس لبترٍ وقع في المخطوط المنقول عنه، ولعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

وهذا كتابنا -كتب الله لكم ملء القلوب، من الإضاءة والتنوير، وكفاء الظواهر والغيوب، من التلخيص والتطهير، وأعاذكم بعصمته من تقلبات التبديل والتغيير، ونجاكم برحمته من مويقات التفكير والتقدير- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نشكره سبحانه على ما وطأ أمره العزيز ومكَّنه، وأضعف به كيد الشيطان وأوهنه، ومهد بإثارته هذا القرار الأمين وأمنه؛ فلله عز وجل في كلاءة هذا الأمر المحفوظ وحراسته أسرارٌ يمكن الإيمان تصفحها واجتلاؤها، وأقدارٌ يبسط الدعة والأمان اختيارها وابتلاؤها، وآثارٌ يبعد بها عن مبلغ الأعداء ومدارك الأشقياء سمو هذه الدعوة واعتلاؤها؛ وهو أمرُ الله الذي لا يضره مناويه ومخاذله، وعهده القوي الذي لا يناله أوباش الظلم وأراذله، وكلمة الله التي لا يثني المؤمن عنها عاتبه العتيُّ وعاذله.

وقد تجدد الآن من نصر الله وفتحه، ما تعجز القوى البشرية عن شرحه، وتظهر العناية الربانية في بذله ومنحه؛ وإن كانت العبارة بأوائل ذكره مستنفدة، والنعوت والأوصاف في حقه منحطة إلى أرض القصور مخلدة؛ ففي إلقاءِ الممكن من حديثه مجالٌ للاعتبار، ومنالٌ لعزيز الآمال والأوطار، ومآلٌ لناشئ التيقن والاستبصار؛ وما هي إلا آيات بينات غشي العالم نورها، وحقائق جليات اضمحل لها إفك الكفرة وزورها، وجنود معناويات برز لنصر هذا المحسوس النفيس محجوبها ومستورها.

وذلكم أن الأشقياء فلانًا وفلانًا وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة كامنةً على أذاها، وعيونهم السخينة نائمةً على قذاها، وفِطَرُهم الفضة ناشئةً بما مدها من الغلظة وآذاها؛ ولم نزل بعد الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه من أول هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية، ونجريهم بمجاري العناية والخفاية، ونسعى في تدريجهم على مدارج المعرفة والدراية، ونأخذ بأيديهم وهم يخرون على وجوههم الغاية بعد الغاية، ونرى وصل أرحامهم التي قطعتها شقاوتهم من جملة ما يجب لحرمة المهدي رضي الله عنه من الحفظ والرعاية؛ وهم خلال ذلك أغمارٌ لا يفهمون، وسوائبُ لا يقفون عند حد ولا ينتهون، وهَمَلٌ يريدون التصرف في المنكرات بما يشاءون ويشتهون؛ دأبهم استخلاصُ الفسقة، واستصحابُ الخونة من حثالة الناس والسرقة، والاسترسال في مذاهب الأنعام المرسلة المطلقة.

ونحن مع الأخذ بأيديهم، وكفهم عما يرديهم، نرجو أن شعب الجنون من شبابهم تسكن، ومستأنف الأحوال من قبيح آدابهم يحسن، ودائب الرفق في عتبهم وإعتابهم يدرب ويمرن؛ وسابقُ الشقاء مع ذلك يستتبع فيهم لواحقه، وينصب بينهم وبين السعادة قواطعه وعوائقه، ويحمل آراءهم المنقومة، وحوادثهم المذمومة، حوادثه وبوائقه.

فلا يلحظون جهةً من جهات التقوى بطرف، ولا ينتفعون من كلمات التذكير وحروف التنبيه بكلمة ولا حرف، ولا يتعرضون لقبول الله بشيء من أعمالهم في عدل ولا صرف، حتى انتبذوا عن أمر المهدي رضي الله عنه بالغراء، واتخذوه وراءهم ظهريًا بجانب الإبعاد والإقصاء، وصارت حرماته عندهم منتهكة، وأماناته مستهلكة، بيد الغصب والاعتداء، وأظهروا عورةً ما استطيع سترها بوجه من وجوه الستر الشرعي والإغضاء؛ وكلما ارتفعت أسنانهم إلى أطوار الكهول، وخيلت

هيئاتهم وأبدانهم أنهم في حد أولي الفهم والعقول، هوى بهم حرمانهم في غيابات الغفلة والذهول، واجتاز بهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول.

واقترن بهم من قرناء الرجس، وشيطان الإنس، من كان يلقي إليهم زخرف القول غرورا، ويَعِدُهم بما يوهلون له جذلًا بنيله وسرورا، ويُريهم نُهَز الغفلات، ذهابًا بهم إلى المهلكات، ومرورا.

ومع ما كان الأمر يتوسع لهم من الأرزاق المنعمة، والخيرات المتممة، والمنازل المكرمة، والخيل المسومة، فلم يكن مستطابهم إلا غلولًا يحترقون بناره، ويتطوقون بعاره، وينطلقون في أنجاده من تهاوشه وأغواره؛ والنصائح أثناء أحوالهم، وإزاء أهوالهم، تروم امحاءهم من سكرتهم، وإقالتهم من عثراتهم؛ فلا يزيد الإرشاد إلا غيًّا، ولا تسمع الموعظة من حيهم ليًّا، حتى تفاحش منكرهم، وتطابق مظهرهم الخاسر ومضمرهم، ولم يقِفهم عن محارم الله تعالى ما يَقِف أهل المروات ويزجرهم.

فلما أشرف على دائهم الإعياء، وتجاوزهم الاستهتار والإغواء، ولم يردَّهم من خبائث إرادتهم الخوف ولا الحياء، هجروا قصد التأديب بالهجر، ووقفوا موقف الردع والزجر، واحتملت المشقة في التماس ما عسر من تعليمهم وتقويمهم رغبةً في المثوبة والأجر؛ ثم لُوحِظَتْ رعايةُ ذمامهم، وثنيت القلوبُ على جانب استعطافهم واسترحامهم، واعتقدوا الصدق فيما ادعوه من التوبة لاحتقار آثامهم، وبُيِّن لهم أن الذي يثبت به شرفهم، ويرعى معه أولهم السابق وسلفهم، إنما هو الاستمساك بعروة الدين، واتباع أمر المهدي رضي الله عنه على الثلج واليقين، والتأدب بآداب الطائفة الصالحات في كل الأعمال والشئون.

ونُهوا عن مخالطة الأوباش، ومداخلة أهل الانزواء إلى باطنهم والانحياش؛

فأظهروا الاعتزال عما كان المتاب منه، ثم عادوا على إثر ذلك لما نُهوا عنه، وتردد الردع لهم والزجر وتريد الشرك والقرع، وتمكّن في تعريفهم، لتبديلهم وتحريفهم، الإيضاح والصدع، وهجروا مرة بعد مرة، فعادوا إلى سيئاتهم كرة على كرة، واستبطنوا من سحرتهم وكهانهم شر فئة وأسوأ عترة، وترددت عقولهم المعقولة بين نفاثة في عُقدها، وعاكف على ارتكاب القرانات وترصدها، وحاكم على غيب الله بخروج الاشكال من الاشكال وتولدها.

فاستمر تخبطهم في مسالك العطب، وتورطهم في طلب وعدهم المرتقب، وزين لهم ما في استهواء الناس بمنصبهم، ودعائهم في السر إلى اعتقاد مذهبهم؛ وناجاهم على ذلك من شيطانهم جمع، وألقى إلى حديثهم المفتري نصرٌ من المذنبين وسمع، والأمرُ إذ ذاك عندهم على استتار واحتجاب، وهم من العثور عليهم وتوجُّه النقمة إليهم في شكٌ وارتياب؛ وعندنا من تحسين الظن بالكافة غاية ما يمكن، ومن معاملة الجمع بالجميل ما يجب لله تعالى ويتعين؛ والأشقياء المذكورون لا يرون الإحسان إحسانا، ولا يتزيدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلا نفاقًا وطغيانا، والآيات تُسمع وتتجلى فلا تلقى منهم إلا صمًّا وعميانا؛ ونار الحقد في جوانحهم تتأجج، وسموم الغل تتمشى في أعضائهم وتتدرج، وهم من تزيد الكرب وتأكد الهم بما يسرُّ هذا الأمرالعزيز ويبهج.

فلما كانت الغزوة التي فُتحت فيها بجاية وسائر تلك البلاد المشرقية وظهر من نصر الله هناك العجب العجاب، وتأتى بها من غرائب التسهيل والتيسير ما بهر العقول والألباب، ثارت كوامنُ حسدهم تطرق وتنتاب، وأُنفرتْ حياتُ إذايتهم تنسلُّ وتنساب، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكًا لا يُشكُّ فيه ولا يرتاب.

وكان لهم في الشقي فلان عمدةٌ كبرى، وعدةٌ أجرى لها القدر من حكمه

المستأصل ما أجرى؛ فاطلع الله على سرّه الخبيث قَبْلَهم، وصرَّم بانتقاله حبله وحَبْلَهم، وتعجل إليه النظر المتدارك فقيده وعقله، وطرقه الأمر المعاجل فاستاقه ونقله؛ وأقام في السجن إلى أن كان الإياب إلى هذه الأقطار، بحكم الاستحسان والاختيار؛ وأوضح الله عند ذلك من بواطن أولئك العادين الماكرين، وسائر أولئك المنافقين الكافرين، ما توالى على وضوحه وظهوره حمدُ الحامدين وشكر الشاكرين.

فنُظر بعون الله في إطفاء نورهم قبل اشتعالها، وقطع موادهم قبل تسرُّبها واتصالها، وجزِّ رءوس الفتنة عند صراخها واستهلالها. وقُتل فلان بن فلان ومن جرى مجراه في الشقاق والنفاق، وأُخِذَتْ على الكفرة والفجرة مخارج الجهات وثنايا الآفاق، وتقبضت على الباقين منهم يد الأسر بعد الإثخان وشد الوثاق، واقتضى الإبقاءُ والإملاءُ في الشقيين الباقيين فلان وفلان وتأخيرهما بقدر الله عن ذلك المهلك، والعدول بهما إلى سبيل النجاة من ذلك المسلك، على تيقن من فسادهما، وخبث اعتقادهما، وانبعاثهما إلى أسباب نفاقهما وارتدادهما. وأقاما بهذه الحضرة حرسها الله في قيد الغفلة، وفترة المهلة.

ثم ظهر أن الغاية القصوى في التجاوز عن عظيم ما اجترحا، والتغافل عن مؤلم ما تمنيا واقترحا، أن يُرسلا من عقال الاعتقال ويسرحا؛ واختير لهما سكنى فاس حرسها الله بجميع أهليهما وبنيهما ليتزلوا بقرارتها خير منزل، ويكونوا لتمييز أحوالهم هناك بمعزل؛ وأُمر لهم بما يقوم بهم من المؤاسات، والمحترث والجنات، والتفت فيهم جانب الرحمة والجنان كل الالتفات، ليبلغ الحجة عليهم منقطع الآماد وغاية الغايات. فكانوا هنالك تتجافى جنوبهم عن مضاجعها، وتترامى قلوبهم إلى مساقطها المردية ومواقعها، وتتراءى غيوبهم في محالها من الافتتان ومواضعها. وتسلل إليهم من أشقيائهم متكهنٌ جرى منهم مجرى الدم، ولاصقهم في عقر

ديارهم ملاصقة الألصق الألزم، وزادهم خبالًا إلى خبالهم في روم الهجوم والتقحم.

فلما سار الموحدون أعزهم الله إلى رباط الفتح عمَّره الله واتفق هنالك من عقد هذه البيعة السعيدة ما اتفق، وتم أمرها بحمد الله على ما أجمع عليها الملأُ وأصفق، طرق الأشقياء المذكورين من قاصمة ظهورهم ما طرق، واشتعلت لها نارُ الحسد بين ضلوعهم فالتهب شواظها واحترق؛ وأتاهم من حلولها في نصابها، وقطع آمالهم من اختلاسها واغتصابها، ما أراهم سقوط أرواحهم الخبيثة بمركز قيامها وانتصابها، وحلول القارعة بأفئدتهم الفانية بآلام الحسرة وأوصابها.

وكان لهم من أوليائهم في الغي من يريهم الفرصة في هذه الحضرة حرسها الله بمعرض الانتهار، ويمد إلى وعدهم المكذوب أكف الاقتضاء والاستخبار، ويروم الخروج بهم عن خموله وذلته إلى حين الظهور والاعتذار. وكانت المكاتبة بينهم وبين كثير من المنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر، ويستبطنون الغوائل والغوائر، بأن يكون ورودهم على هذه الحضرة حرسها الله بغتةً تفجأها، وعلى حين غفلة لا تمهلها بزعمهم ولا ترحبيها؛ ولم يعلموا وقمهم الله أن وقاية الله هي التي تعصم، وأن عروته الوثقى لا تفصل ولا تفصم.

فسار إليها الأشقياءُ المذكورون من فاس، والحينُ يريهم كل تخيل فاسد وقياس، ويوهمهم وقد طبع على حواسهم أن ليس في مغالبة الله من باس؛ ومروا بنظير وما يؤازيه على تلك السبيل من بلاد صنهاجة فوجدوا هنالك من أعداء الله من أضافهم وزودهم، وأجراهم من البر بهم على ما عوَّدهم.

فتمكَّن اغترارهم، وتوجه استعجالهم وابتداؤهم، ووصلوا خارج هذا القطر حرسه الله وقد تعلق بأهداب الليل نهارهم، وتأتي احتجابهم بظلامه واستتارهم؛

فدخلوا عندما مضى منه هدء، وغشيهم من زمانه بدء؛ فقصدوا الديار التي كانت لهم ولقرابتهم فاحتالوا أوساطها، واستغشوا أوباشها وأخلاطها، وتوخَّوا لمتوصل غدرهم مربطها بهذه الحضرة حرسها الله ومناطها؛ وباتوا ليلتهم تلك واثقين على ترتيب أمرهم المختل، متوكلين على أولئك المنافقين بذلك الربط المنحل، ورأوا بما اعتقدوه من تيسير الفتك وتأتيه، أن النهار أبسط لقصده وتوخيه.

وعلموا أن الشيخ الشهيد أبا حفص عمر بن تفراجين رحمه الله كان العامل على هذا القطر والناظر فيه؛ فقصدوه عند خروجه إلى الجامع وقد أعد لصلاة الصبح عدة المُخبت الخاشع، وأجاب التثويب إجابة السامع الطائع، وارتدى من الطمأنينة رداء الساكن بقرارها الراتع؛ فهجموا عليه فاغتالوه بأيديهم عند لقائه، وتركوه مقتولا في سبيل الله بحياته الدائمة وبقائه؛ وركبوا خيلهم التي تسابقت بهم إلى مصارعهم، وأوردتهم على قواصمهم وقوارعهم.

فجالوا بها خلال الديار، ونادوا أثناءها بالأعوان والأنصار، وألقوا إلى مواعديهم الأخسرين أبصار الارتقاب والانتظار؛ فعاجلتهم بواطش الاقتدار، وفضحهم بمرأى البوار والخسار ضياءُ النهار.

ورأى الناس أنهم الأشقياء الذين تبين اعتقادهم، وتراءى لهم قيامهم بالليل واستبدادهم، وتبرأ منهم الشيطان إذ تحصل لهم كفرهم وارتدادهم. فالتفت إلى قتالهم العامة، وجلَّت به الصاخة والصامة، وأسلمتهم لعواقب الحين الشيعة والحامة، وقتلهم من جنود الله من لا يُعرف وحاق بهم من بأسه سبحانه ما لا يرد عن القوم المسرفين ولا يُصرف، وأطفأ الله نارهم في مثل ارتداد الطرف، وصرف بأسهم عن الذين آمنوا بألطف وجوه الصرف؛ ولم يكن بين رويتهم على متون السوابح، ووقوع نحورهم وحلوقهم على غروب النواحر والذبائح، إلا مقدار نظرة

الناظر ولمحة اللامح.

وأُبرزوا هنالك خارج المدينة بقاع قرقر، تلفح وجوههم من عذاب الله كل ريحٍ صرصر، مرتهنين بآثامهم، مسلمين بإسلامهم لإسلامهم، منكوسةٌ ذوائبُ هامهم بين أقدامهم، تخطب العِبَرُ بأفنية إفنائهم وإعدامهم؛ ويفصح الحق أنهم المفردون يومَ يدعى كل أُناس بإمامهم؛ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، وآيةٌ تجردت في محو آثارهم عن ظواهر الأسباب، وفاتحةٌ طرحَتْ أشعة نورها وأبقت آثار تطهيرها على أخريات الأحقاب والأعقاب.

ولما اجتمعنا وفقكم الله بهذا القطر الذي نفى الله خبثه، وخلصه مما ألقاه الشيطان ونفثه، نُظر بعون الله في موجب البحث والتنقيب، ونيطت بأنقاب الأمر طلائع الأرصاد والترقيب؛ فأعثر الله على غواة الأشقياء ودُعاتهم، وأطلع على غيوب المنافقين وطوياتهم، وانبعثت إليهم طوائف الانتقام من خواصهم وذواتهم؛ وتُقُبّض على من عُرف بآذاهم قواعد الفتنة وأصولها، ورءوسها التي تمكن بها وجود الغرة وحصولها. وكان حكم الله فيهم حز رءوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها؛ والغزو فيهم متصلٌ مع الأيام، والبحث قائمٌ على جانب الظن والاتهام.

والحمد لله الذي جعل لأوليائه عقبى الزمان، وظلل عليهم غمام الإنعام والإحسان، وحمى بحمايتهم قبة الإسلام والإيمان، وأوقع مُخالفيهم ومُخاذليهم في حبائل الخلاف والخذلان، وأولى من هذه النعم الممدودة، والحظوظ المجدودة، ما شكرُه فرضٌ على الأعيان. فسارعوا إلى شكرها رحمكم الله مسارعة الأصفياء الخلصان، واستبشروا فقد مُدَّتْ عليكم أجنحة الدعة والأمان، وإياكم من عباده العارفين بمواقع النِّعَم، العاكفين على انتهاز فضله المغتنم، الواقفين بطاعته مواقف أمره الملتزم؛ إنه وليُّ الطول والكرم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة الثانية عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بتلمسان أدام الله كرامتهم بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه؛ ونصلي على محمد نبيه ورسوله.

والحمد لله الذي أحل هذا الأمر العزيز من عنايته بالمحل الأعلى، وخصه بدعاءُ الخلقِ إلى ركوب السبيل الواضحة والطريقة المثلى، وأقام كفَلَته وحَمَلته لإذكار القلوب الساهية، وتنبيه النفوس اللاهية، بسور من آياته تُتلى، وعِبَر من مجتلياته تُعرض في أوقات الغفلة وتُجلى؛ وخطم بخزائم حدوده، وضم إلى حصر قيوده، من تبسط على الاسترسال وتدلى، واستفاء بحكمته وبيانه، وحالىْ شده وليانه، من أعرض وقاءً بجانبه وتولى، وأصحابه من تمشية المقاصد، وتصفية المصادر والموارد، بما يكون له عند كل معتمد، وفي كل مقتصد، ردءًا مكينًا وكفلا، وأودعه من عطفات الرضوان، ونفحات الرحمة والغفران، ما يضع عن القلوب من متوقع مؤبقات الذنوب آصرًا شديدًا وثقلا.

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله الذي وسم الله برسالته زمانًا غفلا، وشرع به من الدين ما نهج لمن جار أو حار مسالك وسبلا، وجعله صلى الله عليه وسلم بين الحق والباطل حجزًا مضروبًا وفصلا، وأتم به النعمة، وأعم به الرحمة،

إحسانًا غمرًا وعطاءً جزلا، وتعريفًا أنه الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمةً وعلمًا وفضلا، وعلى آله وصحبه الذين تبوءوا بالهجرة والنصرة محلًا عاليًا ونزلا، وكانوا لما تُحف لهم من الرضا، والثواب المقتضى، مستحقًا وأهلا.

والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مطلع أنواره، ومتبع آثاره، يقروها فرعًا فرعًا وأصلًا أصلا، ويقرُّها على مثل مثلا، وعلى شكل شكلا، القائم بأمر الله وقد تغشت البسيطة ضلالًا منطبقًا وجهلا، وأشربت النفوس من خبط العشواء، وغلبة الأهواء، إمراجًا وخبلا، واعتاضت برفع العلم وطموس الحق من رقي هويًّا ومن علو سفلا؛ فانتحته البشرى التي لا تتوقف، ووعد الوحي الذي لا يخلَّف، أنه يملؤها قسطًا وعدلا، ويجزي في أمره إلى غاية هي ختم الوجود، وانقراض أمد الدنيا المحدود، مخصوصًا من التأييد، وسنيات التمكين والتمهيد، بالأخلق منها فالأخلق والأولى فالأولى.

فإنا كتبناه إليكم -كتبكم الله ممن أحسن لقبول ما يعتمده، وتلقي ما يرده، استعداده، وأجاد لأعز المطالب، وأفضل المكاسب، انتجاعه وارتياده، وتدرب على عمل البرّ فألفه واعتاده، وارتاح لوارد التذكير، ووافد التبصير، فقوّم به معوجه وثقِف منآده- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نحمد الله على دينه الذي رفع علمه، وجمع معاقده وعصمه، وأمد له ببركة هذا الأمر العزيز من متين العقود، ومكين العهود، مما سراه وألحمه، فلا خلال والحمدُ لله يعرو مبرمه، ولا نقض يعتوره محكمه، ولا مائل عن مدرجه، عائجٌ عن منهجه، إلا صادَرَه التعديل وصدمه؛ فمدعوٌّ أقلع وأقصر، وعمٍ كشف له الغطاءُ فأبصر وتبصر، ومريحٌ شمَّر عن ساعد الجد وحسر؛ وراكبٌ رُدع لحاجِه، وممتدٌ في غلواء تنكبه عن السبيل وعياجه، ومُنطوٍ على دخيل داء قد نقل بعلاجه؛ كلٌّ يوفي قسطه، ويمضي عليه من

ثواب أو عقاب ما أثبته الكتاب وخطه، وحدودٌ له تتعدى، وحقوق لا يتجاوز بها الأمد المشروح والمدى.

وكلٌّ بما أسرَّ من سريرة، أو أحتقب من صغيرة وكبيرة، ملبس ومردى؛ لا هوادة يحتمل، ولا وسيلة سوى التقوي يُدلي بها ويُدل، ولا قربى بغير العمل الصالح توصل، وتبلُّ ميزان القسط عدل وأمال، ورجح وأشال، وكال لكل ما اكتال.

والله بعد نفحات من رحمته يصيب بها من عباده من استنفحها، ويصل أبواب التوصل إليها من قرعها بالمتاب واستفتحها، ويستقيل بها عثرات الزلة، وفترات الغفلة؛ ومن أعتق نفسه من ملكة الهوى وسرحها؛ أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى، وانقادوا بزمام العقل فما استمالت لهم دواعي النفس طرفًا ولا استهوت منهم أُذنا، وكلما ذهبت سِنَةٌ بأجفانهم، أو عرض عارضٌ في ميدانهم، قرعوا عليه من ندم سنًّا، واستشعروا لما أصابهم أسفًا وحزنا، ثم تابوا إلى الفيئة، وتعلقوا بأهداب تلك الحالة الأولى وتلك الهيئة، وكانوا من التطلب لتلك الأذواق المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، بين ذهاب وجيئة. والله يلهم كلًّا إلى ما قصد به مما هو حظه الأجمع، وركنه الأشد الأمنع، وعلق قضيته التي تُهمل ولا تضيع.

وقد كنا -أعزكم الله بتقواه- عند ما أنسنا من فترات الأعمال، وحئول الأحوال، والاستئناس في أمر الله بالإنهاك والانهمال، والتدرج في مناقل التغيير بما لان له مركب الاستهانة والاستسهال، رأينا ما لا يسع الاحتمال فيه، ولا يبرأ من درك التحرج في أرجاء تداركه وتلافيه، ولا يؤدي حق الاستحفاظ والاسترعاء بإقرار ما يبطله الحق وينفيه، وإن المماشاة في ذلك وهنٌ لا يقبله الله في دينه ولا يرتضيه؛ وإذا نصب الله معالم الهدى، ولم يخلق الأمة عبثًا ولا تركهم سُدى، بل جعل كلًّا بما وجه إليه من أمر ونهي مكلفًا متعبدا، وأقام لهم فيما يأتونه ويذرونه رسمًا لا

يجيل ولا يستحيل مذللًا بسلوكه معبدا، فما هم والتخلي مع الأهواء ومخالفة الأفئدة الهوى والرضا لهم بما رضوا من الإقامة بدار المضيعة والندا.

وأمرُ الله لا يدع، وحكمه يكفّ ويفرع، وله جل جلاله قَوَمةٌ بدينه يزع بهم ما يزع، يسوون ويُعدلون، ويقضون بالحق وبه يعدلون، وما زلنا نعرض الذكرى بينة، ونهدي الكلمة لينة، وندعو إلى سبيل الله بمقتضى المدعاة الواجبة المتعينة، وننتظر بالمسوف ارعواءً عن الغي، وانثناءً عن مدارج الملل واللي، وتحولا من القلب الميت إلى القلب الحي، النفوس بزمام هواها منقادة، وعلى ما ألفته قدمًا من أسوء عادة، تنحط في شعب حياحها، وتطغى وقد أرخى لها الاغترار من شكيم مراحها، وتترك لإيثار الفساد جانب صلاحها، وتصمُّ أسماعها وقد قرعتها بما شاء التذكير أقوال إنصاحها؛ فتقضى أمر الله أن تقوم بحقه، واستدعى عهده الوفاء به في خلقه، وجعل هذه السائمة الهائمة على سبل الاعتدال وطرقه، وأبطأها مركب الطاعة على ما لا بد فيه من عنف الأخذ أو رفقه، فتحركت بواعث الاعتزام، واستقلّت باستعانة الله دواعي الاستغرام، وأخلص له جل جلاله مجرد القصد والإلمام، واستوبق بما استقبل وتوجيه ما أمل تجديد مراسم الإيمان ومعالم الإسلام، وأن تورد موارد الشرع صافية النطاق رزق الجمام.

ولما انقسم الناس في المراد من إصلاح فسادهم وتقويم منآدهم إلى من استأثر بالمشاهدة عيانه، وإلى من بعد من المباشرة مكانه، وكان لكلٍّ من مساواة الحظ، وتقسم التفات اللحظ، ما يتوجه إليه بيانه، ويثنيه إلى ما يقصده من هذا الغرض وينتحيه زمام التناول وعنانه، أودعت أغراض هذا المقصد الكريم، ومناجي الدعاء إلى الصراط المستقيم، الكتبُ الواصلة إليكم وإلى سواهم من أهل الأقطار بما تضمنته من الأحوال، وضرب الأشكال والأمثال، وتبين متروك الحرام ومأتى

الحلال، وتنزيل القضايا الشرعية منازلهم من الأحكام والأعمال، وتعريف مواقع الثواب لأهل الثواب، ومواقع النكال لأهل النكال، بما استوفى فيه الأداء، وتقصى الإبلاغ والإنهاء، ووقف عند غايته الركض والإجراء، وخفت بذلك عن كاهل الأمانة وتقلد أمر الديانة والاثقال والاعياء، وأُقيمت الحجة، وأوضحت المحجة، فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء، أو يحاول فيه التعقب الاستفحاص والاستقصاء.

ولما قضيت تلك الوضيفة بحالها، وسقطت عهدة احتمالها، أقبلنا الاشتغال على من إلينا وحوالينا من الموحدين وجميع القبائل لنأخذهم بمآخذ ذلكم التعديل، ونحملهم على نهج تلكم السبيل، ونساوي بين من بعد ودنا في الفعل والقيل، ونمضي مسطور تلكم الأحكام على مساوقة الفرض لها والتنزيل، ونعدم بسيف الحق آثار أهل التغيير والتبديل.

ولما حللنا هذه الحضرة حرسها الله وهذا الغرض المبارك يتمكن مع مطالعة الأحوال سببه، ويتقعد مذهبه، ويتطور في كيفية مآله، وموقف مجاله، نسبُه ونصبُه، ابتدأنا بالنظر في أحوال الموحدين وإحضار الجميع منهم بهذه الحضرة عمَّرها الله واستوفدناهم قبيلًا قبيلًا وشعبًا شعبًا وقد تأكد العزم على القيام بأمر الله وإعادته على إدلاله وإحياء دراسه وإقامة عموده ونفي الخبث عن أرجائه وتصفيته من الشرب وإنشائه خلقًا جديدًا ولا يكون ذلك إلا بإخلاص المقصد وإظهار الفعل وإمضاء الحكم وترك التلفت إلى الأقوال ووسائل الألسنة فشد ما ارتهنت بما لا وفاء عنده ولا ثمرة له.

والتحق بهذا الأصل استدعاءُ جمل من كل قبيل من المصامدة وغيرهم ليقع العمل في الجميع وتصفى الموارد وترحض الأدناس، إذ كان الفساد قد خالط

النفوس ومازج القلوب ووقع به الاستئناس، وألفته الأهواءُ وحجّت المناصحة فيه الأسماع ونسى كلٌّ ربه فأنساه نفسه وسقط رعي الحرمات وتنوسيت الذمم لأهلها والسوابق لأربابها. وفي أثناء هذا الاستدعاء أقبل أهل التوحيد على الاشتغال بنفوسهم والعكوف على قراءة توحيدهم وملازمة وظائفهم وأفصحت لهم نصب الحال عن أمور من مثلها يأخذ الفطن حرزه ويستحضر إشفاقه ويتوقع يومه وعندها ويتراءى الناظر مكان سقطاته، وموضع فرطاته، وتتخشى له منسيات ذكراته.

ولم تزل القبائل ترد أفواجًا وتفد أقوامًا؛ وخلال التلوم باكتمالهم أخذوا بالقراءة والتعلم ومدارسة التوحيد وتحفظ ما تقام الصلاة به من القرآن، وكان لهذا الأخذ من كل طبقة وصنف عملٌ علتْ به الأصوات، وعظم الأثر وقد ظهر من مبادئ هذه المنازع وانفراض هذه المقدمات، ما شخصت له الأبصار، وجدَّ فيه الاعتبار، وخامر منه النفوس الخوف المقلق والحذار، وسرى في قلوب الخاصة والعامة الايحاس لأمر من أمور الله والاستشعار؛ وتوقع ظهور آية تفرق بين المحقق والمبطل، وتميز الخبيث من الطيب، وتلبس كلًّا رداء سريرته، وجلباب طويته، وما ذاك ببعيد عمن أعرض عن الحق واتبع هواه، وأحل بعهده الذي عاهد عليه، واستبطن غير ما أظهر. ولله في هذا الأمر العزيز أسرارٌ مخبوءة، وودائع مكتومة، يمحض الله بها المؤمن ويمحق الكافر.

ولما تكاملت أعداد الواصلين، وقد غصت بهم السبل، وعضل بهم الفضاء، افتتح باب العمل، واستُعين الله تعالى، وابْتدئ بتطوير الناس على طبقات الثلاث يعرف بها كل واحد قدره، ويقف بها عند حده، ويعلم أين هو من مضماره، وتأخره أو بداره.

فالطبقة الأولى هم السابقون الأولون الذين بايعوا الإمام المهدي رضي الله عنه

وصحبوه، وغزوا معه، وصلّوا خلفه، والذين شاهدوا البُحيرة وباءوا بفضلها، واشتملوا بُبردة شرفها، وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشُهد لهم بالفضل الذي لا يؤازى والرتبة التي لا تعادل.

ويتلو هذه الطبقة من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب، وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البُحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هلم جرا.

وجرى وفقكم الله هذا التطوير على نظام أُحكم فيه الوصف، ورُتب فيه الوضع، وروعيت فيه الزلف والقرب، والمنازل المعلومة والرتب؛ والتفت إلى أحوال أهل الثبوت والنكوص، ومن تقاصر عن الكمال بالحظ المنقوص، على تحرير من النظر ووزن من العدل، عرَّف الناس بسيماهم، ووقف بهم عند غاياتهم، وعلم كلٌّ مركزه، واحتل بمحطه، ووجد نفسه حيث وضعها العمل وأهلها السعي.

(هنا انتهى أحسن فصل في هذه الرسالة).

obeikandl.com

الرسالة الثالثة عشرة

في ولاية الأمي أبي عبد الله بن الخليفة، وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بسبتة وطنجة حرسهما الله وجميع من بهما من الموحدين والأشياخ والأعيان والخاصة والعامة وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على إعلاء دينه وتمكينه، وإجراء هذا الأمر العزيز على أفضل أساليبه وقرائنه، وإمضاء آراء أهل الحق في صوب إسعاده وتميينه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى وأمينه، ومبلّغ رسالته على أكمل حالاته من بيانه الباهر وتبيينه، وعلى آله وصحبه الذين ألقوا صفقة أيمانهم بيمينه، وولوا عهد إيمانه من ارتضوه لإمامة مفروضه ومسنونه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى في كافة أحواله وشئونه، العامل بإظهاره، وبث أنواره، على معارج آياته وبراهينه، المؤيد بأخذ الغاية، وحوز النهاية، بصفات تخصيصه وعلامات تعيينه.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله ممن اتخذ عند الرحمن عهدا، واستمد في صلة أمره واستدامة خيره عزمًا صادقًا وجدًا، واستعد من الباقيات الصالحات بما هو خير ثوابًا وخير مردًّا، واستنجد للوفاء بأمانته، والصفاء في حفظ العهد وصيانته، حبًّا خالصًا وودا- من رباط الفتح عمره الله، وفي كنف الله ورعايته من يصيخ لنبأة الخير أسماعه، ويربط بمقاعد الصلاح إصفاقه وإجماعه، ويمضي على مناهج الفوز والفلاح عزمه وإزماعه.

ولله بكم، معشر المخاطبين أكرمكم الله عنايةٌ وصلَتْ بحبله المتين، حبالكم، ومكَّنَتْ في أمره المكين، آمالكم، وأكرمت بألطاف الرحمة، في أكناف النعمة، إقراركم وإحلالكم، وأرتكم أن العاقبة الحسنة باتباع هذه الواضحة البينة حالكم ومنالكم.

فأنتم برعاية الله وكلاءته في جوانب الأمنة راتعون، وإلى عواقب الخير راجعون، تستدرون أخلاف النعم استدرارا، وتستمطرون من بركات هذا الأمر المبارك سماءً مدرارا، وتجتلون من مشارق آياته وطوالع بيناته أضواءً باهرة وأنوارا، وحق من منح من حظوظ النعم ما منحتُم، وأمسى وأصبح فيما أمسيتم فيه من الخيرات وأصبحتم، أن يسعى بمبلغ جهده في تقييدها، ويحرص بالتزام الشكر على مزيدها، ويستنفذ الوسع في طلب أسباب تقريرها وتأكيدها، وينظر في استدامة نعيمها، والاستقامة على مقيمها، لقريب أوقاتها وبعيدها.

ولما كنتم أكرمكم الله ممن اعتصم في هذا الأمر العظيم بحبله وعروته، واقتدى بوجوب الاتباع بأُسرته الهادية وقدوته، رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان، والتزموه بأتم ارتضاء واستحسان، وابتدروه ولهم التوفيق والإصابة على يسر وإمكان؛ وذلكم أن كثيرًا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها، من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها، وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها منْ حاضرة وبادية من أهل إقليمها، وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم ويُعلمون بأنه غاية اقتراحهم، ومادة نفوسهم وأرواحهم؛ ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حينًا بعد حين، ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين.

فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم

على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه، وأعلموا أن محمدًا وفقه الله هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم، وإنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم.

وكان استدعاؤنا لهم في هذه الوجهة المذكورة، والحركة المبرورة، لأمور قُصدت فيها مذاكرتهم، ونويت بها مباشرتهم، لم تكن مما ذكروه في ورد ولا صدر، ولا كان ما سايره القدر جاريًا معها في نظر.

وكان التماسهم للجواب على سؤالهم، وبغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم، يتردد ذكره في صدور أقوالهم، ويتأزر أمره بشواهد عباراتهم وأحوالهم، ونحن بين ذلك كله على غير قصد ننويه، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه.

ولما احتللنا جميعا هذا الرابط الميمون، واستنلنا بفضل الله خيره المعهود ونصره المضمون، وكان الوفد المذكور بمدرجة الأياب، ومرقب الالتفات والارتقاب، تأكد اقتضاؤهم للجواب، وتمكّن حديثهم في معنى التقدم المذكور والاستصحاب، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك الأمر المسئول، وعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما قُصد، وذوكروا في الأمر على ما توخّي فيه واعتُمد، وعُرّفوا بأن ذلك ليس مما بُني عليه ولا مما اعتُقِد، فثارت منهم السواكن، وغلبت على الظواهر والبواطن، وعُوينَ من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يُعاين.

وتقدمهم الشيخ الأجلُّ أخونا أبو حفص عمر بن يحيى أعزه الله بتقواه فقال:

هذا أمرٌ نحن بتقديمه، وأعلمُ بوجوبه ولزومه، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه؛ فهو مختارنا للدين والدنيا، ومسئولنا المأمول للحياطة والرعيا. وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه، وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبينه.

وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أُعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمرٌ في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد! واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك من تجديد أمر الإمام المهدي رضي الله عنه وتقويته، وبسط شأنه المعظم وتسويته، ما لا يجوز تأخيره عن ذلك المقام، ولا يحلُّ الخلو عن التقليد له والالتزام، وأن فيه من إبقاء الأمر في نصابه، وإتيان الحق من أبوابه، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ويضمُّ شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم.

فاعلموا وفقكم الله بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقدٌ سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق. وإنما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدم الذكر، والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر. وانقضى مجلس اليوم، ومجالس بعده في ذلك الروم، لا عن إجابة في ذلك المطلوب، ولا عزم على وجه من وجوه التأتي والتسبيب.

واجتمع الشيخ الأجل أبو حفص المذكور ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من أشياخ الموحدين وأعيانهم، وقدموا أهل النظر في أمرهم ذلك وشأنهم، وعرَّفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم.

فاجتمع الملأُ من آخره، وظهر الأمر العجب لشاهده وحاضره، وانتشر القول في ماكن الوجوب وتظاهره. وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تجمل العهد فيه وتقلدوه، وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوى الأمر وتأييده، ورد إلى أصله ومستنده، وصار الجميع منهم في حد من موالاة الاقتضاء، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء، لم يتقدم فيه عهد، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد.

ولما رأينا اتفاق كلمتهم على ربط هذا الأمر وعقده، وإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده، استخرنا الله تعالى في الاتفاق معهم على إنفاذه، وسألنا لهم السعادة الدائمة في بيعتهم هذه، ورُجي لهم من الله تعالى إجراءُ ذلك على ما عوَّدهم من الإصابة في المقاصد، والنجح في طلب المصالح والمراشد.

وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم، وقامت بأمز الله ورسوله في التفويض والتسليم، وأتى الأمر فيها على أوفى شروط التكميل والتتميم؛ وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصدا إلى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه؛ وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومنحاتهم وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلًا بعد قبيل، على أتم وجه وأنهج سبيل؛ وظهر من تألُّف القلوب على ذلك وتعاضدها، واجتماع النفوس ونواردها وترابط الأفئدة وتعاقدها، ما ملك جوانح الكافة غبطة وأوسع أمر الموحدين بفضل الله عليهم مدًّا وبسطة، وتم ذلك بعون الله على أوثق مبانيه، وأطلق معانيه.

والله يعرفكم أجمعين، وسائر إخوانكم من المؤمنين، بركة هذا الاجتماع والإجماع، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والإمتاع، وينهضكم في فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع بمنه. والسلام.

الرسالة الرابعة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر عطية المذكور:

من أمير المؤمنين، أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبتة وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام، وتقريب مدارك الانتفاع بأعطياته؛ والصلاة على محمد نبيه المبتعث رحمةً للأنام، وعصمةً لأولي التمسك والاعتصام، وعلى آله وصحبه الكرام، الجارين في انتهار خيراته وإحراز بركاته إلى أبعد غايات الاغتنام، وأقصى نهايات الالتزام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، قبلة الاهتداء والائتمام، وخاتمة الختم النبوي في الكمال والتمام، وموضع البشرى على آخر الزمان وعقبى الأيام.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم من تجدد الأنعام، وتوفر الحظوظ المسعدة والاقسام، ما ينور بصائركم في الاعتناء والاهتمام، ويصحب أوائلكم وأواخركم من الافتتاح وسعادة الاختتام- من رباط الفتح عمره الله، وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الأمر العزيز ويعقد، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد، ولا مستعان سواه فهو الذي يعين بفضله ويؤيد.

وقد تقدم إليكم وصل الله إكرامكم، ووالى تعريفكم بالمسار وإعلامكم ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة وأن ذلك لم يكن له عندنا قصدٌ متقدم، ولا عهدٌ متوهم، لكنه أمرٌ أراده الله

فأتمه، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه؛ ونرجو أن الخيرة التامة في انعقاده، والسعادة العامة في التزامه واعتقاده.

ولما استوى بفضل الله بنيانه المرصوص، وثبت على الصدق والثلج حديثها المنصوص، وتعين في سوابقه ولواحقه الصفاءُ والخلوص، وكان من هذه العشائر الهلالية والوفود المشرقية إيابها الميمون، وتأهل لها بتوفيق الله وتسديده خيره الموعود ونصره المضمون، ورأت أن الذي أملته في معنى الاختصاص بمحمد وفقه الله قد تأتى في درج العموم، وصار بمجمع الآمال في قرارة البيوت واللزوم، رغبت رغبة مستأنفة في استصحاب أحد إخوته وفقهم الله على التعيين، وبينت ما في ذلك من جمع الكلمة وضم أشتات المصالح المقدمة بأتم وجوه التبيين، وأصفقت على أن ذلك يقطع أسباب الاختلاف، ويفتح أبواب الائتلاف، ويعمر جوانب تلك الأرجاء والأكناف، بأحوال الدعة والسكون.

واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم وفق الله جميعهم فتبينوا فيه من وجوه المنافع، ومقاصد المصالح والجوامع، ما اعتقدوا وجوب سؤاله، ورأوا قبل الخير في مبادي استقباله؛ واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب، في استصحابه لدفع دواعي الشغوب، وإجراء الأمر في تفاصيله وحمله هناك على هذا القانون المبارك والأسلوب، وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المسئول المرغوب، وأملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب.

فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرد، والشأن المسعد، حظٌّ يفوزون بنعماه، ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه، بأن يستصحبوا من الإخوة المذكورين من يكون إليه استنادهم، ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم، ويتمكن به استعانتهم واعتضادهم، ويتم بالاتفاق معه

أملهم من رفع الخلاف ومرادهم، فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبينه، وتقرره في نفوس جميعهم وتمكنه، ما أراهم طلبه فرضا، وكونه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وكانت المذاكرة فيه فتبين وجه المصلحة في تلقيه، وسبيل السداد في تيسره وتأتيه.

واشتُغل بالنظر فيما يصلح بذلك، والاستعداد بما هنا وهنالك؛ وكانت بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك الغرب الوسط في ترتيبه وتهذيبه. وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه، فرأوا أن الذي يُعقد أمره بمعاقد السداد، ويُبني بنيانه على قواعد الاتصال والاطراد، ويُقضى له من الاغتباط ما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والإسعاد، أن يكون في وسطه من الإخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم، ويتأتى به منسؤلهم من الاتفاق ومطلوبهم، ويستريغون بالاجتماع عليه ما كان يغريهم من التنازع والتهالك ويغويهم؛ وأن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبتة وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور، مرتبطًا به في سائر الشئون والأمور. وكان في ذلك من إعادة القول وتكريره، وتفصيل الذكر وتفسيره، ما أظهر سبيله على مظاهر البيان، وأبرز مكنون الاستقامة به العيان.

ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبتة وأعمالها وفقهم الله مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه، واتساع النظر في مراسيه وأحوازه، وكونه رابطًا بين العدوتين، جامعًا إلى إصلاح الجهتين، عائدًا راجعا. وأنه إذا أبقى معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل التي إلى سبتة وطنجة والجزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط، وتجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط، وينزاح به عن أشغاله المهمة التقصير والتفريط؛ وأنه الآن فيما يُرام لهذه الغزوة الكبرى، من إنشاء الأسطول عمَّره الله في جميع البلاد الصالحة للإنشاء، وغزو أعداء الله برًّا وبحرًا، في كافة

الأنحاء والأرجاء، أحق بالعناية والاهتبال، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال.

وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يُساعد ويُساعد، ويُعاضد في ذات الله ويُعاضد، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابر في ذلك ولا يُجاحد، اتصلت المواد، وانفصلت القواطع الحواد، وتمكن التصافي من خدمته والتواد، وارتبط البحر بالبر، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبِرّ.

وأتت هذه الأمور وفقكم الله أمرًا بعد أمر، على غير قصد منا ولا ذكر، بل على وجوه يُعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيانها، وظهرت دون مقدمة لأعيانها. ولما رأينا اتفاق الشيوخ والطلبة والعمال وفق الله جميعهم على ترتيب هذه الأمور، وإصفاقهم على ما فيه من صلاح الجمهور، وظهور أنوار المهدي رضي الله عنه في مشارق الوضوح والظهور، استخرنا الله تعالى في إنفاذ ما رأوه، ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تيسير ما أملوه ونووه، وتذاكرنا معهم في أن الذي تُكمل به هذه الإرادة، وتُرجى بالتعاون عليه البركة والسعادة، أن يكون مع كل واحد من المذكورين من ينتهي إليه الاستحسان، ويقوم على خيره وفضله الجلاءُ والبيان.

فعُين لهم من كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ونخبة الأمناء والثقاة، وخيار الأنجاد من الغزاة، من يُعينهم في جمع العساكر وتمييز القبائل وتأليف الكتائب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كافة المقاصد والمذاهب، وأخذ الناس بالتفقه في دينهم وتعلم ما يتعين تعلمه باللازم الواجب، والعدل بين الأحكام، والقضاء بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على الحاضر والعام؛ واستخراج ما لله من وجوهه السائغة الطيبة على غاية مستطاعهم من الترتيب والأحكام، ومياسرة الجمهور، في سائر الأمور، بما يجري على مقتضيات الإيمان والإسلام، وانتُخبت لكل جهة من الجهات المذكورة من دقماء الموحدين وأوليائهم

بقدر ما احتيج إليه؛ فاشتركت في هذا الخير قبائلهم، وتقدمت إلى أوائله أوائلهم، واستقبل منه الموحدون كافة ما يواليهم بفضل الله ويواصلهم؛ واستقامت هذه الأحوال بحمد الله على ما أُمل من استقامتها، واعتُمد من إظهارها على قواعد الحق وإقامتها.

وأعلمناكم وفقكم الله بها على الإجمال لتكونوا بسماع أنبائها، والوقوف على جلائها، كالمشاهدين لإيعازها وإمضائها. والمشاركين في استحسانها وارتضائها. وليس لنا في ذلك كله إلا بما يجري بطاعة الله ورسوله في تيسير آمال الموحدين وموافقتهم، ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم. والله يجعلنا وإياكم من شكر الاه إسرارًا وإعلانًا، واستدام بفضله ورعايته يمنًا وأمانا، واستصحب في التزام طاعته واغتنام مرضاته أعوانًا وإخوانا، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكُتب في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الخامسة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بسبتة والأشياخ والأعيان والكافة بها، وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، وولي الرحمة الشاملة والرأفة الواصلة والميسرة، الذي نور أفئدة المهتدين بأنوار التبصرة، وأقبل بقلوب الراشدين قبل التنبيه والتذكرة، وأعلن بعصم محبته علق النفوس التوابة المتطهرة؛ والصلاة على محمد نبيه المبتعث بالحجة الغراء المبصرة، والدعوة الظاهرة المظهرة، والسنة الواضحة النيرة، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المختصة المؤثرة؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى على رغم الفِرق الجاحدة المنكرة، المؤيد في رفع أسباب الشنآن، والحماية عن ترعات الشيطان، بمواد المعونة المنهضة المقدرة.

وهذا كتابنا إليكم -عرَّفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون، وسقاكم من معين حكمته ما لا تصدعون عنه ولا تنزفون، وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون، وجعل لكم بالإيمان والعمل الصالح ودًّا لا تصدفون عن رعايته، وحفظ غايته، ولا تصرفون- من حضرة مراكش حرسها الله، ونحن نشكره سبحانه أن جعل هذا الأمر المبارك قطب المصالح، وملتقى الفواتح، ومرتقى المطامح؛ فالخيرات بمحيطه، محصورة، والمسرات على عمدة بسيطه مقصورة،

والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصورة؛ وما تجريه الأقدار، ويأتي به الليل والنهار، فإلى تمكينه يستبق، ومن عجائب مكنونه ينطق.

وقد كان في الأمر الذي عرَّفناكم بثلجه، وأطلعناكم على ساره ومبهجه، ما اجتليتموه من مستوضح الفتح ومجتلاه، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه، ورأى به الكافة أن عدوَّ هذا الأمر السعيد تولى ما تولاه، وتلقى سعير شره وتصلاه؛ واستمر البحث بعد ذلك على أوليته، وأشرف الفحص على يقين المطلب وجليته؛ ويكون ذلك المستطير من مخباه، المستدير على مسقطه ومكباه، إلى جانب الموحدين انتسابه، وعليه لا عليهم سعيه واكتسابه، نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاتب، ووحشة التباحث والتطالب.

وإن كانت مودّاتهم الوثيقة موصولة الحبال، مبتولة الفلال، مجبولة على الالتحام والاتصال، لها الوفاء والصفاء، والقديم الذي لا يلمُّ به الدروس والعفاء؛ فُدِعت هواديم فما تطاول، ومضت سوابقهم فما يُرام إدراكها ولا يُحاول، وملأ الزمن حديث فخرهم فهو المردد المتداول؛ فحبهم لهذا الأمر وأهله مكينُ الاستحكام، ثابت القضايا والأحكام، منشورٌ على صدور الليالي ووجوه الأيام، وإن عاج عن سنَّة إخلاصهم عائج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج، ولو الحائن من وجهته لفوره، وأسلموا الحائر بمرديات جوره، وتميز كلٌّ بمقامه وطوره؛ ذلك مما يسرون له من طهارة التمحيص والتخليص، وخصُّوا به من أثر الإيثار والتخصيص.

ولما عمَرتْ بادكار الموعظة محاضرهم، وأخطرت على مجاري التنبيه خواطرهم، ونورت بأبصارْ التذكير بصائرهم، وأُجري النعت فيمن درج عليه دارجهم وصار إليه صائرهم، وأتى البيان على ذكر هذا الأمر العظيم شرحًا وتفصيلا، وجمعت سوابقه ولواحقه في معرض التعوين جمعًا وتحصيلا، ووصل القول في تنزل الأشياء

منازلها توصيلا، وبديت مقامات الإمام المهدي رضي الله عنه في استصحاب طائفته تقعيدًا بها وتأصليًا، حصحص الحق الذي لا يُدفع، وظهرت الأصول التي يُبنى عليها ويُرفع، وترددت المخاطبات والعبارات فيما يفيد من ذلك وينفع.

والموحدون أكرمهم الله خلال ذلك في اعتراف دائم، وإنصاف لازم واستعطاف ماثل بمثابة الخضوع قائم، والأيام تمر يوم بعد يوم، والأقوال تتوجه في عتب ولوم، والكل يعرض في مواقف التوبة ناس بعد ناس وقوم بعد قوم.

وبعد أزمنة متطاولة، واجتماعات متواصلة، أردنا مباشرة أحوالهم، وسماع أقوالهم؛ فاستُحضر شيوخهم وأعيانهم وطلبتهم وعمالهم في محفل التقت على الصدق أطرافه، واحتوى على مقاصد الحق اشتماله والتفافه، وجرت على أهل التقدم والسبق نعوته وأوصافه.

فعند انبعاث الموعظة إلى الجمع وعرض أحوالهم وأقوالهم بين البصر والسمع، تصعدت زفرتهم من الذكرى وفاضت أعينهم من الدمع؛ وكلما أُعيد عليهم خطاب، أو تُوجه إليهم عتاب، أو التُمس منهم على فصل من الفصول المقررة جواب، تضالت أشخاصهم خجلا، وابتغوا إلى جانب المغفرة حولا؛ فمن أصوات مرفوعة بالمتاب، ومن عبرات دائمة الانهمال والانسكاب، ومن تطارح على جهة الصفح والإعتاب، واستعاذة من أسباب الشك.والارتياب، حتى تمثلت صور الإخلاص في الإبشار، وتجلى صفاءُ الضمائر في قرائن الأحوال والآثار.

وأوقع الله عند ذلك في النفوس أن الذي يتطرق به القول إلى بعض، ويفضي بقوم في قوم إلى الكراهية والبغض، من يتخلل قبائلهم من مشى بنميمة، وساع في ذميمة، ومتقلّب من صور الاعتياب في كل معقوقة منقومة. ولما بُيّن لهم ذلك من

وجوه تحققه، وأُطلعوا على موجبات تسببه وتطرقه، وعرفوا بها في الأذهان فيه من اتصالهم به وتعلقه، أقروا بالصدق فيه أتم إقرار، واستعادوا له ولما تقدمه كل استقالة واستغفار.

فأُمروا بتجديد المتاب وتحقيقه، وحُضُّوا على توكيد الخلوص وتوثيقه، وحُذِّروا من ملابسة من يسعى على اتصالهم واجتماعهم بقطعه وتفريقه؛ فعاهدوا الله تعالى على ذلك أوثق معاهدة، وشوهدت دلائل اليقين وأمارة الصدق منهم أوضح مشاهدة، فتنزلت ملائكة الرحمة من آفاقها، وفاض على القلوب فيض جنانها وإشفاقها، وعممت المغفرة بفضل الله على أتم وجوه تعميمها وإطلاقها، وملئت الجوانح تفريحا وتبشيرا، ووطئت الأحوال تسهيلا وتيسيرا؛ وانجابت عن النفوس ظلم التوحش، وانحلت عن العقول عقل الدهش.

وأُمر الموحدون عن آخره بالتصالح والتغافر، واستئناف أحوال التعاون والتظافر، وقطع أسباب التباعد والتنافر؛ فاجتمعوا لذلك أفضل اجتماع، وتمتعوا من نعماه بأكرم متاع، واستعيدت أحوال تؤاخيهم وتصافيهم بأحسن استعادة واسترجاع، وصارت أيامهم أيام مصافحة بإيمان، ومفاتحة بإحسان، وتأسيس بنيان على تقوى من الله ورضوان.

وأعلمناكم وفقكم الله بهذه الرجمى، والمسرة العظمى، لتأخذوا من ذلك بأوفر الحظوظ والأقسام، وتكونوا على ثلج هذا التعريف والأعلام وتشكروا الله على طَوْله وإنعامه فهو أهل الطَوْل والإنعام، وتبادروا إلى انتهاز هذا الباب المفتوح مبادرة الاغتنام، وتقتضوا في التغافر والتصافح وصلة الأرحام، بهذه الآداب الكرام، وتفعلوا مثل ما فعله إخوانكم الموحدون على قصد الاعتقاد له والالتزام. جعلنا الله وإياكم من عباده الشاكرين لما أولاه، العاملين بأحق مقصوده وأولاه؛ بمنه وفضله،

لا رب سواه. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكُتب في الخامس لجمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة السادسة عشرة

في فتح المرية وبيَّاسة وأُبَذة وموت السُّليطين أمير النصارى:

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره وأمده بمعونته- إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة من أهل بجاية أدام الله كرامتهم بتقواه، وأعانهم على شكر نعماه؛ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي تمت كلماته، صدقا وعدلا، وعمت هيئاته، طولًا وفضلا، وأوسعت غُزاته، بما سبقت به عُداته، أسرًا وقتلا، وظهرت آياته، وبيناته، على رغم من رام إخفاءها كفرا وجهلا، وتفرقت حماة أمره الأعظم وولاته، في جانب الفتح الذي انفتحت جنباته، رحبًا وسهلا؛ والصلاة على محمد نبيه المرفوعة مقاماته، المورودة كراماته، نهلًا وعلا، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، وجائزي الهدى، سبقًا وخصلا؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المبتعث لتمكين ما عاد لمتفرع السعد المكين أصلا، والمنتخب لإعلاء الدين المتين، وإبداء الحق المبين، قولًا وفعلا.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم صلة الرحمى، وإدامة النعمى، وأراكم مواقع العبر، ومطالع الآتي الكبر، من هذا الأمر العزيز الأسنى الأسمى، وأظهر لكم من صوائب السعود ما يصيب شاكلة الرأي على بعد المرمى- من حضرة مراكش حرسها الله، وكلّ فتح بحمد الله قد تفتحت أبوابه، وتيسرت أسبابه، وخرج به عن الإمكان وجوبه وإيجابه، وكل شك بفضل الله قد ارتفع حجابه، وانصدع بنور اليقين منجابه.

فهاكم الآيات الربانية قد تجلت للعيان، وأشرقت في مطالع البيان، وتوضحت بندائها المسمع وورائها المشرق للصم والعميان، والحمد لله الذي جعل هذا الأمر الكريم رافعًا لأصداده، طالعًا بمظهر سعده وإسعاده، وفتَّ في سواعد حزب الشيطان وأنداده، بصواعق براقه وإرعاده، ويسر فيهم غرائب الفتوح، وعجائب الصنع الممنوح، من مستنجز وعده وإيعاده؛ ولا ناشئ وفقكم الله من الآمال، ولا طارئ من تنازح القبول والإقبال، إلا وبرية هذا الأمر إلا على متكلفة بإيجاده، متخلفة في مده وإمداده.

وقد كانت الأندلس وفقكم الله هذه المدة كلها تستدعي من صرف العناية إليها، والإقبال بكنْهِ الهمة عليها، ما ترتب فضله على الوجوب، وأخذ حقه بمجامع النفوس والقلوب، وكان عدوها المجاور، وأرقمها المشاور، قد لجَّ في غلوائه، وركب إلى المطامع ظهور أهوائه، وأخذت وساوس الشيطان تتصل في إجرائه وإغوائه، وتخيل له أن ميامين الأقدار تتصرف بلوائه، وتتعرف من ظعنه وثوائه؛ فصار أحر من محفحفة الذباب، وأحرى إلى انتهاز الفرص من المذكيات على القلاب، وكلما أجرى بالخلاء، ونال غاية على جهة الإمهال والإملاء، سمت نفسه إلى الاستيلاء، وارتمت إلى أبعد مرامي الظهور والاعتلاء.

ولما توجه النظر إلى جهاده وغزوه، واستحضر العزم في قطع اعتدائه وعدْوه، وابتدر الرأي إلى تقييده عن مسرح بأوه، ومطمح شأوه، رأينا أن أمر المريَّة حرسها الله من أهم الأمور، وآكدها في هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية.

واتفق عند ذلك نفوذ الطلبة الذين بغرناطة أعزهم الله إلى جهاتهم وانصرافهم، لحماية أكنافهم وأطرافهم، فلما وصلوا إليها، ووردوا عليها، فلم يلقوا عصا التسيار،

ولم تتركهم دواعي البساط والانبساط للمكث والاستقرار؛ وعندما انتظموا على هذا القصد والتاموا، وركبوا الخيل للجهاد واستلاموا، وساروا على بركة الله واليمن يقدمهم، والسعد يخدمهم، والعناية تصحبهم وتلزمهم، ووافوا المرية حرسها الله وقد انتشر من كان فيها من الكفرة على تلك الربى والأباطح، واختلط المرعي بالمهمل في تلك المراحات والمسارح؛ فابتدرهم جنود الله بطعنهم مخلوجة وسلكى، وتريق دمهم الهدر سفحًا وسفكا، وحازوا هنالك من النفل الكريم، والخير العميم، ما ملأ عيونهم قُرَّة، ونفوسهم مسرة.

واقتحموا على بقية الكافرين أبواب المريَّة حرسها الله فانتجز لهم الوعد الموعود، وتيسر لهم الفتح المعهود، وتساقت دماء أساود الكفرة تلك الأسود، واستولوا عليها استيلاء من عضدته السعود، وأيدته الجيوش الباطنة والجنود، فلله ما ظهر هناك من آيات باهرة، وبينات ظاهرة، لا تنسب إلا لبركة أمره، ولا تعتري إلا لمعونته المقدرة ونصره.

ولم يبق للمشركين في تلك الطمحة الهاجمة، والنقمة الداهمة، إلا من انحصر في القصبة، فرارًا من الغلبة، وحذارًا من تلك الصوارم المرهفة واللهاذم المذربة. وأقام المحدثون أعزهم الله بظاهرها المُطِلّ، وشرفها المُقِلّ، مسرورين برفعة الحال والمحل، مستبشرين بانتشار ذلك النظم المنحل.

ولما اتصل بابن مردنيش ما هاله من هذا النبأ المفلق رأى أن ينهض بجملته البائسة على نية الغياث، ومبادرة خيله قبل الانتقاض والانتكاث، وأن يتطاول الاستنصار بالاستنسار تطاول البغاث؛ فاستصرخ بالسُّليطين استصْراخ الملهوف، تقويةً لأمره المضعوف، ورجاء في استنقاذه من الحتوف.

ولما حس بندائه، ورأى ما أخذوا عليه من دائه، وبادوا إليه من غذائه، بادر بنفسه، واعتقد نصرته في كفالة بأسه. وتضافرت جموعهم البائدة، وجنودهم الحائدة، على المريَّة حرسها الله في أحفل عدد، وأوفر مدد؛ فلم يزد الموحدين ذلك إلا شهامة وصرامة، ولا تعرَّفوا بنزول الكفرة إلا عدَّةً وكرامة، واستمروا على حصر القصبة المذكورة والكافرون يرون إخوانهم في قبضة الأسرة، وحالة العسرة؛ فيخترقون فناء الحسرة، ويشرقون بعد العبرة والزفرة؛ وسلط الله عليهم في أثناء ذلك من الرغب، بمقاساة ذلك المنظر الكريه الصعب، ما زلزل أقدامهم عن مواقفها، وغم نفوسهم برواجفها، وأراهم مساقط هامهم في معارك تلك الصدمة ومزاحفها؛ فولوا على الأدبار وهلا ووجلا، وتنافست أقدامهم في الفرار سرعةً وعجلا، إذا رأوا غير شيءٍ ظنوه رجلا، وإن نعب ناعبٌ رأوه حينًا مرتحلا، وأجلًا معجالا.

وقد كان الطلبة أعزهم الله خاطبونا باجتماع الكفرة وائتلافهم، ومحاولتهم الثبوت في محل انقراعهم وانجعافهم؛ فرأينا أن الله تعالى قد يسَّر ما كان يؤمل من انتسافهم، ويحاول من هلاكهم وتلافهم.

فسرنا على بركة الله وعونه وقد تحرك الوجود بأسره، ووثق الجميع بفتح الله ونصره، وفدح الكافة بما ينتجز في ذلك من الوعد الصادق لأمره.

ولما نزلنا على مرحلة من هذه الحضرة حرسها الله وقد انبسطت النفوس لذلك الجهاد المبرور، والغزو المشكور، وعمها من الفرح والسرور، ما كادت تسبق به الجسوم لمباطشة ذلك العدو المقهور، وافى البشيرُ بنكوصهم على الأعقاب؛ ورجوعهم بهول المطلع وكأبة الانقلاب، وإجفالهم في ذلك المهمه والييباب، بحالة الذهاب والتباب.

فرجع الموحدون على بركة الله وقد نالوا الأجر والغنيمة، واكتفت لهم الفتوح هذه الغزوة العميمة، والحركة العظيمة؛ وكانت أعزكم الله على قرب مأخذها ويسر مقصدها أبلغ في إهلاك الأعداء من غزوهم في عقر ديارهم، وقتلهم عند محمى حماهم وذمارهم، ولقد ظهر في ذلك لأولي البصائر والأبصار، ما وضح وضوح النهار، وصار عبرة لأولي الاعتبار.

ولما جدَّ أولئك الأشقون في الهرب، وشدوا حيازيمهم للقاء الموت والعطب، أخذ الموحدون أعزهم الله بمخنق أولئك الكفرة المحصورين، أخذًا قذف في قلوبهم السلا، ولسهم بالكريهة وهل يبقى على البئر الخلا؟ فتيسر أمر تلك القصبة حرسها الله على أحسن وجه وأجمله، وأتم صنع وأكمله، وتحصل الموحدون فيها على غاية الظهور، ونهاية الوفور؛ فارتفعت أصواتهم بالحمد والشكور، وسطعت آياتهم في مطلع الضياء المشرق والنور، ويُدّل خوف تلك المدينة حرسها الله أمانا، وكفرها إيمانا، ونطقت البينة التهليل، بذلك الصنع الجميل، إفصاحًا وإعلانا، وتيسرت عوارف الآمال، ولطائف الأجمال، تمكنا وإمكانا.

ولما اتصل بالكفرة المنهزمين هذا النبأ المهلك، والحتف المدرك، عاجلهم الأمر الوحي، وداخلهم الداء الدوي، وأراهم عاقبة الخسار والبوار رأيهم الدبري، ثم وصلوا إلى ساحة غرناطة حرسها الله منجزين ببقية ذماء، ومحيلين بأثر حمية واحتماء، وبواطنهم قد عصت بالفرق، ونفوسهم تفيض من الغصص والشرَق؛ وكلما لاح بأفقهم لائح، وصاح بعقرهم صائح، تلَّهم للجبين، وأفهمهم سرعة الفتح المبين؛ فَهُم بين أوحال تعترض، وأوجال لا تنقرض؛ وشاهدوا مدة إقامتهم من تلك الأسوار، المجللة بالحماة، المكللة بالكماة، المتوغلة في تلك المرماة والمسماة، ما زادهم خبالا، وأورثهم وبالا، وأراهم وقع المكاره حسًّا وخيالا؛ والموحدون الذين بها

أعزهم الله يغيرون على أكنافهم، وينقصون من أطرافهم، ويتربصون بهم دائرة السوء في إحفالهم وإيجافهم.

ولما رأى السُّليطين ما غمره من تلك الأهوال، وتضاف عليه من الخزي والنكال، وأفضى إليه من ذلك المآب الخاسر والمآل، فر من الموت وفي الموت وقع، واتسع الخرق على الراقع فما رفا ولا رقع، وألقى في آلاته المنتدبة، ومجانيقه المنتصبة، ما تصلى به ناره من النار الحامية الملتهبة؛ ثم استتبع ما جمع من تلك الجنود المنهزمة، ونثر ما ألَّف وحشر من تلك الجموع الملتئمة، وسار يجود بنفسه، ويتطارح على رمسه، ويندب في يوم تعسه، ما أسلف في أمسه؛ ولما وصل من مقربة من بيَّاسة حرسها الله قيدته المنية بقيدها، وأودعته مظلم حفرتها وضيق لحدها، واقتضت نفسه الخبيثة اقتضاء العزم عجل على النسيئة بنقدها.

وصدر فرط من معه هنالك من أشياعه وأتباعه بذلك المرأى الهائل، والمنحى الجائل، أجفل من النعام الشائل. وعند إحباس الطلبة الذين فتح الله لهم في المريَّة حرسها الله بهذا الأمر الطارق، والفتح الخارق، بادروا للفور مسرعين، وجدُّوا للحين مهطعين، يصلون التأويب بالآساد، واثقين بنجح الاجتهاد، وحامدين عاقبة الغزو والجهاد، حتى انتهوا إلى بيَّاسة حرسها الله فتلقتهم هنالك عجائب الفتوح، ورقتهم غرائب الفضل الممنوح، في مراقي الظهور والوضوح؛ وخرج إليهم أهل القطر حرسه الله جمًّا غفيرا، ونشرًا منتشرًا كثيرا، كلهم يعلن بالدعاء تعظيما وتكبيرا، ويسأل بركة الوعي والاسترعاء تمكينًا وتقديرها؛ فلم يألوهم تسهيلًا وتيسيرا، ولا تعرَّفوا من قِبَلهم إلا بشرى وتبشيرا.

وساروا إلى المدينة حرسها الله مفتحة لهم الأبواب، ميسرة لهم الأماني الرغاب، تتهلل بهم وجوه الآمال، وتقتبل وفود الإقبال، على ما اقتضاه ذلك العجب

العجاب. وقد كان انحصر بقصبتها من لم ير الأمر من وجهه، ولا تصوره على كنهه. ولما أبصروا تلك الغاشية قد لحقتهم، ورأوا تلك الآزفة قد أرهقتهم، بادروا إلى أُبَّذة حرسها الله مبادرة الفلّ المنهزم، والقل المصطلم.

ولما اتصل بالطلبة أعزهم الله نبوهم قاموا بتثقيف تلك القصبة الأشبة والمدينة الحصينة، وملئوا نفوس الناس بما سكَّنها من الأمنة والطمأنينة، وساروا على الفور طالبين أثر أولئك الهاربين، حتى أفضوا إلى أُبَّذة حرسها الله فتيسر لهم الفتح الجميل، والمنح الجزيل، ودخلوها بحمد الله أسرع من طرفة العين، ولم يسلموا البدار والابتدار لمثبط الأناة والأين، بل صمموا تصميم الأجد، وتمموا ذلك الصنع الكريم بمقتضى الرأي الأسد، والأمر الأشد.

وانفتح أثناء ذلك من الحصون الممتنعة، والمعاقل المرتفعة، ما كان يعزب عن الأوهام، ولا يقرب لتناول الجيش اللهام، أتلاعٌ تُزاحم أعنان السماء بمناكبها، وتُصادم فدوع النجوم بذوائبها. وبيَّاسة وأُبَّذة حرسهما الله قطران عظيما المنافع، متسعا المسارح والمزارع، ممرعا الجوانب والأجارع، وعلى بيَّاسة منها كانت عمدة الفار في شن المغار، والإلحاح في الأضرار، وبث السرايا في تلك الجهات والأنظار، والانسحاب على ما يمَّموه من الأصقاع والأقطار؛ وقد كانوا اتخذوها أصلًا يسندون إليه، ويعتمدون عليه، فشحنوها بالآلات المعدة، والأقوات الممدة، تحصينًا لأُم مثواهم، وتمكينا لأم عدواهم.

وكانت بين بلادهم وبين بلاد الأندلس وفقهم الله في العهد المتقادم مسيرة أيام للشديد المُدبدب، والسريع المُقرب، في مهامه طامسة الصوى، متصلة المنازل المستوبلة المحتوى، وكانوا إذا راموا الخروج طالت عليهم الشقة، وكثرت المشقة، فلا يصلون إلا بعد التقليع والتحذير، واتصال البرد بينهم والتنوير، فيرجعون عن

الخيبة والعناء، كارين من ذلك السبسب والدهماء، إلى أن تمكن لهم أخذ بيَّاسة حرسها الله فحصلوا منها بالجامع الرابط، والمانع الحائط، لا يعزب عنه محاول، ولا يبعد عنهم متناول؛ فأحلوا العباد، وأخلوا البلاد، وأخافوا الأغوار والأنجاد.

والآن وفقكم الله قد استراحت الأندلس من دائها العضال، واستباحت حمى الكفرة بمرهب القراع والنضال، وأراحت بنور الإيمان ظلمة الكفر والضلال، وارتاحت بنفائس اليمن والأمان في ملابس الحسن والإحسان والإفضال.

وخاطب الطلبة أعزهم الله معلمين على الجملة والإجمال، بتلك الفتوح التي تسنت على غاية الإجمال، على ما شاءت سنيات الآمال، ومبينين بأنها والحمد لله متصلة في عنفوانها، جارية في ميدانها، ملء عنانها.

وأعلمناكم وفقكم الله بما تسنى من هذه المسرات المتواترة، والخيرات المتظاهرة، والآيات الظاهرة الباهرة، لتشيموا بروق الرحمة، أين مصابها، ومستقر في نفوسكم محل هذه النعمة، ومصابها؛ فكم تيسر في هذه المكاتبة العظمى من فتح اندرج على بواهر الفتوح، ومنح اتصل بسنيات المنوح، ونصر تُصُرف في نيله بمدد الملائكة والروح. ألم يكن هذا الكافر الخاسر عجَّل الله بنفسه إلى النار، وأحله متبوأه من دار البوار، يشمخ بأنفه، ويعرض تأني عطفه؛ وها هو مجدل بحتفه، ومبدل من حياته ونجاته بنسفه وخسفه.

هذه وفقكم الله آيات بينات، وبراهين متعينات، قد سفرت عن مناظرها الرائقة، وأفصحت بعبرها الناطقة، وأنجزت والحمد لله مقدمات الوعود ومتممات السعود السابقة، والحمد لله الذي وصل المنحة السنية بكمالها، وأطلع هذه الدعوة العلية في مظاهر جمالها وإجمالها، وجعل العاقبة الحسنى بمبدئها الأكرم الأسنى

ومآلها. والله يجعلكم من الشاكرين لنعمه المتصلة الإمداد، المشملة الإسعاد، الجارية على أبعد الغايات والآماد؛ بمنه وكرمه. والسلام.

كُتب في العشر الأول من شعبان المكرم سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة السابعة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية المذكور:

يذكر وفود القبائل الذين ببلاد السوس والتماسهم الأمر وتوحيدهم وما انضاف إلى ذلك من الوصول إلى تينملّل وزيارة قبر المهدي بن تومرت:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بفلانة وأنظارها أدام الله كرامتهم بتقواه، وأمتعهم بعوارف نعماه وحماه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، ذي الرحمة الميسرة، والمعونة المظهرة المقدرة، مُقيم قواعد هذا الأمر العزيز على قواعد الخير والخيرة، ومُديم نضرة النعيم للوجوه الضاحكة المستبشرة؛ والصلاة على محمد نبيه المؤتى بجوامع الكلم وبوالغ الحكم، المتقررة. المتجلى في كشف الظلم، وإنارة القصد الأمم، بمطالعه المشرقة النيرة؛ وعلى آله وصحبه الكرام البررة، أولي النفوس المتنورة، والقلوب القابلة المثابرة؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، ذي الوعود المظفرة، والسعود المسفرة، المبتعث بالبصائر المبصرة، والسرائر الطاهرة المطهرة.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله ممن أبصر آيات الحق المبين تُظهر وتُبرز، وغايات السعد المكين تُخار وتُخَرز، وحرمات الدين المتين تُحرس وتُحرز، ومقدمات هذا الأمر الميمون الأمين تستنجز فتُنْجز- من حضرة مراكش حرسها الله، وقد كرُم بفضل الله الورد والصدَر، ونيل المنح المنتظر والفتح المبتدر، وجرى في استنانه، ملء عنانه،

القضاء المسعد والقدر، فاقتضت النفوس والحمد لله أحوالها السنية، وآمالها الجنية، وجمعت في منال أجرها، ومآل يسرها، العمل والنية، ونالت بسعادتها المستفادة، ووفادتها المستجادة، الأمن والأمنية.

وكل ما يطرأ بحمد الله من المنح الباهرة، والمنن الباطنة والظاهرة، فعن بركات الإمام المهدي رضي الله عنه منشاة ومنبعة، ومن مقاصده الشريفة، ومشاهده المنيفة، مشرقة ومطلعة. والحمد لله الذي تيسر به الخير أجمعه، وتحصل لأولياء أمره الأعظم وأهله ما يبهر مرآه ومسمعه؛ وإليه يحمد المرءُ ما تقدم بين يديه مما يحظيه وينفعه.

وقد كنا رأينا أعزكم الله أن ننهض على بركة الله وعونه إلى جهات بلاد الموحدين أعانهم الله على قصد الاجتماع بجميعهم ليتجدد عهدهم بالذكرى، وتشافههم ألسنة البشرى، وتتمكن من نفوسهم مقاصد الحسنى واليسرى، وانضاف إلى ذلك من القصود المكرمة، والغايات الميممة، ما تيمن به، ورُجي الخير بسببه، واستحضر العزم في ابتغائه وطلبه. فسرّنا بمن أمرنا بالنهوض من مشيخة الموحدين أعانهم الله وأعيانهم وطلبتهم وحُفاظهم لا يقطعون واديا، ولا ينزلون ناديا، إلا وكُتب لهم به عملٌ صالح، وأملٌ سانح.

واجتمع هنالك بمن تجاوز تلك المسالك، من قبائل جدمِيوة ومَصْمُودة وجَنفِيسة ورجْراجة، وحاحة، كل قبيل منهم في مستقرها، ومصاف ممرها، قد أغصبت الأباطح والرُّبَى، واستروحت النصر بمناوحة تلك الصبا، وقد أعدوا لقبول الموعظة، ولادكار الموقظة، أسماعًا واعية، وقلوبًا راعية؛ فأُخذ معهم على وجهة التذكير والتبصير، في التعريف بمقاصد هذا الأمر المشرق المنير، وتقدير ما يسّر لهم من مطالب التيسير، ومذاهب التبشير، وشمل جميعهم الحنان والامتنان، رحمةً للكبير، وشفقةً على الصغير، ورفقًا بالقوارير؛ فطار بهم الفرح كل مطار،

وتحصل لنفوسهم كل استبصار واستبشار.

واستمر الأمر على هذه الصورة المجلوة، والسورة المتلوة، منْقَلةً منْقَلة، ومرْحلةً مرْحلة، وكلها تمكث فيها بحسب ما تقتضيه الحالات المحاولة، والأمور المزاولة؛ والموحدون أعانهم الله ينالون في أثناء ذلك من الخيرات المنهملة، والبركات المكتملة، ما عظم حسًّا ومعنى، وبهر حسنًا وحسنى.

ولما وصلنا أحواز بلد حاحة عمّره الله تلقينا هنالك جماعةً من قبائل جَزولة الكشْت وفقهم الله وهم يؤمُّون هذه الحضرة حرسها الله راغبين في الأمان بالإيمان، وطالبين عموم الفضل والامتنان، وسُوغوا ما أملوه من المنن والألطاف، وأُعلموا بما في الخلاف، من الهلكة والتلاف، وبُين له أن المؤمن كالنخلة طيبة القطاف، والكافر كالأرْزة مريقية الانعجاف.

فنطقت قرائن أحوالهم، على مطابقة أقوالهم، بما عندهم من صدق الرغبة، وحسن التوبة، وتمكُّن الفيئة إلى أمر الله والأوبة؛ وهم يتذممون من إصرارهم، ويتوسلون بخلوص إعلانهم وإسرارهم، ويصرحون بأن ما سلف من أعمارهم، ليس من إعمارهم. وكان الاجتماع بهم على أحسن ما أملوه، وأيمن ما سألوه، وتقلدوا بتقليد البيعة عهد الله الذي احتملوه، ثم صدروا على بركة الله وقد ظفر بالرحمة آئبهم وتائبهم، وشكرت مواقع النعمة ألسنتهم وحقائبهم.

وكانت في هذه الموافقة أكرمهم الله عبرةٌ من العبر، وآية من آيات الله الكبر، فإنها كانت على غير علمٍ من الجهتين، ولا ارتباط من الطرفين، بل كان ذلك بأمر إلهي، وتسخير رباني، واستمر سير الموحدين أعزهم الله لإتمام مقصدهم الأتم، والاهتمام بغرضهم الأهم.

ولما وصلنا إلى السوس عمره الله، تجدد للنفوس أعزكم الله، هنالك من العمل على التقوى والبر، ومراقبة حدود الله في العلن والسر، ما استرسل على العموم والخصوص، وتبين في مقامات الإخلاص والخلوص؛ وظهر هنالك من آثار تلك البداية، وأنوار شمس الهداية، ما صار أوضح في النفس، وأبين للحس، من نور الشمس، وكان الوصول إليها أول يوم من شهر رمضان المعظم من هذا العام المبارك يمنه الله فيا سُحب النعمة اسكبي، ويا خيل الرحمة اركبي! فلله ما ظهر هناك أظهركم الله من آيات جلية، ومقامات سنية علية، وكرامات معناوية وحسية.

ولما جدَّ الموحدون أعانهم الله في السير، وتجلت لهم في البدار صورة الخيرة والخير، وصلوا إلى تارودانت عمرها الله فألفوا فيها من قبائل السوس عمره الله جموعًا غَشَتَ أديم أرضها، وامتدت مع طولها الممتد وعرضها، كلهم ينافس في البركة، ويرغب في الاختصاص بحظه من تلك الرحمة المشتركة، فاجتمع بهم قبيلًا بعد قبيل، وجيلًا إثر جيل؛ وصدروا عن مواقف التسليم وقد نالتهم الرحمة على السواء، وطارت الفرحة بجنتهم في الهواء؛ وظُفر هنالك أعزكم الله من خلوص أنفسهم بالطاعة، وبلوغهم في العمل بهذا الأمر الأكمل إلى غاية الاستطاعة، ما شهد لهم بالسعادة، وخرق في حقهم معهود العادة. والحمد لله الذي يسر ببركة أمره الأمور، وشرح الصدور، ووصل لأوليائه العلو والظهور، والفرح والسرور.

واستعدت النفوس أعزكم الله عند تمام ذلك وكماله، وبلوغ الجميع غاية مستناله، من آماله، لزيارة الإمام المهدي رضي الله عنه في مطالع نوره، ومؤضع ظهوره، حيث طلعت شمس الدين، وتبلجت أنوار اليقين، وسطعت آيات الحق المبين، ورجونا أكرمكم الله بمشاهدة تلك المشاهد المكرمة، والمعاهد المعظمة، تجددًا لهذا الأمر الجديد، وتيمنًا بذلك المُرْضي الميمون السعيد، وتبركًا بلمس المنازل

المكرمة من ذلك الصعيد، وتمكنّا لمقاصد هذه الدعوة العلية في محال التأصيل والتقعيد؛ فسِرنا بمشيئة الله وبركته رضي الله عنه متكفلة بتقريب البعيد، وتدليل المسلك الأوعر في حالة التصويب والتصعيد. فكأنما رويت الأرض ليؤدى ذلك الفر.

ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز بمنة الله فلوحظ ما هنالك من الآثار بعين الإكبار، ورأينا البركة في تلك الأنجاد والأغوار، متضحة للبصائر والأبصار؛ وغص ذلك الجو المشرق، والأفق المحدق، بما سطع فيه من الأضواء والأنوار. ثم صعد إلى منتهى العصمة، ومهبط مليكة الرحمة؛ فنُزل عن الأكوار، وتُبُرّك بذلك المسجد المعظم والغار، ودِينَ بتعظيم ذلك المشهد الكريم في الإعلان والإسرار. وأقمنا فيه أيامًا تبركا بفنائه، وتهمّما ببنائه، ونُصِب على باب الغار المقدس بابٌ يقيه من أهوائه، ويدفع عنه مضرة أنوائه؛ ثم نُظر في إقبائه، وتغطية أرجائه، وتسوية أرضه وسمائه؛ وتم والحمد لله على ما تُوُخي فيه من حسنه واستوائه، وظهر على جوارح المعتملين في إحيائه، ما تبين من نوره وضيائه.

واستمرت التلاوة في المسجد المكرم، مدة الإقامة بذلك الموضع المعظم، ليلًا ونهارا، وسرًّا وجهارا، واجتمعنا هنالك بشيوخ هرغة وأعيانهم وفقهم الله وبُشروا بما توجه إليه سؤالهم، وأمّتْهُ آمالهم؛ فطابت قلوبهم وحسنت ظواهرهم وغيوبهم، وبُذِل لهم من الصفح الجميل والمنح الجزيل مسئولهم ومطلوبهم. ووادعنا تلك المنازل المرفعة، وقد أوعت النفوس المودعة، وصارت القلوب المشيِعة المشيَّعة.

واتصل السير أعزكم الله في أثناء تلك الجبال التي يرتد الطرف عن مداركها، ويستجد طالب العصمة في مسالكها. فلم يزل السير والتسهيل يأخذ بالضبع، ويظهر إثر ذلك المرتبع والربْع، ويدل عن مسلكها الأبسط، ومأخذها الأحوط، على

مقتضى النظر والطبع. وعند ما انتهينا إلى آنسا عمَّرها الله وهي طرف بلاد السوس، ألفينا قبائل تِينْمَلَّل وهِنْتاتة، ومن انضاف إليهم من قبائل تلك الجهات حرسها الله قد انبسطت على بسيطها، وأحاطت بمحيطها؛ فقضوا لُباناتهم من التسليم والاجتماع، ورأوا أُمنيَّاتهم من مدارك الأفئدة والأبصار والأسماع. وأقام الموحدون هنالك متعرفين من الخيرات التي أرسلت سماءها، ووصلت نعماءها، وأرَتْ بنمو البركة ريعها ونماءها، ما وسَّع الجميع، وألزم الضيع، وأمر جنابهم المريع، ونظم بوقده الرهدة والريع.

وكانت البيِّنة أعزكم الله على أن نعم بالتطوف قبائل القبلة من صنهاجة وهسكورة وكافةً من بتلك الجهات حرسها الله قصدًا في إكمال النعمة عليهم، وإقبال الرحمة إليهم.

ولما رأينا أن فصل الشتاء قد أشرف، وفصل الخريف قد انقبض وانصرف، ووقت الاغتمال فيما يستقبل من الاشتغال قد أبد وأزف، وما كان تُوُخي من الاجتماع بقبائل الموحدين أعزهم الله قد كُمِّل، وأُدرك ما يُمِّم وأُمل، ورأينا أن الأحوال بعواقبها تكمل، وأن الأعمال بخواتمها الشريفة تشرف وتجمل، رأينا أن نختم هذه السفرة التي سفرت عن العجائب، وأظفرت بالرغائب الغزائب، بما هو غاية الأعمال الحسنة، ونهاية الآمال الممكنة، من زيارة قبر الإمام المهدي رضي الله عنه حيث تبوأ شخصه الكريم، وتروض نعيمه المقيم، وتوضح نوره المبين وأمره العظيم؛ فسرنا على بركة الله وعونه والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه، وسارع بها الحرص إلى معالمه المقدسة وأعلامه.

ولما نزلنا على مرحلة من آنسا عمَّرها الله واق وفد جزولة وهسكورة وقبائل الكُسْت من شيوخهم وأعيانهم وأهل الحل والعقد منهم وقد طاروا للحاق، وثاروا

للرحمة والإشفاق، واستنزلتهم عوارف النعمة من مظاهر الآفاق، وغوامض الإنفاق، ومسحت أيدي المنة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق، ورأوا أن أمر الله لا تمنع منه الجبال الشامخة، والأطواد الباذخة، بل هو مسترسل على الأبعد والأقرب، ومستولٍ على الأسهل والأصعب، وعدٌ موعود، وأمرٌ مشهود؛ فوصلوا تائبين آئبين، وعن سبيل الشقاوة والغباوة بائنين وناكبين، وللرحمة المستحقة والنعمة المستمنحة سائلين وطالبين، وفي قبول التوبة من الذنوب وتطهير الحربة من الحرب متضرعين وراغبين.

وورد في أثناء ذلكم أعزكم الله سائرٌ من بتلك البلاد كلها من القبائل مثل لُمطة، وجزُولة، وكافّة من آوته تلك الأقطار، وضمته تلك الأنظار، وحَوته السهول والأوعار. وتحرك -أعزكم الله- المغرب الأقصى بجملته وطمت عواربه، وفاضت جوانبه، بضجة ذلك الفيض الفائض. وأعلم ذلك الوفد المتقدم ذكره، المتقرر أمره، أن الطرق بسائر تلك البلاد عامرة المناهل، معلمة المجاهل، ليردوا موارد الصفح والحنان، ويعتصموا بعروة الإسلام والإيمان. وأقام جمعهم الكثير، وملؤهم الكبير الأثير، وهم يلقون من الموحدين أعزهم الله ما أودعهم كنف الاهتبال، وصرَّف إليهم وجه القبول والإقبال، وعرَّفهم غاية المستمنح المستنال، من سنيات الآمال، وأسبغ عليهم من رياض الجنة، وحياض المنة، وارفات تلك الظلال؛ وأُفهموا في أثناء ذلك من مقاصد الحق المبين، وعقائد الدين المتين، ما شرح صدورهم، وضاعف سرورهم.

ثم تأكدت رغباتهم، وتجددت طلباتهم، في تقلد البيعة وشروطها المتبينة، وعقودها المتمكنة. فاجتمع بجميعهم قصدًا في حملهم على المثلى، وتبصيرهم هذا الحق الأجلى، وتفهيمهم ما يُسَر لهم من هذا الأمر الأسنى الأعلى؛ وعند ما تبينت

لهم أحوال اليسرى، واتضح لهم أن من كذب بالحسنى ميسر للعسرى، وتهللت صفحاتهم بالبشرى، وانهلت عبراتهم من الذكرى، ورأوا في التمسك بهذه الدعوة العلية سعادة الأولى والأخرى.

وأُخِذ معهم -أعزكم الله- في تفهيم غرض هذا الأمر الكريم من الدعاء إلى الله تعالى في السر والجهر، والعمل على طاعته في المنشط والمكره والعسر واليسر. وقُرّبت لهم تلك المآخذ حتى صارت لنفوسهم في غاية البيان، وأرتهم مقامات السعداء، ومآلات البعداء، رأي العيان؛ فنثرت ألسنتهم من عقال، وأتت لكل مقام بمقال، واندفعت خطباؤهم تعرب بألسنة الإبانة والإجادة، فيما تيسر لهم من السعادة، وتحصل لهم من الحظوظ المستفادة، وأُعلموا بما اجتمعت عليه قلوبهم من العمل على الإيمان والأمانة والعدل والعبادة؛ وأشهدوا على أنفسهم في الوفاء بالعهود، وحفظ المقاصد المكرمة والقصود، عالم الغيب والشهادة، وصرحوا بتخليصهم من الميتة الجاهلية، وحصولهم على المطالب الدينية والدنياوية في تلك الوفادة.

وانصرفوا -أعزكم الله- عن ذلك المحفل العظيم، والمجلس الكريم، وقد ظهر عليهم من صدق الإنابة، وفرط الإجابة، ما حبب جميعهم، وملأ بالمسرات بصرهم وسمعهم؛ وانقلبوا إلى بلادهم بنعمة الله وفضله متفيئين وارف ظله، آئبين بخير ما صدر به الصادر لأهله؛ ولم تزل جماعتهم تتصل، وأعيانهم وسرواتهم تقتبل، وشيوخهم وكبراؤهم تسرع وتستعجل، يبشر منهم الناهض القاصد، والصادر الوارد.

واستمر الأمر على هذه الصورة المذكورة إلى أن وصلنا إلى تِينْسيلت عمرها الله فوُودع منهم بها جمعٌ كثير، وبشرٌ كبير؛ وصاروا بفضل الله عليهم أجمل صدور وأبهاه، ووصلوا في مضاعف إحسانه، ومترادف امتنانه، غاية الشكر ومنتهاه. وأعلم سائر من خص بالورود، من هذه الوفود، أن كثيرًا من شيوخهم عجز عن اللحاق

لكبرته، وقلة استطاعته على السير وقدرته؛ فخلفوا منهم على ظهر الطرقات من فتل الزمان قيده، وأضعفت السنون أيده.

وقد كان وصل إلى تينملل كرمها الله بوصول الموحدين إليها، وورودهم عليها، جماعةٌ كبيرة من كرائم قومهم وكبرائهم، وأُولي التقدم منهم في مصالح أمورهم ومعاقد آرائهم، كلهم يرغبون في الإسلام، ويتوسلون بحرمة ذلك المقام، ويرون أنهم قد آثرتهم السعادة، على من قدمته الوفادة، بالوصول إلى محل الإمام، والحصول من الزيارة المكرمة، في تلك الدار المعظمة، على تظفُّر بدار السلام.

وصدروا -أعزكم الله- وصدورهم منشرحة بالحسنى، ونفوسهم فرحة بأملها المستدنى، ووصلهم مرتبطة بهذا الأمر الأسمى الأسنى. وقبائل الكُسْت سددهم الله قد انبسطت الآن في ظلال الأمن والمنن، وحطت أرجلها عن ظهور تلك القلع والقنن، وتحصنت بما يُسّر لها في أحصن الوقايات وأوقى الجُنن، واتسعت آمالهم في الحرث والزراعة متبركين بالطاعة، وشاكرين بغاية الاستطاعة. والحمد لله الذي بذل الرحمة لعبيده، ووصل النعمة بتسديده، وأجزل المنة بنصره وتأييده، وكمَّل هذا الطور الجديد، والدور السعيد، ببالغ الصنع وجديده، وألقى مقاليد الأمل لمراده في الأزل ومُريده، ويسَّر عوارف الفتح المبين، بتمكين أمره المكين، وتمهيده.

ولم نزل نحن -أعزكم الله- مُذ وادعنا تلك الجهات المذكورة بمقربة من آنسا عمرها الله نَصِلُ السير حتى انتهينا إلى تينملل كرمها الله فتعرفت النفوس المؤمنة مناها، وأبصرت سناء العصمة وسناها، في محلها المقدس ومعناها، ورأت في متبوائها المعظم ومثواها، شخص الكرامة ومغداها، وشاهدت بين قبره المنعم، ومسجده المكرم، روضة من رياض الجنة يسحب ظلها ويقطف جناها. وتمت هذه الزيارة والحمد لله تمامًا على التي هي أحسن، وانتهاءً إلى ما يعزُّ من مرضاة الله ويتعين،

واغتنامًا لما يتضح قصده الجميل ويتبين.

وسار الموحدون أعزهم الله بعد الموادعة الكريمة، ونيل البركات العميمة، وقد تخلصت النفوس من الشوب، واستقبلت بالتوبة النصوح قبل التوب، وتنقت من الذنوب والخطايا كما ينقى بالماء دنس الثوب، واستمر السير -أعزكم الله- وقد أرسلت الرياح مبشرات بين يدي رحمته، ومسخرات بحكمه وحكمته، وجاءت المُزن الغوادي، كما تمشي البُزُلُ مثقلة الهوادي؛ فسحت في الحواضر والبوادي، وجادت الربوة والوهدة والقنة والوادي. ووصل الموحدون أعزهم الله إلى هذه الحضرة حرسها الله وقد نشرت بساطها الأخضر، ونمقت بسيطها الأنضر؛ ودخلوا والحمد لله على ما أمَّلوه من السلامة، والكرامة، وأحلتهم تلك الأجور المنتظمة، والمقاصد المغتنمة، محل الإقامة، ودار المقامة.

وكان الوصول -أعزكم الله- في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم واختتمت السفرة باختتامه، وأشرقت الآمال والأعمال بلياليه المشرقة وأيامه، وظهرت في تلك المساعي الجميلة، والمناحي الجزيلة، بركة صيامه، وقيامه.

وخاطبناكم -أعزكم الله- بهذا الكتاب، على جهة الاقتضاب والإلماع بهذا العجب العُجاب، والفتوح التي هي محارة العقول والألباب. وإلا فالأوصافُ مقصرة عن نعتها، والألسنةُ معبرة عن عظمها بصمتها؛ فاستبشروا بما بُشرتُمْ به من هذه المنح التي أنطقت الجحاد، وخرقت المعتاد. والله يجعلكم ممن تنعم بنعماها، وتعرض لنفحات رحماها، وآتى نفسه تقواها وزكاها، وهو خير من زكاها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في الثامن من شوال سنة اثنين وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثامنة عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش:

أما بعد حمد الله الذي عم بنواله، وخص أهل ولايته بقبوله وإقباله، والصلاة على محمد عبده ورسوله، وعلى صحبه الأكرمين وآله، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بإتمام أمر الله وإكماله، المؤيد بالآيات العصمية، والبينات الحكمية، في كافة أقواله وأعماله؛ فإنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم أعمالًا زاكية نامية، وآمالًا في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية- من حضرة مراكش حرسها الله وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدحها الأعلى، وتوجب على الاتصال حظوة الاحتصال لأهل كلمة الله العليا، وتجمع لهم حتمًا مقضيا، ووعدًا ماتيا، بين خير الآخرة، وخير الدنيا؛ وبثبوت هذه القاعدة، تستوسق أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة، وتستن اطرادًا واتساقًا على طريقة واحدة.

وقد أنبأ كتابكم الأثير بمكيفات ألطافٍ تتيسر لكم أسبابها، ولا يغبكم إشعارًا بالعادة إلمامُها وانتيابها، ولا يبعد عن استطلاعكم دنوها من وفق الآمال واقترابها، من خضد شوكةٍ لعدو، وكسر حدٍّ وحدة لذي كفور وعتو، وتعرُّف في أثناء هذه المجاري لسمو، مجدد لأمر الله وطائفته وعلو، واستصحاب عونٍ على أمداد من الأقوات، ومرابط المستحقات، تُشدُّ بها قوى الطاعة، ويتوخى بها ما يتوجه من إقامة فروض الله الممتثلة المطاعة. وجميع ما أشرتم إليه مشكورٌ منحاه، محمودٌ مقصده ومغزاه، مستمرٌّ على الاجتهاد وسبل الجهاد مأتاه. فاشكروا الله على ما خولكم من مننه، وخصكم به من المساعي المبرورة في إقامة سنته وسننه، واحمدوه بواجب حمده

يؤتكم كفلين من رحمته ويؤوِكم من ركنه الأمثل وأمكنه، وتمادوا على أحسن أحوالكم وإقامة وضائف البرّ، وانثوا ما يرضى الله في الجهر والسر.

والله تعالى ينجدكم بعونه، ويجعلكم في كفالة حفظه وصونه؛ وعليكم بتقوى الله في جميع أحوالكم، ومراعاة التحفظ في كافة أعمالكم، والاعتماد على المذاكرة والاتفاق في الكثير والقليل من أشغالكم؛ ولا يتمكن التأويل في أمر من الأمور منكم ولا يغلب التحكم في سر ولا جهر عليكم. ومتى ظهر هناك أمرٌ أو طرأ في شيءٍ غرم فلتعرضوه عن المذاكرة والمشاهرة وتقفوا به على الاتفاق والاجتماع، ثم تطالعوا به قبل إنفاذه وإفاتته ففي ذلك من الخير والبركة ما تضمنته المشورة من الفائدة، وجميل العائدة؛ وبعدها يكون التوكل على الله تعالى. والله يوفق آراءكم ويرشد مذاهبكم وأنحاءكم بمنه. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في الرابع عشر من رجب الفرد من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة التاسعة عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين الذين بإغرناطة أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه؛ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام، وعلى معارج تيسيره منعطف كل مرام، وبحوله وقوته مورك كل بدءٍ من الأمور وتمام، وهو أهل الشكر والحمد على الإحسان المتتابع والإنعام؛ والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبل السلام والإسلام، والمبتعث إلى الأحمر والأسود من كافة الأنام، وعلى آله وصحبه البررة الكرام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المخصوص بالعلامات الصادقة والأعلام، المبشر من ظهور أمره العلي، وتعيينه المراد المعني، بما فاضت تباشيره، وسالت أساريره على صفحات الليالي والأيام.

فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم تعرُّف الآلاء المستجدة، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمدة، من منزل الموحدين أظهرهم الله، بظاهر المهدية فتحها الله ووعدُ الله لأوليائه قد فض الإنجاز ختامه، وبرز لياليه المخبوءة وأيامه، وأجرى بأعلى حزبه المفلح قضاياه الماضية وأحكامه، وأخبر طائفة هذا الأمر الكريم وعامري صراطه المستقيم، من ثمرات هذه الحركات المشهود لها بميامين الأقدار، المستنة في مضمار الاختيار، ما بلغ فيه والحمد لله من إظهار دينه وتمشية أمره إلى أفضل مأمول، ووقف منه على عناية الله الباهرة للعقول، المطابقة لمواقع المطلوب من فضله والمسئول.

ولله تعالى في بركات هذا الأمر العزيز رحمةٌ على العباد ممدودة، وإشارةٌ في معنى العموم مقصودة، وإرادةٌ في حياطة المعرق والمشيم والمنجد والمتهم موجودة مشهودة، ليأخذ الأمر العزيز بمجامع الاستواء، ويطبق بمطارح الأدواء، ظلم الأهواء، ويعمها تصديقًا للخبر، تحقيقًا لوارد الأثر، بالقسط والعدل على حد سواء.

وما زلنا -أعزكم الله- وهذه المطالع الشرقية مأمُّ الركاب، وإليها مرتقى الأسباب، والجهاد المظفر ينتابها من كل مدخل مبارك وباب، نلتفت من تلكم الجهة إلى العدوة الأندلسية حفظها الله بما يجب لها من الالتفات، ويجمع على قصدها أطراف هذه المقاصد والأشتات، ويجعلها الجهة الميمنة وإن تقسمت العزائم من جهات، تمكينًا لاستحداث العزم، واستئناف الأمر الجزم، إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه، وصيب إخطاره وإلهامه، ما استُخير فيه تعالى فصدقت به الاستخارة، واستقلت به الأفكار المدارة، وأذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مقدمة البشارة، وهو النظر في احتطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق عمره الله مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين، يختصّ بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتماؤها، ويرتكز بفنائها علَم هذه الطائفة ولواؤها.

وإنا لنرجو أن أشعة النصر لتلكم الجزيرة تثبت من مطلع هذا الشارق والشاهق، وتلمع في كل مطرح بكل بارق، وتضم إلى حزب الله وفيئته كل منافر ومفارق، ويكون النظر المحتل بذراه، المنعقد بعراه، مطلًّا إن شاء الله على المغارب والمشارق.

وقد قويت العزيمة بحول الله على الاشتغال ببنائه، وعمارة فنائه، والأخذ في شانه، وإعداده على مقتضى المدن المحصنة المحسنة لأوانه. واستخرنا الله تعالى

ووجهنا الشيخ أبا إسحاق براز بن محمد والحاج يعيش أكرمهما الله للاشتغال بذلك على ما وادعناهما عليه وذاكرناهما به في كيفية الاشتغال، وصورة الاعتمال، ولتجمعوا -أعزكم الله- ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين أكرمهم الله بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين بإشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصلين من قِبَلنا الذين ذكرنا لكم توجيههما؛ وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها وإجادة الاختيار وتوسعة الغناء.

وقد خاطبنا الشيخ الأجلّ أبا حفص أعزه الله ليصل إلى ذلك المكان إن تمكن له؛ وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار أكرمه الله ليصله وتتلاقى هنالك الآراء المذاكرة المباركة. وعند الشيخ أبي إسحاق والحاج يعيش ما ذاكرناهما فيه مما يُعتمد عليه إن شاء الله. والله يُعرّف اليمن في ذلك والخيرة، ويجعله عنوان الإقبال وفاتحة النصر بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أعزكم الله! خلال النظر في إنفاذ هذا الكتاب إليكم، سنى الله تعالى ما يصلكم صحبته من فتح قفصة وما اتصل بفتحها من مخاطبة عرب قابس الذين فروا منها وقت فتحها، وطلبهم للأمان على ما اقتضته المخاطبة إليكم. ونحن قد استخرنا الله تعالى على التوجه إلى الغرب والحركة لاستقبال تلكم الجهات؛ وأخذنا في أهبة ذلك. فاستعدوا له، وشدوا أنفسكم، واضبطوا مواضعكم، فكان بنصر الله الذي وعد به وإتمام أمره لأهله ولا بد من دوامه ما دامت السموات والأرض. فلتعرفوا بذلك جميع الموحدين وتبشروهم به وبمطالعة الفتح لهم إن شاء الله. والسلام.

كُتب في الموفي عشرين من ذي قعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

الرسالة العشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحكم بن عبد العزيز بن المُرْخي:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بقرطبة أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرَّفهم عوارف حسناه، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي أيد هذه الدعوة العلية ونصرها وأعزها وأظهرها، ورفع مقامها وأعلى مظهرها، ووهب لطائفتها المنصورة، وصحابتها المبرورة، من إنجاده، وإسعاده، ما سهل مراماتهم ويسرها، وساوى في تحقق إنجاز وعوده، وتيقن اتصال نصره العزيز على أحسن معهوده، مضمرها ومظهرها، وكتب في إعلاء دينه وتمهيد أمره أمدها الممتد وأثرها، وجعل كلمتها الظاهرة، وملكتها الغالبة القاهرة، وأسماها وأظفرها، وأرأى الفيئة المعاندة، والأشابة النافرة على أمر الله الشاردة، من عزماتها المظفرة، ومحاولتها الميسرة، ما راعها وبهرها؛ وأذلها وقهرها، وأداها بعد الإباء والعناد، إلى الإذعان والانقياد؛ وصيرها.

والصلاة على محمد رسوله المبتعث وقد أظهرت الجهالة منكرها، وعبدت الجهلة طاغوتها وصورها، واتبعت في خبط غشواها وسحب فُضول أهوائها عمايتها المضلة وسدرها، فأرهق الله بحقه باطلها وأخمد شررها، وأخذ عن النار ومزالق العثار بحجرها وبشرها وأنذرها؛ وعلى آله وصحبه الذين بوأتهم القرابة محلها

وخولتهم الصحبة أثرها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المظهر الشريعة جده عليه السلام بعدما أخفاها الضلال وأضمرها، وأشعرها بالباطل من تبديله وتغييره ما أشعرها، فقام بأمر الله يصدع بنور داجيها ويجلو معتركها ويوضح سبلها الطامسة ويحيي أثرها، ويميت مدبرها، حتى أعادها الله على جادتها اللاحبة البينة وقررها؛ وعن مُظاهره ومُؤازره، وخليفته وصاحبه وناصره، الإمام أمير المؤمنين الذي بث كلمته الهادية ونشرها، وأرقاها في مراقي النماء ومدارج الإكمال والإنهاء مبينًا أغراضها ومظهرًا غررها، ووصلها إلى غايتها من الارتقاء والإعلاء فأوضح معالمها وأطلع نيرها.

فإن كتابنا إليكم -عرَّفكم الله من بشائر هذا الأمر العزيز المتواردة، وفتوحه المتناصرة المتعاضدة، ما يملأُ أسماعكم، ويعمر بوافد المسرات، ووارد المبهجات المبشرات، أرجاءكم وأصقاعكم، ويجعل في شكر نعمه، والتحدث بآلائه الجمة وقسمه، تلاقيكم واجتماعكم- من داخل قفْصة مهدها الله وقد فرج النصر العزيز مبهمها، وأنار الفتح المبين مظلمها، وأعادها الله إلى ملكة هذا الأمر العزيز ونظمها، وألهم أهلها رشدهم وهداهم، وصرفهم عن غيرهم الذي استهواهم، بعد أن امتد في الضلالة مداهم، واتخذوا حَبلًا وعنادًا لإلهم هواهم؛ فتلافاهم برحمته، وآواهم إلى حرم هذا الأمر العزيز وعصْمته، ومد عليهم رواق منّه وظل أمنته، وانتاشهم وقد أشفوا على جُوف العطب وهوته.

وقد علمتم أعلمكم الله رشادكم ما كان من المنتزي فيها من الإيضاح في الفتنة والمروق من الطاعة والولوج في غيابات الارتياد والمعصية، وأنه استدعى من ذؤبان الأعراب وأوباش الأكراد شباهه في الضلالة، ونظائره في الغي والجهالة؛ فشن الغارات بهم، وقطع السبل معهم، وتوصل إلى السعي في الأرض بالفساد بسببهم،

وتراكصوا جميعًا في ميدان العيث، واستبقوا في حلبة الاعتداء، وأجروا ملء أعينهم بالخلاء، وغرهم ممتد الإمهال والإملاء؛ فازدادوا إثمًا، وانهمكوا في استحلال المحارم جرأةً على الله وبغيًا؛ فتعين حسمُ دائهم، ووجب توجيه النظر إلى إطفاء نارهم.

وكُنا وفقكم الله عند احتلالنا بإفريقية حرسها الله عرفناكم بموجب هذه الحركة المباركة، وأنها لم يتقدمها قصدٌ ولا أُعمل فيها فكر، ولا مُهد لها تعويلٌ عليها ولا عزم، وأن مُحركها القدرُ المُسعد، والباعث عليها لفور الأخذ فيها صنعُ الله المؤازر وعونه المُنجد؛ وأعلمناكم ببعض ما انطوى فيه من الخيرات المتصلة والبركات التامة والإرادات الميسرة، وما كان فيها من وصول أشياخ العرب وأعيانهم، وإهطاعهم إلى داعي هذا الأمر وبدارهم. وكان من قصدنا فيها وإرادتنا بها النظر في أمر هذه المدرة وإزاحة علتها وتطهير هذه الأصقاع من دونها، إذ كانت شجًا في صدور أهلها، وقذًى في عيون قطانها، لكونها أضحت مركز المفسدين، ومأوى المتلصصين المتمردين.

وكنا نتحقق أن الدواء الأنجع في دائها، والأمر الأنفع في محاولتها، وصولُ جميع الموحدين أعزهم الله إليها، ونزول جملتهم عليها. وكان مما خدع الفساق الذين كانوا بها وغرهم، واستقادهم إلى التمادي على الإصرار واستجرهم، حصانة بلدهم، وشهوقُ أسوارهم، ووعورةُ موالجهم، وحرج مداخلهم، وإحاطة الصحراء من كل ناحية بهم، وعدمُ الأقوات في البلاد المجاورة لهم.

وتعذُّرُ جلبها من المواضع النائية عنهم، وأن كل عسكر ينازلهم من جميع هذه الجهات يستقلون بمقاومته، وينهضون بمدافعته، وأن العساكر الكثيرة والجُمَل العديدة لا يتهيأ لها المقام عليهم، ولا يمكنها مطاولة حصارهم لكثرة ما تحتاج إليه من الأقوات، ونزارة ما يعمها في طريقها إليهم من المرافق والمياه.

وهيهات أن تحصن من هذا الأمر العزيز الشواهق، أو تمنع منه السوابق، أو تعصم من استيلائه الأسوارُ والخنادق، أو تحول دون مرامه القِيَحُ والسمالق؛ فهو أمر الله العزيز جانبه، المكبوت مناويه ومجانبه، المأخوذ بين القهر والقسر مقاومه ومغالبه. فقدمنا بين أيدينا طلبة بجاية وفقهم الله مع من كان معهم من عساكر الموحدين الذين ببجاية وإفريقية وقرها الله تقدمةً للإعذار، وأخذًا بالحجة والاستظهار، لينتبهوا من سنات الاغترار، ويثوبوا إلى الارعواء والاستبصار، ويقرعوا بالنجوع بالطاعة، والرجوع إلى الانتظام في تلك الجماعة، باب المناب والاستغفار؛ فتقبل توبتهم، وتقابل بالصفح الجميل أوبتهم. فأبى لهم شيطانهم، وغلبت عليهم شقوتهم، وتمادوا على بغيهم، واستمروا على ضلالهم القديم وغيهم.

وكنا بعد انفصال الطلبة أعزهم الله عنا نهضنا بجملة الموحدين أعانهم الله تؤمّ القيروان كلأها الله ليكون طريقنا عليها. وقبل وصولنا إليها وافتنا كتب المذكورين بأن الأخسرين أعمالًا أوقدوا للعصيان ناره، واستشعروا أشعاره، ورفعوا للدفاع أعلامه وأخذوا له أوزاره. فاستخرنا الله تعالى في النهوض إليهم، وأمضينا العزائم المؤدية على الحلول بساحتهم والإطلال عليهم؛ ونهضنا بالموحدين أعزهم الله ودلائلُ النجح بادية، ومخايل الفتح لائحة، وعلاماتُ الظفر متضحة ظاهرة، ومعونةُ الله تعالى بتسهيل المطلب وإدناء المرام كفيلةٌ ضامنة.

ولم يعدم الموحدون وفقهم الله في طريقهم مرفقا، ولا لقوا والحمد لله من سفرهم نصبا، وأخذوا على طرق بعد العهد بسلوكها، واشتبهت على عمرة هذه الأصقاع مناهجها وسبلها، وألفوا بها من المرافق الواسعة والمياه المعينة ما لم يحتسبه أحد، ولا خطر على بال ولا دار في خَلَد؛ وتيقن أولو الألباب وتحقق أهل الاعتبار أن هذا الأمر مصنوعٌ له ومؤيَّدٌ عزمه، ومكتنفٌ بعون الله مراده ورومه، وأن الغاية

الإلهية والمعونة الربانية تنجدان عزائمه وتيسران أغراضه ومطالبه.

واستمر يسر الموحدين أعانهم الله على هذه الحال الموصوفة، والصورة المجلوة، إلى أن وصلوا إليها، وأناخوا بفنائها؛ فأول إشرافهم عليها ارتبك الأشقياءُ في مهاوي المعاصب، وأبدوا صفحة المناصب المصالب، وكشفوا عن ساق المجاهد المحارب، ظانين أن هذا الأمر العزيز تعزه سامكات المعاقل وطامحات المراقب؛ ولو أحصنت البواذخ وأجنَّت، ودفعت الشوامخ عن المسند إليها وأكنَّتْ، لمنعهم هذا الحصنُ الذي تصاقب النجم هضباته، وتُذلُّ العصم قذفاته، وتتلفح بنسج الغمائم بروجه وشرفاته، لكن أمر الله لا ترد عزماته، ولا تقاوم بطشاته القاهرة وسطواته.

واشتغل الموحدون بترتيب نزولهم وتهيئة مروسهم واضطراب محلاتهم بأفنيتهم؛ فلما أصبحوا رجعوا إليهم ونصر الله يؤازرهم، وصنعه الكريم يظاهرهم؛ فنازلوهم أشد نزال، وصالوا عليهم أعظم مصال، وأروهم من هول المصاع وصدق القتال، ما قصرهم عن الاسترسال، وصيرهم بعد التبسط والإقدام إلى الانقباض والانخزال؛ فانكمشوا في أحجارهم، ولاذوا بقننهم المنيفة وأسوارهم، وأجروا طلق شرهم في مضمار انخداعهم بمعقلهم واغترارهم.

وكانت حول البلد غروسٌ وبناءات وعَّرت المسالك وضيقت المنافذ وأشبت المداخل إليهم والمخارج؛ فأخذ الموحدون وفقهم الله في هدمها، ونظروا في إزالتها وجدُّوا في تعفية رسومها؛ ونقلوا مضاربهم بحيث يسمعون سرارهم. ويتعرفون مع اللحظات أحوالهم، وأحدقوا بهم أتم إحداق، وأحاطوا بمدينتهم إحاطة الأطواق بالأعناق، وشدوا عليهم أنشوطة الحصار والخنادق، وسدوا دونهم خِصاصَ الأنقاب والأنفاق، ولم يؤخذوهم منفسًا لانسراب ولا مذهبًا لارتفاق، وأشفوا بهم من ضنك النكال وضيق المجال على شفر الإرماق، ونصبوا عليهم مجانيق بلغت في

نكايتهم المبالغ، وأحلت بهم القواضم والدوامغ، ونهكت أسوارهم، وهدمت ديارهم، وعفَّت آثارهم، وأصَّلتهم بناعب الحمام، ووحي الموت الزؤام، أُمهم الهاوية ونارهم.

وهم مع ذلك لا تسعى بهم إلى منجاتهم قدَم، ولا يهديهم إلى استنزال الأيمان، وتطلب العفو والغفران، تروع من العصيان، ولا ندم؛ ولا زادهم ما نزل بهم من أمر الله إلا لجاجًا في تهورهم، وتتابعًا على غُممهم وتحيرهم، واستيطاءً لمركب الاستنامة إلى قريتهم المحصنة وجدرهم. فرأينا والمستعان الله أن مقاتلتهم بآلات تعلو عليهم، ويتعجل معها مرام أخذهم، أصلح بالموحدين أعزهم الله واصون لهم وأوفق لما نؤثره من الشح بهم، والاحتياط عليهم، مع ما في ذلك لهذا الأمر من فخامة التناول وعزة القهر وظهور القوة وإرهاب العدو.

وإن كنا نتحقق أن وعد الله لأمره ناجز، ونصره لحزبه المفلح لا يحجبه حاجبٌ ولا يحجزه حاجز، فالنظرُ في الأسباب لا يناقض هذا العقد المتمكن، ولا ينافي الثقة باطراد فتحه لأوليائه على سنته الأنجب ونهجه البين. فأخذ في عمل ما يصلح ذلك من الآلات والأشكال، وصُرف إلى التهمم بها والعكوف عليها وجهُ القصد والاشتغال؛ فتيسرت والمحمود الله في أقرب ما يمكن من الآماد والآجال.

واتفق بين هذا الأمر السعيد وبركاته، وبراهينه الواضحة وآياته، أن جلب النصارى العود الموافق لذلك ولم تجرِ عادتهم بجلبه، ولا سبق لهم في غير هذا العام الخروج إلى سواحل إفريقية به، وما تهيأ من توصله إلى هذه الصحراء من عظم أجرامه وتفاوت خشبه؛ وذلك معدودٌ من خوارق العادات، ومضافٌ إلى ما سلف لهذا الأمر العزيز من مظاهرة الأقدار ومساعدة السعادات، صنعٌ من الله كريم، ومنٌّ جسيم يرعون منه سبحانه لا يبرح ولا يريم.

وكان من قصدنا في هذه المحاولات أن يزدجروا ويدكروا، ويراجعوا عقولهم العارية ويستبصروا، ويكفوا أعماءهم عليه من الغواية ويقصروا ممن لقت الجهالة على قلوبهم وأعمت الضلالة أبصارهم وأصمت الغواية آذانهم. فلم يطوروا بجانب التوبة، ولا يسروا للفيئة إلى أمر الله والأوبة؛ والموحدون في خلال ذلك تتحرك حفائظهم لغزوهم، وتتملط شفارهم لإبادتهم ومحوهم. وعندما قرب كمل الآلات وتمامها، ودنا اتساقها على الغرض المقصود منها وانتظامها، وكاد يحرق جوانح الغزاة أعانهم الله احتدامًا لإبادتهم واضطراما، رأينا أن نكرر الإعذار إليهم، ويزيد تمكينًا وتوكيدًا قيام الحجة عليهم.

فأرسلنا إليهم أشياخًا من الموحدين والطلبة والعرب وفق الله جميعهم فعرَّفوهم أنَّا نرفع عليهم السيف إن تابوا، ونبذل لهم الأمن إن رجعوا إلى الأمر العزيز وأنابوا؛ فعتوا واستكبروا، وأشِروا وبطروا، وجحدوا نعمة الله عليهم في هذه المنة العظمى وكفروا، وفُتحت لهم أبوابُ الرحمة فنكصوا عن دخولها وقهقروا؛ فعرف الموحدون أعزهم الله أنهم عَمُوا عن النذارة وصموا، وتردوا برداء جهالتهم واعتموا، واستمروا على عنادهم واتموا؛ فازدادت حفائظهم التظاء، ونياتهم خلوصًا في جهادهم وصفاء، وعزائمهم تصميمًا على غزوهم ومضاء.

فأذنَّا لهم في مناجزتهم، وحضضناهم على الجد في نزالهم واغتنام الأجور العظيمة في قراعهم؛ فنصبوا لهم الحرب مستعينين بالله، متوكلين عليه، راجين جزيل ثوابه، متنجزين كريم وعده، فيمن حاد عن أمره وعند عن سبيله وأباح محارمه واتخذ إلهه هواه. فشاهدوا من جدهم وشدهم ما زلزل أقدامهم، وأذهب جرأتهم وإقدامهم، وأظهر نكوصهم وإحجامهم، وأكذب أملهم في الاحتماء ومرامهم.

وتمادى الشغل في الآلات المباركة إلى أن تمت على المراد وتهيأت حسب القصد

بها. ثم استخير الله سبحانه في إدنائها إليهم وتقريبها منهم؛ فقُدّمت، ونصرُ الله يقدمها، وتأييده يكنفها، وعونه يُمهد ويُطرق لها؛ فانتهت إلى حفيرهم، واستعلت على أسوارهم، وتضاءلت لها منيفات جدرهم، وصبَّتْ عليهم سوط عذاب، ورمتهم بالصيْلم الصماء والداهية النآد؛ ورماهم الله منها بما لا قِبَل لهم به، ولا استطاعة على مقاومته ودفعه. واستمرت الحال في التوطئة وردم الخندق لها أيامًا، والحربُ تكلُّمهم، والحينُ يبرزهم إلى مصارعهم ويقدمهم.

وكانوا قد بلغوا في تتريس الخندق وتحصينه. ومجاوزة الحد في توعيره وتوسيعه؛ فاشتغل الموحدون أعانهم الله في تسويته وردمه، وناوشتهم القتالَ طائفةٌ منهم لم يتوفوا استعدادها، ولا تكثرت بسبب اشتغال الموحدين بالخندق أعدادها، فأهبَّ الله ريح النصر لأنصار الحق وحُماته، وأوليائه الذابين عن حرماته، المجاهدين لإعزاز أمره وإعلاءِ كلماته؛ فاقتحموا الستارة عليهم ودخلوها عنوةً على صدورهم وهدموا بُرجًا من أبراجها ومسافةً ممتدةً منها؛ وقتلوا عندها جماعةً من جلدائهم، وجملةً من نجب شجعانهم وأشدائهم، وعضتهم الحربُ هناك بأنيابها، ومدت الحتوف عليهم بأسبابها، ودخلت المنايا عليهم من جميع أبوابها وأنقابها؛ فأدهشهم ما عاينوا من ذلك وهالهم، وأوْهَنَ كيدهم وأضعف محالهم، وأضاق عن المصابرة ذرعهم وقصَّر فيها مجالهم، وتيقنوا ألا وزر لهم من الله ولا منجأ لهم، وعلموا أنهم إن تأخروا فواق ناقةٍ واستأنوا ارتداد لحظة، دارت بينهم الدائرة، ونزلت عليهم القاصمة الفاقرة، ودخل الموحدون المدينة عليهم واستباحوهم من فورهم.

فألقوا يد الخضوع والقياد، وألظوا بالاستغفار والمتاب، وبادروا بإرسال أشياخهم وأعيانهم وأهل الحلّ والعقد منهم أجمعين بالطاعة، مستقبلين من العثرة، مستصفحين عن سالف الجريرة والزلة، راغبين في قبول الإنابة والتوبة، مادين

لطلب الأمان أيدي الإستحذاء والضراعة، مستنزلين من فضل هذا الأمر ما لم يزل يعهد من العفو بعد الغلب. فقُبل متابهم، ووُصلت بسبب التجاوز أسبابهم، وكان إلى حميد العاقبة وسعيد الخاتمة مآلهم ومآبهم؛ ويُذل لهم من التأمين ما رجوه، وبلغوا من الصفح الجميل ما أمّلوه وبغوه.

إن كانت سوابقُ ذنوبهم، وسوالفُ جرمهم وحربهم، تقتضي رد رغباتهم، وإيثامهم مما اكتسبوا من سيئاتهم، لكن رحمة الله وسعتهم، ومغفرته تغمدتهم، وسابقة الحسنى هدتهم إلى التوبة ويسرتهم، والمنة المعلومة لهذا الأمر العزيز عمتهم وشملتهم؛ فأصبحوا للنعمة مستشعرين، وبما وهبوه من السلامة في الأنفس والأهلين مستبشرين، ولله تعالى على ما تداركهم به من إغلاق إيمانهم بحبل القبول وسببه حامدين شاكرين.

وخرج زعيمهم عن البلد صاغرا، وسارع إلى امتثال الأمر ضارعًا داخرا، جذلا بما منح من الإبقاء عليه في نفسه وأهله، معترفًا بالنعمة في التجاوز عن سالف ذنبه وقبيح فعله. واستولى الموحدون أعزهم الله على المدينة أتم استيلاء، وأجراهم الله تعالى في إظهار رايتهم، وإحراز أمرهم من النصر وغايتهم، على متعارف الأسماء والأعلاء، سنّةً منه سبحانه لا ينتسخ حكمها، ولا يتبدل رسمها، ولا يعدل عن سمته الشديد، وأثره الحميد، قصدها وأمُّها، فله الحمد سبحانه على ما أولاه، والشكرُ على ما يسره من إعزاز أمره وسناه.

وكان المنتزي بها قد استهوى جماعةً من عظام الفتنة، واستغوى حثالةً من أرذال العامة، قهر بهم سواهم، واستولى بهم وتسبب إلى استمالة نفوسهم، وتوسّل إلى استخلاص نياتهم بإباحة المحرمات لهم ورفع الحدود فيها عنهم، يرتكبون من الكبائر ما شاءوا، ويسترسلون من الجرائم والمآثم فيما اشتهوا وأحبُّوا، ولا وازع

يزعهم، ولا مانع يمنعهم، ولا قادع يزجرهم ويقدعهم.

فتسرب إليه من أجل ذلك ذُعَّارُ اللصوص وأُبَّاقُ العبيد وأخابث أهل الحرابة والشرور، وجاءوه من كل أوب، وأتوه من كل فج وتسلوا إليه من كل حدب؛ فاتخذهم جنده وصيرهم بطانته، ووافق نثيرٌ منهم فأمِرَ بهم أُمرُه واشتدت شوكته، وثقلت بسببهم على أهل البلد وطأته، وملأت نفوسهم ذعرًا وفرَقًا هيبته وسطوته؛ فلم يتمكنوا من نظر فيما ينجيهم، ولا توصلوا إلى إراعة أمر يقربهم من هذا الأمر ويدنيهم، لاذكائه العيون عليهم، وأخذه الثنايا دونهم، وبثه الأرصاد فيهم، وبحثه على أخبارهم، وإصاخته لأنبائهم؛ فمن عثر منه على ما يريبه أو سمع عنه ما ينكره أحلَّ به عقابه وأنهب أوباشه ماله ونوَّع عقوبته لهم بحسب أحوالهم على قدر مراتبهم؛ فقتيلٌ أو طريدٌ أو جبيس.

وتجاوز ذلك إلى أخذ الولي بوليه، وقتل الحميم بحميمه، وتعدى معاقبة الرجال إلى التنكيل بربات الحجال؛ فتحامى الناس شره، وصدهم عن كل محاولة خوفه، واسترب الابن بأبيه، ولم يُئْن الأخ إلى أخيه. ولما تقرر ذلك عندنا، وتحقق لدينا، أمَناهم أمانًا عمهم فضله، وكنفهم كهفه، وغمرهم إحسانه، وأواهم وكنُه؛ فأحرزوا السلامة في أنفسهم وأهليهم، واستقرت الدعة والأمنة في عِراصهم ومغانيهم.

وكان الموحدون أعانهم الله طول مقامهم عليها، ومد حصرهم لها، تترادف الأرفاق عليهم، وتُساق الأرزاق إليهم، وتعتمدهم الخيراتُ من كل جهة، وتُجلب إليهم من كل ناحية، على ما كان بإفريقية في هذا العام من قلة إصابتها وخلو مخازنها؛ فوضع الله البركة فيما سيق إليهم، وأُوتي به نحوهم؛ فعمهم الخيرُ، وشملهم الرفقَ واليسر عونٌ من الله سبحانه، وإيجادٌ على تتميم مرادهم، وحفظٌ لعوائده الكريمة عندهم.

وهذا القصرُ أكرمكم الله قديمُ الاشتهار، معترفٌ بشرفه على هذه البلاد والأقطار، معروفٌ فضله وشفوفه على سالف الأزمان والأعصار، وله من المزايا والمحاسن ما يربي خبره على الأخبار، ينبعث من داخله الماء المعين، وتُحيط بخارجه الضياعُ المغلة والبساتين، ويروق الناظر مرآه المعجب، ولا يستغرق مفاخره ولا يستوعب، ووضعه من الانتهاء في الحصانة والتجاوز في المنعة والوثاقة بحيث لا يصحب مصعبه، ولا يتمهد إلا لهذا الأمر العزيز مركبه، وهو روح هذا الإقليم ومعناه، وقطبه الذي تدور عليه رحاه. وكان أُبَّاق العرب وشرَّادهم يلوذون بداره، ويسندون فيما يزيغونه من عنادهم، ويحاولونه من إضرارهم وإفسادهم، إلى منيع حماهم، وقد قمع الله بأخذه كل متطلع إلى الفتنة وفلّ شباه.

وكان الاشتغال به قد صرَّف النظر إليه، ووقف المحاولة عليه؛ وقد تفرغ بفضل الله النظر في مصالح هذه الأرجاء. وخلا التقويم لإماطة ما ظهر فيها من نواشئ الاعتداء، وانصرف التسديد لطحر الشوائب عن مشارب أهلها والأقذاء. وبالله نستعينُ فيما نحاوله من إقامة الحق وتمكين الدين وإفاضة المعدلة ونشر الخير وتسكين الدهماء وإصلاح الخلل؛ وهو المُنجد والمعين، لا رب غيره.

وكنا وفقكم الله أعلمناكم أن العرب أصلحهم الله يرجى لهم أن يتلافوا زللهم، ويستدركوا خطلهم، بغزو في جزيرة الأندلس حاطها الله يكفر الله خطاياهم ويصلح عملهم. والنظر في ذلك متوالٍ، والأخذُ فيه متصل، وعونُ الله عليه مرتقب، ووعده الكريم منتجز، وهو جلت قدرته مُتمم أمره ومُنجز وعده، وهو المستعان، لا رب سواه.

وظهر من نتائج هذه الحركة السعيدة، وآثارها الحميدة، أن الله تدارك بها هذه الجهات بعد أن أشفت على تلافها، وقبضت عروق النفاق في أوساطها وأطرافها،

وأومضت بوارق الفتنة في جميع أرجائها وأكنافها، وكانت أحوالها تنقل إلينا غير صورها، وتحكي على غير حقائقها، ويهوَّن من أمر هذه المدرة ما ليس بهين، ويضعف من حال غويها ما ليس بضعيف؛ فكذب الخُبزُ الخَبَر، وشهدت المشاهدة بتحريف النقل وإبانة الحقيقة أن هذه المدينة من الحصانة والامتناع، والسموق والارتفاع، بحيث لا تُنال في المدة القصيرة، ولا يتمشى مرامها إلا بمحاولة الصعبة والمطاولة المديدة.

وإن تيسيرها على الوجه المذكور، والمعنى المروي المأثور، في هذا الأمد القريب، لمن بركات هذا الأمر العجيب، وسعوده المطردة، وعوائد الله الجميلة، فاشكروا الله تعالى على هذه العطايا الجمة، والآلاء المتتابعة، وعضوا بالنواجذ على التمسك بعروته الدعة بركوب سفينته، وتملوا النعمة بالإيواء إلى ركنه، وتيقنوا أنه أمره الذي تكفل بعضده وأبى إلا إتمام نوره وإعلاء حزبه. وانشروا هذه الفتوح البينة والبشائر المبهجة، وبثوها في أملائكم، وتحدثوا بها في نواديكم، وخاطبوا بشرحها جميع جهاتكم، وأذيعوها في أكنافكم وأرجائكم، يشترك جميعكم في المسرة، ويتساهم كلكم في شكر الله عليها، ويتجدد الإخلاص لكافتكم بهذا المسموع.....[1].

(١) السطور الأخيرة من هذه الرسالة ناقصة في الأصل المنقول عنه.

الرسالة الحادية والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي، معلّمًا بهزيمة عَرَب إفريقية:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والشيوخ والأعيان والكافة من الموحدين من أهل فاس أعزهم الله بتقواه، وأدام كرامتهم بحسناه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تمم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب، وأناف بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب، وبلَّغهم في أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإدبار، وبدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار، أماني الظافر الغالب، ووكل بهم أية ولجوا، وعلى أي مدرج درجوا، من النصر المُحالف المُصاحب، ما يكون لعامة أكنافهم، وجنبات أوساطهم وأطرافهم، عين المحافظ المراقب، ومكَّن لهم إنفاذًا لمقدوره، وإفاضةً لأشعة نوره، أسباب التقليب في أفناء الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب، وأحظاهم نعمةً منه وفضلًا وقد فاءوا بشرف الفتح الجسيم، واحتقاب الحظ العميم، وابتغوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم، بحظوتي الغانم الأديب. وجعل أمرهم الذي هو أمره ناظمًا إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب.

والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر العاقب، الصادع بنوره الثاقب، لبابة الانتخاب، وسلالة الانتجاب، من لوي بن غالب، المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق، بما حضر من الضرائب المقدسة والمناقب؛ وعلى آله وصحبه أولي العزم في أمره

العاكف الذائب، والجد الثابت اللازب، الأثرة المشتملة على شرف المناسب وزلف المناصب؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله وقد التفت حجب الغياهب، وتفرقت سبل المذاهب، وخُبط مِن ليل الحيرة في حيث لا مُنفذ لجاء ولا مُخلص لذاهب، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب، وأنفذ به من هو العاثر وشفى العاطب.

وإنا كتبناه إليكم كتبكم الله ممن تعرف آلاءه المستعادة، وجعل انتظار الفرج بالصبر عبادة، وبوأ بقرارة اليقين لتنجر ما في ضمن الوعد من كل فتح مبين مهاده، وقابل نعمه التي تجلي قرة أعين صورتها، وتثني ثبج أسماع سورتها، من الشكر الأحفى، والحمد الأوفى، ما يستهب نفحات الزيادة، ويصل أواصر الالتحام، ووصائل الانتظام، بين مبديه منها ومعاده، ونحن نحمد الله على آمال في إظهار أمره وفيت، وصدور المؤمنين من أعدائه وأعدائهم شفيت، وأقذاء من مشارع دينه بهذه الأصقاع طُحرت ونُفيت، وآثار كفر طمست بمظهر الإيمان وعُفيت، وأرحام حقوق الله تعالى بلَّت ببلالها وقد كانت بفناء العقوق جُفيتْ.

فلا باطل والحمد لله إلا وقد دمغه الحق فدحض، ولا عرق لظالم إلا وقد سكن بعد ما نبض، ولا مبسوط جور إلا وتكمش وتقبض، ولا مُغِلّ بدائه، ومرتقب يوم اهتدائه، إلا وقد أذهب الله بعصمته، ومسحة رحمته، عنه المرض. كلٌّ تقدم إليه النذير، وأُحيل بفتوق مسامعه التذكير؛ فمن شرح للإيمان صدره، وأذن بشمس الهداية فجره، وأُتيح له بعد عسره ويسره، انخلع من ملابس ذنبه، واستند إلى ذروة قربه، وكان على نور من ربه؛ ومن صم صداه، واشترى الضلالة بهداه، تُبَّت يداه، وأُرصد له بأخذ الله الأليم الشديد، وعقابه الذي ليس على الظالمين ببعيد، حينه ورداه، وأورد ولاتَ حين مصدر موارد لا يتعداها ما لاح ابنا سمير ولا تتعداه.

وقد كنا -أعزكم الله بتقواه- قدمنا مطالعتكم بما سناه الله تعالى في غزو عرب إفريقية من مُسنَّى أعرق في الانتماء نسبه، وتحكم في تأييد هذا الأمر السعيد سببه، وفتق العقول لمعرفة قدره، والألسن بواجب شكره، أعذبه وأعجبه، واستغرقت الأوصاف وإن أُرسلت من لسان اللسن، ومُدت وسائع القول الأعرب الأبين، قرائنه ونسبُه؛ فلمعتبر آياته، وباهر أياته، وما اطرد بين حاشيتي بداياته، ونهاياته، أحوالٌ من اللطائف الإلهية، والصنائع الربانية، لا تنحط رتب عيانها إلى الآثار، ولا تتعرض صور شاهدها في معرض الاعتبار؛ وإنما هي نُبَذٌ تهدي مخايل، وتُقيم لكم إمارات على نصر الله تعالى ودلائل.

وكان هذا الفتح العظيم في حين إعلامكم لم يتسوفَ طلقُه بعد، ولا كمل له من مستصفى مستحقه العَقْد، وأنهينا إليكم نبأه وهو في مضماره مسترسل، وإلى مقتضى آثاره من كل حدب ينسل، وأحلناكم فيما وصل على ما سيصل؛ والآن والله يوزع شكر نعمائه فقد عقد حباه، وأُغمدت وفيها فلولٌ من قراع الدارعين ظباه، واستُخلص من قصده المظفر مصطفاه ومجتباه، وأمضى حكم الله إمضاءً جزمًا فيمن تحاماه وتأتاه، ولا ثنيت الأزمة، ولا رفيت الهمة.

وببلاد إفريقية للقبيل الرياحي المستولي على أقطارها، المستعجل في إضرارها، لا ذكر يسمع، ولا حديث يرفع، ولا أثر يتقصى ويتتبع؛ أُلحقوا بقبيل العدم، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم، وأصبحوا كهشيم التهبته نفحة ضرم؛ حيزت عليهم الثنايا والأنقاب، وتبسط فيهم كيف شاء العقاب. فلم يجدوا إلى مستخلص سبيلا، ولا استطاعوا مضيًا ولا إلى منجاة تعريجًا ولا تحويلا، أينما ثقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلا، سنَّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ حقت عليهم الصيحة فأصارتهم هبًّا منثورا، وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمسٍ من

تقريها لآثارهم، وجوسها بخلال ديارهم، سدًّا لا يخترق وسورا، وأحالت متون جيادهم وما اعتقدوها منية حين ركوبها سرية أرماسا وقبورا، ووقف بهم حكم السيف السنان، على طاعة أو عصيان، ولا ثالثة وقد خطرت الجد هاتان؛ فمن أبى إلا النفار، وكره الله منه الانبعاث والاستنفار.

فقد قلد مناط مقلده، ومدار مخنقه السفار؛ ومن أخذت السعادة بأردانه، وأوته إلى شعب الفوز وإيوانه، التحف ببردة أمانه، وجر إلى منال الحظ العظيم ملء عنانه، وقد أخذ من هاتين الخطتين بقسط باء به موفورا، وقدمه يسعى بين يديه إما نارًا وإما نورا.

وفي حين هذه المخاطبة وفقكم الله وصلت أوائل العساكر المنصورة، فقصت من قصصها عبرةً لأولي الألباب، وأطلعت من معاني هذا الفتح المبارك ما أربى على العُجب العُجاب، وأنبأت بما أرسل الله في جميع بلاد إفريقية من سماء الأمن المنسكب المنساب، وأوسعها من منتشر العدل ومنبسط الفضل ما لا يحتجب عن متطلبه بحجاب، وأنها والحمد لله وقد احتثت أصل الكفرة احتثاثا، وأضحى بها حبلُ الباطل أنكاثا، حسب أمن السائل السالك، وشهادة المُنطق اللائك، وأن أهلها من توسد الآمال، والتورك على الإقبال، في أدمث الفُرس وأمهد الأرائك، يكاد مشهودًا لا من الذي لم يتصور في أوهامهم، ولا عرض قط في أفهامهم، أن يعتقدوه من بعض الخيال الطارق في مناعمهم.

فالحمد لله الذي بوأ أمره مكانًا عليًّا، ونصب للعالمين صراطًا سريًّا، وجعله بعموم الخير وشمول البكرة مليًّا وفيًا. وطهَّر هذه الأرجاء من متعاقدي الظلم والكفر، ووطأة بني السُّمر والصُّفر، واستقبل بأهلها بمستأنف إيمانهم، ومستجد إيقانهم، أشرف الحياة وأسعد العُمر. وأما ما ذكر الواصلون من العساكر المذكورة

عما استاقوه من السبايا والغنائم فما غص الفضاءُ بإقداره، وضاهى مدرار الوكافة المتن متمطر بدراره. وكيف وفقكم الله بأمة استُخلص طريقها وبلادها، واستُصفي جلالًا ما أجنَّه ادخارها وأكنه أعدادها، وقد تحصَّلت هذه الأنفال المباركة بأوائل هذه البلاد، وانفصلت جميع بلاد إفريقية هديةً من عند الله مباركة طيبة، ورحمةً من سماء إحسانه وإفضاله صيبة.

وكان في هذا القبيل الرياحي فخذٌ منهم يُعرف ببني محمد لاحظتهم السعادة بطرف غير خفي، واحتضنتهم في حجر الوقاية حفي، وكان لهم مع القدر السابق بمفازاتهم جدٌّ كفيل كفي؛ فألقوا بمقاليد الانقياد. وانخرطوا في سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد، واعتدوها بما رأوا في سواهم من الاتغاظ الذي به سعدوا، وباعتباره أيدوا، من سداد الرأي بما أُيدوا، نجعة المنتجع وبغية المرتاد؛ وقد تأثرت هذه القبيلة الفارة بما شد من شعوبها من أليم العض، فأثرت الانخال مع الموحدين بالقضيض والقض؛ وقد قوضت خيامها، وهجرت آطامها، وقدمت بين يدي استنانها على آثار أهل التوحيد أناسيها وأنعامها؛ وهي جملةٌ وافرة العدد، متظاهرة العُدَد، قاصدة خدمتها على هذا الأمر العزيز آخر الأبد.

ومما تسنى لها من تسن لطيف، وأُرج لها من خفايا التسبيب والتكييف، أن عماد بيتها وزعيم أمرها أبا يعقوب يوسف بن مالك وفقه الله كان قد خلص بحبل هذا الأمر اعتلاقه، وتأكد بعهوده ومواثيقه عهدهُ وميثاقه، وأحظاه بحظوة الهجرة إلى هذا الأمر بداره واستباقه؛ ولم يزل على طريقة سوية، ومعاملة برة تقية، استحق بها من الرأي الجميل ما سرى منه ففاض على هذا القبيل فتلوم عليهم العمل، وحرم على أرجائها بما سبق من أرجائهم النظر الأجمل، إلى أن تغمدتهم بمتابهم الرحمة،

.واكتنفتهم النعمة، وأخذت بحجرهم عن النار العصمة.

وأما جُشم بأسرها فذهبت أيضًا مذهب الانتقال، وأخذت في الاغذاذ إلى ما أُمرت به والأرقال؛ وتحركت بها لها أهلًا ومالًا من الأثقال؛ وهم بمجلدات أهل التوحيد مُعسكرون، وفي مؤازتهم التي تحملهم ومواشيهم على أعدل طرق المطاوعة والمتابعة مستمرون، وهم عَددٌ لا يحمله إلا البساط الفياح، والفضاءُ المنداح. وكلٌّ من هذين الحيين الجُشمي والفخذ المحمدي من الرياحي فقد عزم وأعزم به على أن تحط إن شاء الله بالمغرب دارهم، ويبوأ هنالكم قرارهم، ويقصر على خدمة هذا الأمر العزيز جوارهم.

وأما قبائل الأثبج وزغبة فوصل أعيانهم يمدون يد الاستتابة، ويطلقون ألسنة الإنابة، ويتعوذون من حرم هذا الأمر بالأمن والمثابة، وقد وعدوا على النظر فيما عنَّ لهم من غراتهم، نفذوا على إمضاء عزماتهم؛ فإن أمضوها نية، وأبدوها طاعةً جلية، فحظٌّ لأنفسهم اقتنوه، وعاجلُ مكروهٍ كما فُعِل بأشياعهم من قبل تخطأهم وتخطوه؛ وما سواهم فحكمٌ لا يرد عن القوم المجرمين بأسه، ولا يجهل يومه وأمسه.

وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس، ولا يجري على أساليب القياس، ولا يتفرغ في قوالب العادات من الاستيلاء على من ملك زمامي البر والبحر بهذه الأقطار، وكاثر فيها عدد القطار، واستظهر على شأنه بما زعم من قوى الاستظهار؛ فكل ما أغنى عنه جمعه، ولا حماه معتصمه ومنعهم. وإن في إبادة من أُبيد، واقتياد من اقتيد لسرًّا من أمر الله في تسخير هذا الوجود لأمره، وإشعارًا بإظهاره على الدين كله؛ وفي مجموع هذه الألطاف المسخرة والآيات المرسلة ما هو لتلكم المغارب موفور، ولآمالها في الانعطاف إليها مخبوٌّ مذخور، وعلى ما يملأُ لحظ التشوق إلى مطالعة نور هذا الأمر

موقوفٌ مقصور.

فاعتبروا وفقكم الله بهذه الدلائل اللائحة، والبراهين الواضحة، أن هذا الأمر العزيز إلى قيام الساعة مداه، موقوف على تمييز الخبيث من الطيب أولياؤه وعِداه، مجزي كلا قسط ما أخفاه من معتقده وأبداه، مُستولٍ على الأقرب والأبعد في الله يداه؛ وقد يُممت المغارب تمييمًا مباركًا بحمد الله، ووُليَتْ وجوه العزائم شطرها على بركة الله وعونه. فبشراكم اليوم بشراكم، وما أخلقكم به وأجراكم. فاشرحوا - أعزكم الله- صدوركم، وأقيموا بهذه البشائر أموركم، وأشعروا بها جمهوركم، وأعقدوا بإهدائها جذلكم وسروركم. والله تعالى يجعلكم ممن اعتمد النعم بشكرها، ووفاها واجب قدرها، وارتبط كرائمها بمواصد كرمها، إن شاء الله. وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب من فَحْص متيجة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثانية والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي المذكور:

الحمد لله الذي قدم لأوليائه أمره فيما يرومونه من تدويخ العدو وقهره يومًا على الكافرين عصيبا، وصنع لهم في إبراز الكفرة إلى مضاجعهم وسوقهم على قدم الاعتزاز صنعًا عجيبا، ووعد القائمين بدعوته، الناصرين لملته، فتوحًا آزفةً يفتحونها، ومغانم كثيرةً يأخذونها، فعجل من دون ذلك فتحا قريبا؛ وصلى الله على نبيه المصطفى محمد الهادي إلى سبل السلام ترغيبا وترهيبا؛ وعلى آله وصحبه، ومن لبى دعوته إلى ربه، سامعًا مجيبا، ساميًا في مقام النصرة ومحل الأثرة أعز نجيبا؛ ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المجدد لدينه عندما عاد غريبا كما بدأ غريبا، وذهبت به الأهواء المتبعة، والأضاليل المبتدعة، تصعيدًا وتصويبا؛ وعن صاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مُؤازره، ومُظاهره، توسيعًا لأكناف الدعوة العلية وترحيبا، ووارث مقامه الكريم، وأهلية القيام بأمره العظيم، منصورًا ومفتوحًا له ومُصيبا.

وإنا كتبناه إليكم -كتبكم الله ممن أحسن تلقي البشائر، ووفى النعمة حقها من شكر الشاكر، وجعلكم من الذين أشرقت لهم أنوار الهداية فائضة على الأبصار والبصائر- من حضرة فلانة حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه، وأن تعلموا أن لله في هذا الأمر العالي وما ناط به من إظهار الدين ونصر الملة وإعلاء الكلمة أفعالًا خافية وعالنة، وآثارًا ظاهرة وباطنة، وأسرارًا مجتلية ومحتجبة، ولطائف مشهودة ومتغيبة. فمهما أُنسئ لعُداته في

أجل الإمهال، فليساق لأولياء الله الفتح فيهم بالمساق العجيب، وليترتب لهم حال القطع لدابرهم والاستيصال لشافتهم في أجمل صور الترتيب، إشارةً للعناية ودلالة على الأثرة، وتنبيهًا على الارتقاء في الأسباب، وتبصرةً وذكرى لأولي الألباب.

وقد كان مقامنا بهذه الجزيرة مهدها الله لتتميم المقصود فيها من إظهار الدين ونصر الملة ومُرابطة في مصاقبة العدو قصمه الله. وفي مُهلة النظر في حسم دائها، واستباحة أعدائها، بلغنا أن رجالًا من ذميمي النصارى وقمهم الله من أهل آبلة وما أخذ أخذها ومن انضاف إليهم من الافْرِيرين وغيرهم كبت الله جميعهم قاصدون قصد هذه الجهة كلأها الله.

وقد وقعت الاستفاضة وحصل العلم بأن أهل آبلة حُمة النصارى وحُماتهم، ورؤساؤهم وكماتهم، وجمرتهم المتلهبة، وحوزتهم المتغلبة، والشوكة التي لم يحصدها قط حاصد، والشجرة الملعونة التي لم يقصدها على مد الدهر قاصد. وإنهم بما خبأ الله فيهم لأولي أمره، وأولياء نصره، سولت لهم أنفسهم الخائنة الخروج إلى الغارة بهذه الجهات كلأها الله تخيلًا منهم أن جنود الله الموحدين قد تفرقت ذاهبةً وسرحت قافلة، وانتهازًا منهم بزعمهم للفرصة قبل احتفال الجنود والاحتشاد لوقت الغزو.

فاستمروا مصممين وتهوروا مقدمين، وما زالوا يتقدمون إلى حتفهم، وتنضرب أسداد الغي من بين أيديهم ومن خلفهم، مغالطين بالجرأة، متخمطين بالبسالة، خارقين لحجاب المهابة، ناكبين عن سمت الإصابة، إلى أن بلغوا هذه البلاد حماها الله وأجازوا الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية، واكتسحوا جملًا من الغنم كثيرة بجهة إستجة؛ ثم عطفوا على الموضع المعروف بالكنبانية من قبلي قرطبة وجعلوا ذلك طريقهم إلى مُنْتُور.

ولما اتصل بنا نباؤهم الذميم، وتوجه فيهم الصنع الكريم، استخرنا الله تعالى على تمييز العساكر المنصورة، وتسريبها إليهم مع إخواننا وأشياخ الموحدين أعزهم الله فاتبعوهم مجدين واجتمعوا بالشيخ الأجلّ أبي حفص أعزه الله ومن هنالك من الموحدين أعانهم الله وعرفوا بمجرد متجدد حالهم، وما انكشف لهم من صور الأحوال في حلهم وارتحالهم، واستمدوا الأوامر التي عادة الله تعالى إسعاد مطيعها، وتوفيق المُسند إليها.

فأمروا بصدق لقاء العدو قصمه الله وأخذه على بركة الله الذي سبقت كلمته أن ينصر من ينصر دينه، ويبذل في مجاهدته إخلاصه ويقينه؛ فاستمروا في جد الاتباع على وجههم الميمون، ونصرهم المضمون، ودرجت أيامٌ قدر ما يوصل الطالب إلى المطلوب، ويتمحص بمكروه الكافر وهو غير المرغوب، إلى أن هتفت البشائر ماليئة الأسماع، طالعة من أحسن ثنايا الاطلاع.

وورد الفتح الجليل، والصنع الجميل، ووصل من أعيان الموحدين أعانهم الله من شهد اليوم الذي أُخذ فيه للإسلام بمليم النار، وعرف الكافر لمن عقبى الدار؛ معهم أعلامُ الروم المنكوسة فيما تماثيلهم وصلبانهم، وافتراؤهم على الله وطغيانهم، ورأسُ شيخهم الذميم وشيطانهم الرجيم، واتر أهل الايمان، وأشد الكفرة عتوا على الرحمن.

فذكر الواصلون أن الموحدين أعانهم الله اتبعوهم معدين، وأرهقوهم مشمرين في الركض مجدين، إلى آخر فحص هلال وقد طمع الأعداءُ بالنجاة؛ فتهيأ هنالكم اللحاق والإدراك، وتراءى الإيمان والإشراك؛ فرأى الكفرة من بأس الله الذي لا يُردّ، وجنده الذي لا يُصدّ، ما هالهم وراعهم، وأنساهم جلادهم ومصاعهم، وعلى ذلك فطمعوا في الدفاع، وارتفعوا إلى اليفاع، وحملوا حملات قاصرة، وكروا كرات

خاسرة، إلى أن زحفت عليهم الكلمة، وحاقت بهم النقمة، وأخذتهم السيوف المستلحمة، وانصبت عليهم الجيوش من كل جانب، ورأوا الحياة كأمس الذاهب؛ وأولياء الله وأنصار الحق أهل طاعة أمره قد هبت لهم رياح النصر، وطلعت عليهم شارقات الظفر، لم يُنَلْ منهم نَيْل، ولم يُقَمْ للكفرة في جانبهم مَيْل، إلى أن ولى أعداء الله الأدبار، وابتدروا الفرار، وحلوا عن غنائم كانوا استاقوها وأسارى من المسلمين غل الله أيديهم، عن قتلهم وكفاهم تعديهم.

وتمت على أعداء الله الهزيمة، والواقعة العظيمة، والتقطوا في بقية تلكم الآناء، وقُتلوا قتل العناء، حتى صمت حصاة بدم، ولم يكد يبقى بين القتلى محط قدم، واقتصوا كذلك تلفظهم الشواهق، وتُرديهم المهاوي وينم عليهم الليل وهو كاتم، ويلكم لهم الصبح وهو باسم، ولا تدمُّ عليهم غيطلةٌ ملتفة، ولا شجرةٌ محتفة، بل يقول الحجر: يا مؤمن هذا الكافر خلفي فاقتله، وإلى سواء الجحيم فاعتله؛ أينما ثقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلا، سنَّة الله التي قد خَلَتْ من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا. فالحمد لله على هذا الفتح العظيم خطره، الجليل قدره، الذي له ما يعده، وانساق ما ينجز الله وعده، حمدًا يبلغ رضاه، ويوجب زلفاه، ويمتري المزيد من نعماه.

وهذا الفتحُ وفقكم الله وأعانكم وإن كان عظيما في نفسه، عاليًا في جنسه، فإنه للفتوح الآزفة مفتاح، وبين يدي السعي فيها مصباح؛ وإنه رائدُ الفتوح المنتظرة، وعنوان الخيرات الميسرة، ونازلٌ من الفتوح الآتية بمحل الباكر من الثمرة، لما أُشرب فيه أولياءُ الله وأنصار الحق وجنود الأمر وحماة الإسلام وأحزابُ الدين من ريح الفتح وجدُّوا من عز الغلب، واستحلوا من مدامة النصر وتوطأ لهم من طريق الظفر الروم، وتذلل لهم من مركب الروم، إذ عرفوا ذوقهم، وساقوا سوقهم، ولم يبق لهم في نفوسهم قدر مقاومة ولا محلُّ مراقبة.

ولما خامر الرومُ قصمهم الله من الرعبة والروع وانفتح عليهم من أبواب الخطوب وتوجه إليهم من جنود الرعب، وباءوا به من ذل الغلب، وسوء المنقلب، وفقدوه من منكب الدفاع، وردء الامتناع، وفرسان الجلاد والمصاع، فإنهم بعد أولئك الهلكى المطرحين بمنزلة الرمح بعد السنان، والجسد بعد الجنان.

فهذا الفتح العظيم قد عظمت به النعمى وكثرت فيه العوائد، واستمرت منه في الحال والمال الفوائد، فوفوه حقه وأعطوه قسطه شكرا، ونشرا، وإشاعة، وإذاعة، يمتد مداها، ولا يبلغ أقصاها، والله تعالى يشفعه بأمثاله، ويردفه بمنهل الفتح ومثاله ويتولى توفيقكم لما يحبُّ ويرضاه، وعوْنكم لما يزلف لديه في أُخراه، بمنه. ويمنه.

obeikandl.com

الرسالة الثالثة والعشرون

وهي المعروفة برسالة الفصول. وإنها منسوبة في المجموع المنقول عنه إلى الوزير الأجل الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور كتبها عن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات[1]:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين ببجاية أدام الله كرامتهم ووصل صونهم وحمايتهم. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه؛ ونصلي على محمد نبيه ورسوله. والحمد لله على ما أمد به هذه الدعوة العظيمة، والكلمة العلية الكريمة، من الأضواء والأنوار، وقرن بعزائم أوليائها من الأخذ بحجز العباد من التهافت في النار، وأحكم بإيمانهم من معاهد الهدى التي من استمسك بها فقد فاز بعقبى الدار، وأبان بهم معالم السنَّة المستبينة الضوء الهادية المنار، التي من سلك جددها فقد أمن من العثار، ووقف هممهم لديه من مراعاة أمور الدين في النائي والداني من الأقطار.

نحمده حمْدَ من اهتدى إلى أنه الموجود المطلق الذي لا يتقيد بالأمكنة والأعصار، الواحد الفرد الصمد المنزه عن الشركاء والأنظار، المتعالي عن صِفات التخير والانتقال والعجز والافتقار، المحيط بجميع الموجودات إحاطة لا تحدها

(١) راجع كتاب أخبار المهدي للبيذق الذي أصدرناه سنة ١٩٢٨، ص١٣-١٧ و١٣٤-١٤٥.

حدة الأذهان. ولا تلقحها دقائق الأفكار، لا إله إلا هو لا تدركه الأبصار وهو يُدْرك الأبصار.

ونصلي على محمد نبيه المبتعث من أكرم نجار، والمؤيد بالمعجزات التي دحضت حُجج الكفار، وخرقت مستمر العادة للعلم أنها فعل الواحد القهار، وأنت على وفق الدعوى ليتبين بها صدقه على الأضرار، وحكمت في كل من لم يؤمن بها كل طريد الشبى ماضي الغرار؛ وعلى آله وصحبه السالكين في ذلك السنن والمجرين في ذلك المضمار.

ونواصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى لما ارتفع العلم بقبض العلماء الأخيار، وأُعجب كل ذي رأي برأيه من الصم البُكم الرغام الأغمار، وقامت خطباؤهم بأفانين التضليل وضروب الاغترار، وقلبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أخفى دين الله تعالى الذي تكفل له بالإظهار، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاج إلى إطالة في تعديده مع الوضوح والاشتهار، فجلى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظلم المشتدة الاعتكار، وأبان بمعجز علمه من العلم بالله تعالى ورُسُله وبما جاءت به رسُلُه ما كان في طي الخفاء والاستتار، وعلَّم طرق العلم بها التعليم الذي انتفع به أُولو التيقن والاستبصار، وضرح عن موارد الدين ما شملها من الشوائب والأكدار، وأمده بالطائفة المنصورة المفتوح لها بصريح الوحي وصحيح الأخبار، كلُّ دانٍ وشاسع من الأمصار، الوارثين علمه والعاملين به والمتصرفين له ليبقى أمره العظيم على الدوام والاستمرار، إلى قيام الساعة وانقضاء هذه الدار.

فإن كتابنا هذا إليكم -كتب الله لكم كل خير جزيل، وأعانكم على امتثال أوامر التنزيل، وجعلهم جارين على حكم الكتاب والسنَّة في الدقيق من الأمور والجليل-

من رباط الفتح عمره الله والطائفة المنصورة محفوفةٌ من حفظ الله وكلاءته، ومكنوفةٌ من صونه وحمايته، وممنوحةٌ من إظهاره وإعلائه، ومخصوصةٌ من إرقائه وإسمائه، وممدةٌ من إضاءة زندها وإيرائه، في تسنية مرامها وإسنائه، بما أنهضنا الله به إلى أحياء معالم السنة وإحكام أمراسها، وتثبيت أركان الدعوة على وثيق آساسها، وتطهير الأمة من أدرانها وأدناسها، وتعليمها كيف تستضيء بمشكاة الهداية وتعشو إلى نبراسها.

ليمشوا على السنن اللاحب، ويتقيدوا بالشرع المرتب الراتب، ويعملوا في أمر دينهم ودنياهم باللازم الواجب؛ فلا تلبسوا الهدى بالضلال، ولا يشوبون التحقيق بالإبطال، ولا يخلطون العمل بالرفض، ولا يبعضون الإيمان فيقولون: نُؤمن ببعض ونكفر ببعض، ليتخذوا بين الرشد والغي سبيلا، وليروموا في الصحيح الثابت تغييرًا وتبديلا، إلى أن تخلص قلوبهم من الرين، ويكون عندهم العلم والعمل متلازمين، والباطن والظاهر متطابقين، والقول والفعل متعارضين، ولا متنافيين؛ والله المعين على إكمال هذا المقصد وإتمامه، والمليء بائتلاف جميع الجهات والأكناف على ما يؤثره من اتصاله وانتظامه.

ولما كان هذا الأمر العظيم إنما جاء في حين الفترة، وشمول الحيرة، وارتفاع العلم وحلول الجهل، وانبساط الجور وانقباض العدل. وتملك الهمج الرعاع، واتباع الهوى المضل والشح المطاع، وقام به الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه عندما أزبد بحر الضلال وطمى، واعتلى سلطان الكفر واستمى، وتطاير شر الأشرار وارتمى، وتفرقت في أنواع الأباطيل الآراء، وغيرت معالم السنَّة البِدَعُ والأهواء، والدينُ أجنبيٌّ غريب، لا مناسب له ولا قريب، ولا داعي له ولا مُجيب، وقد قنع أهل الدنيا في معارفهم بمسود الصحائف، مسطور الزخارف، لإماتة

المعارف، وتطمين العوارف، وجر المطارف، في صون التالد وجلب الطارف، فبصَّر وعلَّم، وثقَّف وقوَّم، وأتقن وأحكم، ونوَّر ما أظلم، وأظهر ما استتر وأبهم، وأنجد في تعليم العلم وأتهم.

ثم أورثَ عِلْمَه طائفته فبثوه في البلاد، وأفاضوا نوره على العباد، طورًا باللين وطورًا بالاشتداد، وحالًا بالسياسة وحالًا بالجهاد، وآونةً بالمواعظ الحسنة وآونةً بالسيوف الحداد، إلى أن ألقى الناس يد الاستسلام، وأظهروا الإجابة إلى دعامة الإسلام؛ فممن آمن منهم بهذا الأمر العظيم عن علم ويقين، وإخلاص مستبين، فهو يتقيد بقيوده، ويقِفُ عند حدوده، ويجري على معروفه ومعهوده، ويبدو على ظواهره، ما أكنه في سرائره، ويلوح على أساريره، ما أسره في ضميره؛ ومن حجبه عن الإيمان به والإخلاص له حجاب، وحصل في نفسه من الذي جاء به لبسٌ وارتياب.

فهو باقٍ في أحواله على المذهب الذميم، وعاكفٌ في أعماله على الرسم القويم، وطائفٌ بين أطلاله لا يبرح ولا يريم، ويفتتن بما كان ألِفَه ويهيم، ويزيح في تلك المسارح ما أمكنه ويسيم، فتراهُ يتخطى الحدود ويتعداها، ويهمل الأوامر ولا يرعاها، ويغشى تلك المألوفات ولا يخشاها، ويساعد نفسه الأمارة بالسوءة ولا ينهاها، ويغفل مآلها فلا يخاف عقباها.

ومن كانت هذه حاله فهو ممن لم يؤمن بالله ولا رسوله ولا بما جاءت به الرسل، ولا بالإمام المهدي الذي قامت عليه البراهين واتضحت في أمره السُّبُل، بل هو مُتمادٍ على كفره وتجسيمه، غير منتفع بتقويمه، ولا مستبصر بتعليمه.

وبحكم بما ناطه الله تعالى بنا من أمور عباده، ووسده إلينا من نصر دينه

وإنجاده، وقلَّدنا إياه من الوقوف على حماية باطنه وظاهره في أغوار العالم وأنجاده، لم نزل نتعاهد أحوال الأنام، ونَصِل تصفحها على الليالي والأيام، ونقصد هذا المقصد بقوة واعتزام، ونأخذ في الكشف عنه بمواظبة والتزام، متبعين في العمل بالعلم أمر الإمام المعصوم الذي احتذى فيه حذو جده عليه السلام، راغبين إليه تعالى في إعظام الأجر وإجزال المثوبة على القيام بهذا المقام.

لكن الناس مع مواظبتهم بالتذكير، وملازمتهم بالتنبيه والتبصير، لم يتركوا تلك الأفعال التي رسخت في الصدور، والملكات التي استقرت في القلوب، والحالات التي انطوت على ألِفها إحناء الضلوع، وأبوا إلا ارتطامًا في الغي وارتباكا، وانكشافًا في طواعية الشهوات وانهماكا، وخلعًا لعذر النهي وانتهاكا، وإجراءً في مهامة البطالة واستبنانا، وتخليفًا في جو الغواية وطيرانا، وإغفالًا لما أحدق بهم من أمر الله تعالى ونسيانا.

فنهضنا إلى معاهدة التفقد بعزمٍ قُرِعت له الظنابيب، وجُري فيه إلى مد القصر عن شأوه الجرد السراجيب، وجعلناه تعاهدًا عامًّا في البعد والقرب، ونظرًا شاملًا ينتظم حاشيتي الشرق والغرب، لتأخذ الجهات حقها من الضبط، وتتزن الجنبات بميزان العدل والقسط، وتستقيم البرية على قانون الانتظام والربط، فتكون العهود محفوظة، وسطوات الله تعالى بُمخالفي أمره لمراقبة ملحوظة.

وأبتدئ بأول مباني الإسلام فآخُذُ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبت عملٌ دون تأصيلها، والرابطة التي لا يقبل دينٌ دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يمتسك بسببه، وقد بُني وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد وبقي ما سواه، بتقييدات في الشريعة لا يكفي معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه؛ وذلك أن يعلم على وجهه

وحده، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وأن يقوله مع العمل، ولا ينكل.

ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرءوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويفصوه، ويلازموا قراءته ويتعهدوه. ويؤمر طلبةُ الحضر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر، ويُلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها: «اعلمْ أرشدنا الله وإياك» وحفظها وتفهمها.

وأشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصحُّ لهم عملٌ ولا يقبل منهم قولٌ دون معرفة التوحيد؛ فمن لم يعرف المرسِل لم يصدق بالمرسَل ولا بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة، فقد تعثر في أذيال الضلالة؛ فإن لم يبادر إلى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها، فقد وجب عليهم حكم الكتاب ولا عَنَتَ في إراقة دَمِه لا محالة.

وآخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوف على المؤمنين، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين؛ ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فهو ممحوٌّ من ديوان المؤمنين؛ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين، وتاركها ميتٌ في عداد الأحياء؛ لخشاشة تقضى عند انقضاء أمد الأمهال والإملاء. فخذوا من قِبَلكم بإقامة الصلاة على ما شرعَتْ، وأدائها بحسب ما فرضت؛ وخُذوا العوام ومن في الديار بحفظ أم القرآن وسورةٍ معها وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم؛ ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليه منها فأجله للحين مُتاحٌ وقتلُه بحكم الكتاب والسنَّة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن معانيها وتشخيص ممسكيها أو النزر اليسير منها؛ فالزكاة حق المال والجهاد وواجبٌ على من منع منها قدر العقال؛ فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحقٌ بمن ثبت تركه للصلاة؛ فمن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها؛ ومن منع عقالًا فما فوقه كمن منع الشرع كله.

وآمُرُ بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومُدمني شربها ومستعمليها؛ فيُراق مُسكرها، ويقطع مُنكرها؛ وليُعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامدا، وشربه مدمنًا عليه ومُعاهدا، ولم ترعه الحدود، ولم تقيده القيود، ولم يعظه الاعتبار، ولم ينفعه الادكار؛ فيُمحى أثره، ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر وجماعُ الإثم وكاسفة شمس العقل، والبلاغةُ على كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مرتج من أبواب العصيان، وهي رجسٌ من أعمال الشيطان.

وآمُرُ بالكشف عن التلصص والجراية، والتولجُّ في مكان من الريب والغواية، والاجتماع على السيَر الجاهلية من الملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة والأفعال المنافية للشريعة الصادرة على أهل الزراعة والضلالة من الرجال المفسدين، والغواة المضلين، ومن النساء المفسدات، المتفننات في طرق الغوايات؛ فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيروهم عن مكامنهم، ونقبوا عليهم في مظانهم؛ فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله، وتماديه على الإحضار في محل باطله ومحاله، فيحكم كتابُ الله جل اسمه عليه، وتطاع سنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم فيه.

ولْيكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قِبَلَهم، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتقاعس والإخلاد، والتثبط الذين إذا دعوا إلى الجهاد، ونُودوا إلى

الصلاح والرشاد، صمُّوا عن النداء، وتلوموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعرّبة عن العناد، والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد؛ وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر؛ وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون، والقائلين ما لا يفعلون. فإذا تعينوا على التحقيق فاليُمْض عليهم حُكمُ الله تعالى الذي أمر به فيهم.

وقد أنفذنا إليكم وفق الله مقاصدكم، وعم بالتقوى معاهدكم، نسخة من كتابٍ كريم، صَدَرَ عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه مشتمل على جوامع الكلم، ومُنْطقٍ على رواتع الحكم، لم يغادر في المعنى الذي تضمنه مُتردما، ولم يُوجِد متأخرًا عن الوقوف دون مقتضاه ولا متقدما، ولم يُوسع متربصا في البدار ولا متلوما، فيه الملاذُ والمعاد، وعليه الاعتماد والاستناد، وإليه المرجع، والمفزع، وأنتم تقفون منه على حكم الله تعالى في القوم الذين ذكرهم ممن لا دين له ولا أمانة ولا عهد ولا ميثاق، المدعين للحق بالأقوال، مع التمادي على التضييع بالأفعال، وإظهار الاستماع والقبول في الظاهر، واتباع الجهل والهوى في الباطن.

وتعملون ما جعل العمل عليه في أعداء الدين والعلم وما حكم به فيهم؛ ولا معدل لنا عن حكم سر البيت المتلو فيه آيات الله والحكمة، المستخرج الحكم من مشكاة النبوة ومرآة العظمة، الذي انتظم به الأمر على سنن الهدى، واستقام على نهج التقوى؛ فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو كابره أو عصاه أو ناواه أو جهله وأهمل أمره، فقد حاق به الردى؛ فالانقياد لما يقضي به واجبٌ والاستمساك بأمره حتمٌ، والرجوع إليه في أمر الدين والدنيا فرضٌ لأن قضاءه وأمره هو قضاءُ ربه وأمرُه وإرادتُه وحكمه، وقد حكم رضي الله عنه هذا الحكم فيمن هاجر إليه أول الأمر

وأتاه عند طمو البحر، واتصل به في سلطان الهرج ونزع إليه عند الابتلاء والمحنة، واضطرام نار الفتنة، لما أنس منهم النفاق وعلم فيهم فساد الباطن وشهد منهم مكابدة الدين، والدخول فيها من غير يقين، وفتح باب جهادهم ومحو آثارهم وجعله أهم وأولى من جهاد الكفرة المُجسمين.

فكيف فيمن أتى بأخرة عند استواء شمس الهدى على الآفاق، وإخفائها خيالات أهل العتو والاستكبار والمرود على الرفاق، ممن جاء مخافة البيض الرقاق، وأتى عند بلوغ النفس إلى التراق، وخاف من يوم عصيب يكشف فيه عن ساق، فحينئذ أصحب في القياد وأذعن في المساق، وفيهم من ليس عقده على الصحة والوثاق، ولا أفعاله مرضية المقصد ولا جارية على الوفاق؛ فإمضاءُ هذا الحكم فيهم، بعد تحقق تلك الأوصاف عليهم، أُدخل في باب الوجوب والاستحقاق.

وإن هذا الأمر العظيم، وإن كان أوسع الأيام عطفا، وأنالهم رفقًا ولطفا، لا يصل من أوجب الدين قطيعته، ولا يحفظ من رتب الحق إذالته، ولا يرخي في الطول لمن استن في رعي حمى السُّنن، ولا يستمرُّ على المهل لمن زاغ عن النهج والسنن؛ فتأملوا ما اشتمل عليه كتابُ الإمام المعصوم رضي الله عنه الذي هو هدًى وتبيان، ونورٌ وبرهان، واهتدوا بهدي من الهداية مخصوصة، واعتصموا بحبل من العصمة عليه منقولة منصوصة؛ فلا مطمع في الهداية إلا منه، ولا وجه لأخذ العلم ومعرفة الحقيقة إلا عنه ومن لدنه.

وها نحن نقصد قصده ونتحداه، ونجاهد على إمضاء ما انطوى عليه معناه؛ وعلى هذا الحكم مضى العمل في المواضع التي نحن بصددٍ منها بعد أن مُيزوا بمثواهم، وعُرف المجرمون بسيماهم، وتبين كلّ منهم بما احتقب، وشُهد عليه بما اقترف وبما ارتكب؛ وقد فضح الله تعالى منهم جماعةً تعينوا بصحيح الأعلام،

فأُخذوا بالنواصي والأقدام، وجرعوا مصقر كأس الحمام، بشبى الذوابل وجدّ الحسام، وصيروا عبرة لأولي الاجتراء على ارتكاب المحارم والإقدام.

فامضوا وفقكم الله في أقطاركم على هذا النظام، واحكموا في هذه الأصناف بمثل هذه الأحكام، واحْذوا حذو هذه الأفعال في طحر القذى عن طرف الإسلام؛ فمن تحقق عندكم بترك الصلاة، ومنع الزكاة، وإتيان المحرمات، والانهمال في المحظورات، من المفسدين والمفسدات، واستصحاب تلك الأحوال المقررات، أو واحدةٍ من الأفعال المشروحة المبينات، من غير أخذٍ لهم بقوْل ذي هوىً وغرض، ولا بشهادة يتعرض فيها من الظنة أدنى عرض، فإذا صح التبيين، وصدق التعيين، فليؤخذوا بما احتقبوا، ولْيُسألوا بما كسبوا، وليقابلوا عن فعالهم مقابلة من لا تصرفه عن الحق الصوارف، ولا تعطفه عن امتثال أمر الله العواطف، بل يمضي في إمضاء الحق بأشد العزائم، وليعمل فيه عمل من لا يتقي في الله لومة لائم، إلى أن يستمر أمر الله تعالى على إذلاله، ويبدو مُحيًّا الحق سافرًا عن جماله، ويستقيم البشر على الجدد المهيع، ولا يعدلون عن سُبُل الاستقامة على الصراط الشوى في المرعى والمشرع، والمقصد والمنزع، بعون الله تعالى.

ولْتقدموا طلبة أُمناء من قِبَلكم يعلّمون الناس قراءة توحيدهم وحفظه وحفظ أم القرآن وما تيسر معها من السور، ويأخذونهم بمداومة ذلك ومعاهدته وحفظه؛ ولْيكونوا من الذين يراقبون ويحافظون، ولا يراعون في حقوق الله تعالى ولا يداهنون. واحْذروا المداهنة وحَذّروها فإنها صارفة عن الحق، مزيغةٌ عن نهج الصدق.

وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه، وتقدمونه في هذا المقصد وتؤخرونه، جاريًا على حكم الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه مستندًا إليه ففعله هو الذي

نقتدي به، ونستمسك بسببه، ونمضيه على وجهه، ونجريه على رسمه، فلا نجاة إلا اتباعه ولا أمنة إلا في الامتساك بأقواله وأفعاله أعانكم الله على ما تقصدونه من ذلك وتتحرونه، ووفقكم فيما تأتونه من ذلك وتتولونه، فذلك بيده.

ولْيكن في هذه الأصناف القوم الذين يكسرون الدعوة ولا ينقادون إلى ما يجب عليهم من الحكم، والقبائل التي تعادي عن نصح لهذا الأمر العظيم، ووقف في إستخراج حقوق الله وأبان خبايا أهل التلبيس حتى إنهم ينصبون لهم المكايد. ولْيُمض عليهم هذا الحكم فهُمْ أعداءُ الله ورسوله. ولْيكن هذا القصد عامًّا شاملًا منتظمًا للحاضر والبادي، والنائي والداني، من الذكور والإناث والأحرار والعبيد وسائر أصناف الناس لا يختصُّ قومًا دون قوم ولا جهةً دون أخرى. والله تعالى يوفقكم، ويتولى بمنه عونكم.

وكُتب في الثالث من ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الرابعة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش المذكور:

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد ابن سيدنا أمير المؤمنين، والشيخ الأجلّ أبي سعيد يخْلُف بن الحسن أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونرضي عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، نجله المرتضى وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله.

وإنا كتبناه إليكم -أعزكم الله بتقواه، وأجزل حظكم من حسناه، ووصل لكم الأنجاد إلى طاعته والعمل بما يقرب منه ويزلف لديه بمنه- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نشكره على آلائه ونعمه، ونستنجزه ما وعد الشاكرين من قواعد إحسانه وفضله.

وقد كنا -أعزكم الله- على عزم الحركة مع الموحدين أعانهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة آخذهم الله والتصميم في غزوهم، والنهوض إليهم على الثقة بما عند الله لهذا الأمر العزيز من مضمون النصر ومذخور الظهور على من غمص حقه وكفر نعمته وصد عن سبيله. وخلصنا في ذلك النية المجردة لإقامة الله

المقصورة على جهاد عدوه وحماية دينه وتظهير دعوته. ثم وقع الاتفاق بعد إفاضة المذاكرة وإدارتها، وثبات العزيمة منا على مشاهدة هذه الحركة المباركة أن يخرج فيها الموحدون بجملتهم صحبة أشياخهم وحُفاظهم وأجمعوا على ذلك؛ فاستُخير الله تعالى عليه وأُنفذ حسبما اتفق عليه.

فنفذوا توجههم الميمون يوم السبت السابع من الشهر المؤرخ به يمن الله مسعاهم، وكتب ممشاهم، وظفر مقصدهم في تعمير سبل الجهاد ومغزاهم، ومكنهم على أفضل ما عوّد من نواصي عداهم، بمنه.

وقد كان أشياخُ طلبة الموحدين أعزهم الله قبل هذا تذاكروا في مشي أخينا إسماعيل وفقه الله إلى إشبيلية حرسها الله صحبة عسكرٍ من الموحدين والعرب وفرهم الله ليكونوا بها مقيمين مع إقامته، ويتقيدون بتقيده ومكثه، ويجدُ لذلك أهل إشبيلية وجهاتها من الأنس ما تطمئن به نفوسهم، وتقر عليه قلوبهم، وتنعم به جنباتهم، وينكف عنهم من إضرار العدو وهجومه على ما اعتاد من البغت والفجاءة ما يرتفع عنهم روعه وتنقطع عنهم عادته، ويكون بحضور هذا العسكر عندهم وملازمته إياهم ما يتعجل معه الغوث إن أُحتيج إلى ذلك. وتذاكر أشياخ الموحدين بهذا واتفقوا عليه ورغبوا في إمضائه ورأوا فيه من الخير والتعاون على مصالح هذا الأمر ما وقع عزمهم عليه. فاستُخير الله تعالى على ذلك وأُمضي.

وكُنا على إنفاذه حين وقوع المذاكرة، فأزف شهرُ الصوم فأرجأناه إلى انقضائه تخفيفًا على المسافرين ورفقًا بهم؛ فحين انقضى -قبله الله منا ومنكم- أتى التعويل على ذلك. ونحن إن شاء الله ننفذه إثر هذه المكاتبة بالعسكر المذكور من الموحدين والعرب عرَّف الله بركة ذلك وأطلع على ثمرة المقصود منه والمُنَوَّة فيه.

وأعلمناكم بذلك لسروركم به، ومكانتكم بقربه ووجودكم إلى العون منه على أمركم، والتظافر على عدوكم، وصل الله لكم أسباب العون ونظم بكم ولكم معاقد الصلاح، وأعاد عليكم بركة سيدنا أمير المؤمنين في كل الأحوال دينًا ودُنيا وآخرة وأولا، بمنه ويمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

obeikandl.com

الرسالة الخامسة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد أمده الله بتوفيقه، وأعزه بطاعته وتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على سيدنا محمد نبيه ورسوله. والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة، وعصمة المحيا والممات، دُعاة يأخذون بالحجز عن النار؛ ويقيمون لمن أضل السبيل، وعدم الدليل، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح، ومنهجه اللائح، أهدى عَلَم وأرفع منار؛ ويتقدمون في إبلاغ حجته، وإيضاح نجحته، ببوالغ الإنذار والإعذار؛ ويصرفون بما أودعوا من سره المكنون، لبثه في الظهور والبطون، والسهول والحزون، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار؛ الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضي بهذه الخليقة، من ركوب هذه الطريقة، إلى سعادة هذه الدار، وسعادة تلك الدار.

وصلى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار، ولبابة الاجتباء والاختيار، المخبوء بمعدن بيته الأشرف، ونسبه الأشهر الأعرف، سرُّ هذا النبأ السيَّار، وارث ذلك المقام الذي هبت تباشيره بأسماع ذوي الإضاحة لمواقع الاستبشار؛ ورضي الله عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله على أوفى الاعتضاد بتأييد الله وأتم الاستظهار، الماضي قُدْمًا في التصميم، وإنفاذ العريم، على

أمر طَلْق وأبعد مضمار، المُعان في ما دعا إليه ونبه عليه بالبصمة التي لا تضره معها إباءةُ أُباء ولا كفرُ كُفار؛ وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز على مآله من المراسم المحفوظة والآثار، ومقيمه على حدوده المكلوءة الملحوظة دون ونية ولا إقصار، والناصر له بكل معنى تتوجه إليه دعاية الاستبصار.

وإنا كتبناه إليكم -أمدكم الله بتوفيقه- من حضرة مراكش حرسها الله، ونحن نشكر الله تعالى عودًا بعد بدءٍ وشفعًا بعد وتر، وتعذيرًا بما لا يحصى أمدًا، ولا يكاثر عددا، إلى أقصى ما يزلف عنده، ويحضر لديه، ويبلغ غاية رضاه، على ما ظاهر من نعمته ووالى من إحسانه، وأرسل من شآبيب فضله، وأوسع من مِنَنه المعرفة والهداية إلى توحيده والتوحيد إلى الإيمان به، والقيام بحق الدعاء إليه، والتمسك بشريعة رسوله الذي هو الدين القيّم، والمنهاج البين، والفسطاط المضروب، والعَلَم المنصوب، ومعنى الوجود ونشره، وشرفه المقصود وفخره، الذي اختاره الله أمينًا لتبليغه، قويًّا على أدائه، مضطلعًا بحمله، جليًّا بتبيينه، حافظًا لأمانته، مصطفاه من عباده، ومختاره من بريته، عين اجتبائه، ونكتة اختصاصه، محمد نبيه صلى الله عليه وسلم.

فبعثه به على فترة من الرسل، وتراخٍ من الزمن، وتشعب من الأهواء، وتباين من الآراء، وخبط من العشواء، وتحكم من الجهالة، وعموم من الضلالة؛ وكل حزب بما لديهم فرحون، لا مرشد يُهتدى بمناره، ولا موقد يُعشى إلى ضوء ناره، ولا دليل يُقتفى مواضع آثاره؛ فقام صلى الله عليه وسلم مؤيدًا بالبراهين القاطعة، والدلائل الباهرة الساطعة، والمعجزات الناظمة لآيات صدقه الجامعة؛ فصدع بالحق، ونطق بالصدق، وجدع أنف الكفر، وحطم كاهل الشرك وأفصح بالعلانية، وصرح بالربوبية، وبين للناس ما نزل إليه، فأدى من الوحي ما ألقي عليه، واستنقذ

من الغمى، وافتك من قيود الجهالة الجهلى، وحمل على الواضحة البيضاء، وأوضح بهدايته السُّبُل، واستسهل في تبليغ أمانته ما شق وثقل، وختم برسالته ونبوءته الأنبياء والرسل، وأوضح من أمر الله ما استحفظه واستودعه، وأنهاه إلى أقصاه كما وعاه وجمعه، وما زالت في ذلك كله كلاءة الله الواقية وعصمته الباقية معه. وأخبر صلى الله عليه وسلم بأنباء من الغيب، فرئت بمشاهدة ما بشر منها وأنذر من خوالج الشك والريب.

وأنبأ أن هذا الدين بعد كماله، واستواء نهضته المؤيدة واستقلاله، والتوفيق التام على مشروع حرامه وحلاله، سيعتوره التغيير والتبديل، ويلحقه بعد صحابته رضوان الله عليهم التحريف والتحويل، بما ينشأ فيه على ما أعلم بوصفه، وحدَّث عن كنهه، من نواشئ البِدَع وطوارئ المحدثات، وقلب الأمور وعكس الحقائق وطمس آثار الحق باتباع الأهواء وإيثار الشهوات، وعبادة الأطماع والانقياد إلى بواعث النفوس الأمارة بالسوء المتهافتة على الحطام، المشغوفة بالزخرف، الناظرة بالعور العوراء إلى دار الغرور.

وأن تمكُّنَ هذا الفساد، واستعجال هذا الداء بالأيمة المُضلين، الذين مرقوا عن الدين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، وأن العلم عند ذلك يرتفع، والجهل يعمُّ، والظلم يشمل، وأن الدين يعود غريبا كما بدأ غريبا، وأن عودته بظهور المنبأ به والمخبر عنه، المصطفى من بيته، المختار من نسبه، المؤمل لإحياء سنّته، الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه الذي بشَّر صلى الله عليه وسلم بعلاماته، وأخبر عن أماراته، الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل، المتبع غير مُخْطئ لأثره، المقتدي به عليه السلام في مورده ومصدره.

فجاء رضي الله عنه على موافقة ما أخبر، ومشاكلة ما أنبأ، قائما في آخر الزمان

وعند شمول الضلالة وتلدُّد الحيرة وتموج الفتنة وارتفاع العلم، واستحكام الجهل وفشو الظلم، فظهر به رضي الله عنه لما خصه الله من الهداية وعلَّمه من الحكمة، وأحلَّه من مقام العصمة، ونواه من معقل الإمامة، وخرق له من العادات، وأجرى على يديه من الآيات، ما صدَّق ما نطقت به الآثار، وتضمنته الأخبار، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة، ومنحها الثلج، وأراها عين اليقين من ظهور العلم وانبثاث العدل، والصدوع بالحق والجهاد لأهل الباطل، والقتال على أمر الله والنصرة الظاهرة، والغلبة القاهرة، على الاستمرار الدائم، والعمل المتصل القائم، دائمًا به أمره ما دامَتِ السموات والأرض، قائمةٌ به دعوته كما وعد إلى قيام الساعة.

قد حفظ الله مقامه وأمدَّه بخليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين الذي مد أطنابه، ومكن أسبابه، وأفاض أنواره، ومشى مناجهه الكريمة وآثاره، وقام بحق التبيين لأمره والإذاعة لدعوته، وحمل العباد على سبيله وإيداع القلوب علمه الذي ورثه رضي الله عنه واستحقه حصيصًا منه، وواصل تمشيته، وتضمن بما أيده الله من التأييد تنميته.

فهو والحمد لله محفوظ الجنائب، مكلوء النواحي، معصوم الأرجاء، موعودٌ بما أراد الله من إكماله وإتمام نوره بالنصر الذي لا يتوقف عنه في حال، ولا يتخطأه في حين؛ قد تولى من العناية به والكفالة بما قضى له بالاستغناء، وحُكم له بالعزة والاعتلاء، آياته بذلك مشهورة، وآثاره معلومة مأثورة، ومقاماته مشهودة محضورة، وأيامه في صحائف الذكر الباقي مكتوبة مسطورة، ولا مستقرَّ في أنه الحق لشبهة ولا جهالة، ولا موقف لحيرة ولا ضلالة؛ ولا مطمح لناظر، ولا مسرح لخاطر، إلا تحت هداية بينة ودلالة، ولا يزال النصرُ له يستتب، والتأييد يطرد ولا يغب، باتباع سُبُله

وانتحاء طُرُقه والوفاء بعهوده، والوقوف عند رسومه وحدوده.

وإنا وصل الله توفيقكم بما له علينا من هذه العهدة اللازمة والأمانة المتقلدة والحياطة التي حملناها، والرعاية التي كفلناها، والتي نسأل الله جل جلاله عونًا على القيام بها والنهوض بأعبائها والبلوغ إلى رضا الله عنا في أداء الأمانة فيها ندعوكم برعاية الله إلى هذا الأمر العظيم، ونُهيبُ بكم إلى السلوك لطريقه الواضح المستقيم، وإلى الأخذ منه الحظ الوافر المستديم، وأن تكونوا صدرًا في حزبه، حائزين شرف المجلس من شعبه، وأن تنظروه بعين الاعتبار، وتتأملوه تأمل ذوي الاستبصار، وتجردوا تفكركم في آثار هديه ومدارج سننه ومرامي مقاصده وجملة ما يدعو إليه ويحمل عليه مما هو طريقٌ إلى النجاة وسُلَّمٌ إلى الفوز وسببٌ إلى سعادة الأبد، ومنال النعيم السرمد. فسيقضي بكم ذلك إلى التحقيق ووازن الأمور بميزان العدل، وسبْرِها بمعيار العقل، والقضاء عليها بمشاهدة الحسن إلى معرفة ما أردناه لكم من الخير، وبذلناه لكم من النصح، وأملناه لكم من توفر قسطكم في هذا الأمر واستفراه نصيبكم من هذه الدعوة التي لا إيمان لمن لم يؤمن بها، ولا دين لمن لم يدِنْ مصدقًا بها، ولا عهد لمن لم يستدم بها، ولا مستند لمن لم يستند إليها.

وإن من أعرض عنها أو شك فيها ولم يتقلدها، ولا استمسك بعصمة وطاعة منها، فقد رد ما نطق به الوحيُ وكذَّب بما جاءت به الرسل، ولم ينفعه عند الله أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

وإذا وفقكم الله للتعلق والتوثق بعراها، وخرقتم بنفوذ البصر والبصيرة حجب القواطع، وكشفتم مغديات الشواغل، طالعتم منها ما يرضيكم دينًا ودنيا، وشارفتم ما يقربكم إلى الله زلفا، وخلصتم إلى ما يحفظ لكم المنزلة السامية، والرتبة الزاكية النامية، في الأولى والأخرى، وكنتم في أعوان هذا الأمر وأنصاره، وعدد أشياعه

وأوليائه، وتسربلتُمْ بثوب العزة بالإيمان، وأخذتم بعصمة أمانة العصمة التامة من كل حدثان، ورضيتم لأنفسكم بموالاة من تولى الله ورسوله، ولم يرض متولى دونه.

وإنه -أعزكم الله- ليربأ بمن كان له إدراك يفصل به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، ويفرّق به بين المتضادات، ويميز به بين المتنافيات، أن يميل عن الأولى، ويفرج عن الأحق الأحذى، ويفرض عما تبدى له من الحق معترضًا في أحسن المناظر وتجلى، وما أحق من قرعت سمعه الذكرى أن يقول أهلا؛ النور جلي، والسراط مولي، والكل بأتباعه لئلا تتفرق به السبل خليقٌ جري؛ فكونوا ممن أخذ لنفسه من نفسه، وأثار ليومه من أمسه، وانتفع بأعمال ظنه في مكاشفة العواقب وحدسه.

وإذا أرسلتم أرشية أفكاركم، في قلب أذكاركم، وأطلقتم أعِنَّة اعتباركم، في ميادين ما مر على أبصاركم، تجِدون أن من شغل نفسه بمكابدة هذا الأمر ومكابدته، وقطع مسافة عمره بمخالفته ومعاندته، قد خاب مكدحه وأخفق مسعاه، ولم يُجْلَ بطائل، ولا حظي بنائل؛ فإما صريع حتوف، طعنًا بالرماح وقعصًا تحت ظلال السيوف، وإما أخيذ حسرة وأسف، ووقيذ زفرة ولهف، قد قطعت عنقه المطامع، وتلاعبت به حياته اليلامع واليرامع؛ وإن وراء ذينك يومًا عصيبا، وهولًا يجعل الولدان شيبا، وإن من غلب على دينه، وافتلت عن إيمانه، وحجب عن ربه، لغبين الصفقة، خاسرُ المتجر، وقلما سمحت بذلك نفسٌ تبينت الغيَ من الرشد، وعرفت الجور من القصد.

وقد كان سيدنا أمير المؤمنين أيد الله أمرهم في القديم ومنذ زمن طويل، خاطبكم بهذه الدعوة وحملكم فيها على منهج النصيحة، ولم يكن بلغ الكتاب أجله، ونحن لأوامره العلية مراعون، وللمدعاة إلى دعاكم إليها داعون، ولرأيه الجميل في

هداية الخلق مشيعون مشايعون. فاقبلوها نصيحةً تحرز لكم حظ السناء، وتوجب لكم رتبة الخاصة من الأولياء وتقتضي منكم في خير عمركم أفضل المناب في معونة هذا الأمر وأحسن الغناء، وتجمع عليكم بهذا التلافي الفائت في تلك الأوقات الماضية والأناء، وتكونوا على هذه الرتبة كمن أجاب في أول النداء. والله تعالى يُعينكم على تقبل هذه الوصايا ومقابلتها بأحسن التلقي وأنفع الالتفات، ويجعلكم ممن تنبه للعظات، وادَّكر بالآيات، بمنه.

خاطبناكم بهذه المخاطبة دعاءً إلى الله، وإرشادًا إليه، وتعريفًا بما لا يسع جهله من الفيئة إلى أمره، والبدار إلى ما يجب من طاعته، والاعتلاق بحبله، والاستعصام بدينه. وما أطلعناكم إلا على ذخيرة نصح ونخيلة ذكر، لا مقصد لها إلا الوفاءُ بعهد الله وميثاقه الذي واثق به ومحض النية في صلاح الأمة وحملها على الجادة وصيورها إلى رضا الله وقبوله. والله ينفع من ذلك بما أُريد له وقصد به.

وقد كان الشيخ الأجلُّ أبو حفص أعزه الله تحرك في هذه السنة بعساكر الموحدين أعانهم الله إلى الجزيرة الأندلسية حماها الله بنية الجهاد والغزو؛ فخاطبناه بما رأيناه من هذه المخاطبة إليكم أن يتنكب ذلك الجانب، ولأن لا يعرضه بقصده وأن يتجلى عنه إلى سواه ريثما يصل كتابكم، ويستعلم ما عندكم، من إجابة الدعاء والتلفت إليه؛ فيكون بدار الجواب على حكم ذلك. والله يحملكم على ما تتعرفون بركته، تجتنون عاجلًا وآجلًا ثمرته، وتحمدون مآله بالاستبصار في أمر الله وبغيته. فذلك بيده، لا رب سواه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب بعد صلاة الجمعة من أول يوم من رمضان المعظم سنة أربع وستين وخمسمائة.

الرسالة السادسة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة أدام الله كرامتهم بتقواه، وأطلع عليهم وفود بشراه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله، والحمد لله الذي جعل الأمر العزيز عقبى الدار، وشرف الإيراد والإصدار، وأيده من نصره وجنده، ومعونته وعضده، بما يضمن له عادة الأعداء والإظهار، ويبوئه مبوأ الصدق من الاستيلاء والغلبة والاقتهار، وختم لهذه الطائفة المباركة بأنهم المنصورون والمصيبون والمفتوح لهم وعدًا يتمشى لهم انتجازه مع اتصال الأعصار، وتظهر آيات الله فيه لائحة لذوي الأبصار والاستبصار، حتى ينقاد في زمامه مصحبًا ذو الشراد والنفار، ويأوي إلى ذراه الأمين، وربوته ذات القرار والعين، الصعب الجامع في طلق الإباية والاستكبار، ويدخل في الله مبادرًا إلى رحماه من لم يكن تُرجى منه إنابة البدار؛ فتلتقى على الشهادة بأنه أمر الله ألسنة الناطقين بالإقرار، وأحوال الصامتين التي هي أدل الدلالات عند ذوي اليقين والأسماع والأبصار.

والصلاة على نبيه المصطفى محمد الصادق الأمين المختار، المبتعث إلى الأحمر والأسود آخذًا بحجرهم عن النار، المبشر بأن مُلْكَ أُمته يبلغ ما زوي له من مشارق الأرض ومغاربها من الأنجاد والأغوار، وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين الأبرار،

الذين كان لهم في تعزيزه وتوقيره ونصره وإقامة أمره أزكى الأثر والآثار؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله مجاهدًا أهل الإعراض عنه والأدبار، المحيي سنة الله تعالى وقد أماتها أهل الجهل والجحد والإنكار، الداعي إلى الله على بصيرة مؤيدة بأوضح الأنوار، المالئ الأرض قسطًا وعدلًا وقد ألحد فيها أهل الكفر والإصرار.

وعن صاحبه وخليفته المنصور الناصر لدين الله سيدنا أمير المؤمنين مؤازره في القيام بأمر الله عند عدم المؤازرين له والأنصار، ومُبَلِّغ دعوته العالية إلى منتهى أمدها من الانبساط على البسيطة والانتشار، ووارث مقامه العظيم المخلد شرفه عاليًا باقيًا حتى يرث الله أكْلأ الأعمار.

وكتابنا إليكم -كتب الله لكم من أقسام السعادة، والبشائر المعادة، ما يخلص إلى قلوبكم بطيب مسراه ويحيكم وافده بما يحييكم به الله- من حضرة تونس حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه والشكر له سبحانه أولًا وآخرًا على ما أولى أولياء أمره من معونة نهجت لهم في جميع محاولاتهم السبيل، وعرفتهم فيها البركة والتسهيل، والخيرة التي جمعت لهم النجاح الميسر الجميل، والصنع الذي خرق العوائد وجاز الأمنية والتأميل، والله سبحانه يوزعنا أن نشكر فضله الجزيل، ويلهمنا من محامده الجامع البليغ الحفيل، بمنه.

وقد انتهى إليكم وفقكم الله ما سنى في هذه الوجهة الميمونة من الأمور الشريفة الفتوح الجليلة التي جاوزت مدى الأفهام، وفاقت بمبالغ الظنون والأوهام، وقامت أزكى شهيد على مراد الله في هذه الدعوة العزيزة التي هي نظام الإسلام، والحافظة شمل الخيرات على الأنام، والسامية في مراقي شرفها مدى الليالي والأيام، حتى تبلغ الأمة برحمة الله سبحانه إلى دار السلام.

وأعلمناكم أيضًا وفقكم الله بما كان من صرف الموحدين أعزهم الله إلى هذه الجهات الساحلية بعد الغزوة المباركة التي أعلى الله بها منار الإسلام والإيمان، وأخزى أهل الشقاق والنفاق والطغيان، حرصًا على إزاحة نفوس أهل التوحيد من مشقات احتملوها في طاعة الرحمن، وإجمامًا للسيوف حتى تتبين مواقعها من رءوس أهل المرود والعصيان.

وخلال ذلك جُمع أشياخُ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكُبرائهم من جميع قبائل رياح وفقهم الله فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومننه الجسام، ونُبهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أول الإسلام، وأن الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أن تملك العرب كما بشر به المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وحُرضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام، وعُرِّفوا أن الغرض فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس مهدها الله فقد طال استشراؤهم، وأملى الله لهم فزاد عليه اجتراؤهم؛ ونُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم، نفرة من أنبت عن الوطن، ونبذ علق المسكن والسكن؛ وإن كانت هذه البلاد هي التربة التي مست أولًا جلودهم، وقضوا فيها من الشباب عهودهم.

فالذي ينتقلون إليه من الرباط في سبيل الله يجمع لهم الخير في الدين والدنيا، والشرف بالكونْ في عداد كلمة الله العليا؛ وبُيّن لهم أنهم إذا استقبلوا هذا الغزو السعيد، والغرض الحميد، بنيات متجردة، وعزائم فيه متجددة، ونفروا إليه بجملتهم من غير استثناء، واستصحبوا معهم من تتعلق به الخواطر من أهل وأبناء ونَعَم وشاء، وجعلوا ذلك كله وراءهم حيث ما يُرسم لهم من بلاد الأندلس مهدها الله ثم صمدوا لعدوهم، وتفرغوا لرواحهم في سبيل الله وغدوهم، كانت خواطرهم

لغزو أعدائهم أفرغ، ومصاعهم لأقرانهم أصدق ووطأتهم على أهل الشرك أثقل، وطيرانهم لكل هيعة يسمعون أسرع، وإقدامهم في كل موطن يقظ للكفار أثبت.

وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم، وخلصت إلى نفوسهم، وتقلقلت في بواطنهم؛ فتحركت إلى ذلك حفائظهم، وثارت لنصر دين الله عزائمهم، وسعت بهم إلى هذا القصد الميمون نياتهم وخواطرهم، وتلقى جميعهم ذلك من البدار إليه، والسرور به، والوعد بالتشمير فيه، بما يُرجى أن الله تعالى سيحقق أملنا وأملهم في نصر دينه، وإعزاز كلمته، وجهاد أعدائه، وأخذ من حاد الله ورسوله معرضًا عن أمره، وناصب الإيمان بإشراكه وكفره.

ولم يبق من جموع رياح كلها، على اختلاف قبائلها، وتعدد عشائرها واتساع أفخاذها وعمائرها، إلى من حضر ذلك من أعيانهم، وذوي حلومهم وأسنانهم؛ وكلٌّ أظهر من جميل البدار، وكريم الأهطاع، والتأثر لهذا الغرض الجميل الذي يعود عليكم بكرم المآل وجزيل الثواب، ما أقر العيون، وشرح الصدور، وملأ بالبشرى القلوب، وودع جميعهم على الأخذ في الحركة على هذه الصفة المباركة من التفويض بالرحيل، والتسليم لهذا الأمر العظيم، والرضا بهذا الغرض الجميل، وأن يكون رباطهم في سبيل الله عوضًا عن عشواء في الفتنة خبطوها، وعمياء في الضلالة ركبوها، وآثارٍ في الفساد والعناد آثروها وارتكبوها.

وقد أخذوا في الحركة بعون الله على طرق شتى بعضها بالصحاري وبعضها بالسواحل، كل قبيل منهم اختار أقرب الطرق إلى الموضع الذي منه مبدأ انتقاله، وأرفقها بنفسه وأهله وماله، وأعوذها عليه باليسر والسعة في أحوال ترحاله، ورأينا أن ذلك لهم أوفق، وبهم أرفق، حتى لا يزدحموا في المسير، ولا يتضايقوا مع اتساع هذا الفضاء الحامل منهم للجماء الغفير. وقد أصبحوا من الطلبة والحُفاظ أكرمهم

الله من يُقيم منآدهم، ويحفظ أعدادهم، والله يكرم مقصدهم، ويجعل التقوى زادهم، وقد سالت بهم الأباطح، وامتلأت بجموعهم المواهي الفسائح، وأخذوا في النقلة على ما تحتمله المذاهب وتحمله المناسك. وإن جموعهم وفقهم الله وأكرمكم جميعًا بتقواه لتُكاثر الحصر ومُعاد الربى، وتملأ الغيطان والربى؛ وسيصل منهم على تلكم الجهات ما يرد الطرف حسيرا، ولا تنتهي إليه الخواطر والأذهان تحصيلًا وتقديرا، بحول الله تعالى وهو المستعان.

وكان ممن حضر لهذا المجتمع السعيد، والخير الجديد، والذكر المحفوظ بالتوفيق والتسديد، الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام أكرمه الله فظهر منه في هذه المشاهد الكريمة، والمذاكرات المباركة، والمحاضرة الشريفة، التي هي كلها من جملة أعمال الإيمان، وطاعات الرحمن، من جميل الأقوال والأفعال، التي تني عن صادق العزم في جميع الأحوال، ما شُكر فيه منابه، وصدق فيه احتسابه، ثم أخذ كما أخذ سائر الأشياخ من العرب في الرحيل بنفسه وأهله وولده وجملة من تعلق به، واتصل بسببه، من جماعته وقبيله وذوي نسبه، ومن كان توقف بتوقفه وتأخر بتأخره؛ وتقدم من ذلك تقدم الموفق السعيد، والمبارك الرشيد، وسار في الرعيل الأول مبادرًا إلى السعادة، مسارعًا إلى الامتثال والطاعة، والجد نصب عينيه واستبصاره، والجهاد في سبيل الله شغل خواطره وأفكاره. وكل من كان من هؤلاء العرب قد أساء الظن بما ركب قبلُ من جرم، واكتسب من إثم، وتوقف على داعي الله وقد دعاه إلى ما يُحييه على بصيرة وعلم؛ فقد بادر الآن بالامتثال، وفوَّض للانتقال، ورجا أن يختم عمله بالرباط في تلك الجزيرة محتسبًا على الله بنفسه، باذلًا في طاعة مولاه جهده، مبايعًا بذلك ربه حتى يمحو ما سلف، ويستقبل من هذا الخير ما ائتنف، ويستبشرون ببيعتهم التي بايعوا بها من لا يضيع أجر المؤمنين، ويرى الله عملهم والمؤمنون، ومن استخلفه الله على المؤمنين.

وليس يبقى بعد هذه الغزوة المؤيدة، والنية المجردة، بهذه البلاد كلها من العرب من يتطلع بعدُ إلى استجلابه، ولا يتشوف إلى وصوله إلى البلاد الغربية واقترابه؛ فقد وعبوا في التخلي عن هذه الأوطان، وتركوها لمن كان فيها من القطان، سوى من سكن من قبائل سُلَيم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقًا ومصحرًا إلى برقة والإسكندرية. وقد وصل منهم قبل هذا جمعٌ ظاهرٌ من أشياخهم وأعيانهم وذُوكروا فيما ذُوكرَتْ فيه قبائل رياح إخوانهم، ووعدوا في ذلك بعدات أعطوا فيها صفقة أيمانهم؛ وقد خُوطِبوا، وكُوتبوا، ويُشّروا، وأُنْذِروا؛ وإن سمعهم النذير، وكفاهم ما وعوه من التأنيس والتبشير، والتخويف والتحذير، ووفوا بما عاهدوا عليه الله، فسيُحمدون لسواهم، ويتلقون مشافهة بشراهم، ويدخلون مدخل إخوانهم، ويصلون حبل الله بأيمانهم، ويفوزون بتصحيح عقائدهم وأديانهم، ويزدادون بالجهاد في سبيل الله إيمانًا مع إيمانهم؛ وإلا فمن وراءهم طالب مُدرِك، وآخذٌ من جند الله مُهْلِك. ولعل الله سَيُصلحهم ويهديهم، ويعصمهم مما يرديهم، ويحشرهم إلى مقام يطهر قلوبهم من سالف اعتدائهم وتعديهم، بحول الله.

ولو لم يكن في هذه الحركة، السعيدة المباركة وفقكم الله إلا ما كان الآن من أمر العرب وكف أيديهم عن هذه البلاد، وصرْفهم إلى ما استنفروا إليه من الجهاد، وإجابتهم جميعًا بنفوس على الطاعة مقبلة، ووجوهٍ ببشرى المتاب متهللة، وقلوبٍ على الخير مصفقة، ونيات على إجابة داعي الله متفقة، لكبر بذلك دليلا على أن هذا الأمر العزيز لا ترتقي إلى فهمه العقول، ولا تنتهي إليه الخواطر والظنون، وأنه مؤيدٌ من الله، بنور ينور به قلبُ من وفقه لرضاه، ويسره ليسراه. فقد كانت العرب أولًا وآخرًا لا تنقاد لقائد، ولا تلين في يد قاهر، ذهابًا بنفوسها وطاعة لأنفتها، واستكبارًا على خالقها، وإباية عما تظنه أنه يضع من شرفها. فألان قلوبهم الآن لهذا الأمر العظيم، حتى ألقت إليه مقاليد التفويض والتسليم، من الإنهاء لرسوله عليه أتم

الصلاة والتسليم، حتى ذلت له صعابهم، وخضعت له رقابهم؛ فنصروا دين الله حتى استقر في نصابه، وضربوا على الباطل والكفر من لم يأت الحق من بابه، وانقادوا مع أمر الله ورسوله وكتابه. ثم ضربوا المبطلين على تأويله حتى دمغوا الباطل فزهق، وأرهقوا عُسْرًا من كان رهق، ونرجو أن الله يستشرح صدور هؤلاء بنور هذ الأمر العزيز حتى ينصروه حديثًا كما نصروه قديما، ويُتمموا بذلك شرفهم تتميما، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرًا عظيما.

وعجلنا إليكم وفقكم الله وأكرمكم بتقواه هذه البشرى، لتعلموا أنكم لم تعموا عن الخواطر والأفكار، وأن جهاتكم لا يشغل عنها شيءٌ من شواغل هذه الأقطار، وأنكم معتمدون أبدًا من العناية، والرعاية، بما يعود عليكم بتبليغ الأوطار؛ فبشوها وفقكم الله في أصقاعكم، واجعلوا حديثها في قلوبكم وأسماعكم، واعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاقد أنديتكم واجتماعكم. والله يُوليكم من رحمته، ونعمته، ما يعمُّ به ملأكم، ويكرم به متبوأكم، بمنه، لا رب غيره وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب منتصف شهر شوال سنة ست وسبعين وخمسمائة.

الرسالة السابعة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من الأمير يعقوب ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بغرناطة أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرَّفهم عوارف نعماه ورحماه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونِعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي حفظ بهذا الأمر العظيم رباط الإسلام ونظامه، وأحيا بإحيائه رُفاته ورُمامه، ونصب للمستضيئين بأضوائه، والمستبصرين في اتباع سننه اللاحب واقتفائه، أضواءه الهادية وأعلامه، واستحفظ أمره العزيز في الذابين عن حرماته، والناهضين بأعبائه وأمانته، ملقيًا إليهم مقاليده وزمامه، ومُظهرًا بهم مناهجه القويمة وأحكامه، وجعل إمامتهم الحميدة، وإيالتهم المباركة السعيدة، ملاذ الدين وقوامه، وظهور الحق وانتظامه، وجبّ بتعاضدهم وتوازرهم، وترافدهم على تمشية أمر الله تعالى وتظاهرهم، غارب الهرج وسنامه، وعمَّر ببركة مساعيهم، وسعادة مآخدهم الموفقة ومناجيهم، ربوع الإيمان وخيامه، وضم نثره ونظم التئامه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أطفأ الله به احتدام الكفر واضطرامه، وأزاح بأنواره الباهرة غيهب الشرك وظلامه، وأعلى بحنيفية الحق منار الحق وعمامه، وجعل بذأرته المنجية، وبأثرته المزلفة إلى الرضوان المُدْنية، انقضاء إرساله تعالى واختتامه، وكمال وحيه سبحانه إلى

عباده وتمامه، ضاعف الله له ولعترته الطيبين، وصحابته الأكرمين، صلواته الجمة وسلامه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، عَلَم الهُدى وإمامه الذي اختاره الله تعالى للهداية واعتامه، وارتضاه لتجديد شريعة جده عليه السلام بعد الدثور وأقامه، وشفى بعلومه الجلية، وبراهينه الواضحة القطعية، أدواء الجهل وأسقامه، وجلا بأضوائه الساطعة، وتعلياته الرافعة الشكوك القاطعة، دياجيره الحالكة وأظلامه؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه، والمعمل في إعلاء كلمته وتمكين أمره الحق ودعوته شأنه وحسامه، المجرد في الوفاء بعهوده، وانتجاز بشاراته الصادقة ووعوده، عزمه الكفيل بها واعتزامه؛ والدعاءُ لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصرٍ يسكب السعد غمامه، ويجزل الجدُّ إقسامه، ويقتضي الفوز المسعد، والفضلُ المعاون المنجد، استمراره إلى قيام الساعة ودوامه.

وهذا كتابنا إليكم -أسمعكم الله من بشائر هذا الأمر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحا، ويعمر صدوركم انشراحا، وأوسع أرجاءكم وأكنافكم انبساطًا في ظل الأمنة وانفساحا- من حضرة إشبيلية جرسها الله ونحن نستوهب الله عونًا على ما قلدنا من أمانته، وإنهاضا بما حملنا من نصر دينه وحمايته، وإنجادًا على ما ننويه ونحاوله وندأب فيه من حفظ أمره ورعايته. والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم، والعمل بطاعته، والتوكل عليه وأن توقنوا بأن هذا الأمر السعيد محفوظ المقام، منصور الأعلام، مسددُ النقض والإبرام، مقرونٌ بمقاصده اليمنُ والنجحُ على تعاقب الأدوار وتناوب الأيام، وأنه المصيب المفتوح له الذي لا يضره من عانده ولا من خذله مع تقادم الأعصار وتطاول الأعوام، بُشْرى صادعة الدلائل، ويُسرى صادقه المخايل، وأمرٌ محروسٌ لا يقدح فيه كيدُ كائد ولا خذلُ خاذل، ولا يحلُّ عقوده المبرمة، وروابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة، حدوثُ حادثٍ ونزولُ

نازل، حتى ينجز الله له وعده الكريم في الاستيلاء على الأقرب والأبعد، والانتهاء من ذروة الكمال والتمام في مسماها الأعلى الأصعد، وإيداع أمانته العظيمة، وعهوده الكريمة، في الأقعد في الاختصاص فالأقعد، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والحمد لله رب العالمين.

وإنه وفقكم الله وسددكم، وأعانكم على اتباع أوامره وأنجدكم لم تزل رغبات الموحدين أعزهم الله وإخوانهم العرب وفقهم الله تترادف على سيدنا أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته في إرقائنا لهذا المرقى وتقليدنا هذه الأمانة العظمى، والإفضاء إلينا بأمره الأعز الأسمى؛ فيقابلهم -أعلى الله أمره وأعز نصره- من وعده الكريم بكمال مطلبهم وتمامه، واتساقه على مقتضى آمالهم وانتظامه، ويعرّفهم بأن هذا الأمر له وقتٌ يرتقب لعقده فيه وإبرامه. ولما أذن الله تعالى في دنو الميقات المنتظر واقترابه، وأراد سبحانه إنجاز وعده الكريم لسائليه وطلابه، وإقرار أمره العظيم في معدنه الحافظ له ونصابه، ورجع الموحدون أعزهم الله من غزوتهم المبرورة التي أعز الله بها المسلمين وأذلهم، وقمع المشركين وأذلهم، وكرم بإحراز أجرها، واستخزان ذخرها، حالهم ومآلهم، وبلّغهم من نكاية أعدائهم وتدويخ أكنافهم وأرجائهم، ما تجاوز أمانيهم وآمالهم، تعيَّن الوقت الموعود، وحضر الزمن المرسوم له المحدود. وكان بحكم الاحتفال للغزوة المباركة، وحرص الكافة على اغتنام أجور المساهمة فيها والمشاركة، أجمع من الموحدين أعانهم الله ومن انضاف إليهم من الأجناد، ومن كافة العرب وأعيان أهل البلاد، جمعٌ كثير، وحفلٌ كبير، يدخل فيما ارتبطوه عليه سائرهم، وتنتظم فيما عقدوه جماعتهم الذين وراءهم وعشائرهم؛ فعرف كافتهم بما تقدم فيه سؤال الموحدين والعرب وفقهم الله ورغباتهم، وتكررت في استنجازه طلباتهم، وقرعت باب استفتاحه بداتهم، وانتهت إلى إيثاره واختياره نهاياتهم، ووقفت عنده قصودهم الميمنة وغاياتهم. فكان منهم

من المبادرة إلى ذلك والإسراع، والإعناق إلى إجابة داعيه والإهطاع، والتلقي لرايته المرفوعة بيمن الانقياد والانطباع، ما قضى باستحكام الأصفاق عليه من الكافة والإجماع، ورغبوا في إكمال ذلك لفورهم، وألحوا في طلب المبايعة لحينهم، واتفقت عليه آراءُ كافتهم وجميعهم.

ولما تحقق منهم خلوص الضمائر، واستواء البواطن والظواهر، واستحكام النيات فيه والبصائر، أُسعِفوا بمطلوبهم، ومُكنوا من مرادهم ومحبوبهم، وأُحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجًا وسلكوا من الطاعة الصادقة سبلًا فجاجا، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جوادًّ قاصدة ومنهاجا، وبادر الأعيان من الموحدين وغيرهم وفق الله جميعهم إلى البيعة وسارعوا، وترادف الناس بعدهم وتتابعوا، وأعطى الجميع صفقة أيديهم بإخلاص من سرائرهم وبايعوا؛ والتزموا فروض البيعة بشروطها وقيودها، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها، وأمضوا على أنفسهم أحكام حقوق الطاعة الصحيحة وعهودها، وارتضوها بنيات صادقة، وعزائم إلى اغتنام الأجور مسابقة، وضمائر لكل شوب وريب مُباينة مُفارقة، وبايعونا على ما بويع عليه الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين رضي الله عنهما وسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته من الإيمان والأمانة والعدل والعبادة، والسمع في المنشط والمكره والطاعة. وظهر على الكافة من دلائل البشرى، ومخايل المسرة بهذه النعمة الكبرى، وشكر الله تعالى على ما يسرهم له من اليُسرى، ما حُقق عند كل مؤمن، وأوضح لدى كل مسلم موقن، أن هذا الأمر السعيد ممكنٌ له في الأرض، مخدوم الإرادة في البسط والقبض، منصور اللواء، مؤيدٌ على مر الأوقات والآناء، إلى يوم الدين والعرض. واتصلت المبايعة المذكورة اتصالًا استوعب كافة الموحدين ومن معهم من الأجناد، وإخوانهم العرب وأعيان أهل البلاد وفق الله جميعهم.

ورأينا وبالله التوفيق أن نعرفوكم بهذا الأمر الأعظم الأخطر، لتأخذوا منه بالحظ الأوفر، وتنالوا ناجز خيره الأنفس ومذخور أجرة الأكبر، وتدخلوا بالانتظام في سلكه مداخل طائفته المفلحة وحزبه المظفر؛ فتلقوا وافده الأكرم بالقبول سمعا وطاعة، وانشروا نبأه الأفخم، في جهاتكم وجنباتكم إشادةً وإشاعة، وخُذوا عهده المؤكد الألزم، على كافة أهل حواضركم وبواديكم فئة فئة وجماعةً جماعة. واستمسكوا بعروته الوثقى وغرزه، واعتصموا بكهفه الأوفى وحرزه، واغتنموا الدعة والهدون في كنف أمنه الشامل وعزّه، إن شاء الله وهو وليُّ. توفيقكم وإرشادكم، وإعانتكم على طاعته وإنجادكم، بمنه.

أدام الله كرامتكم بتقواه، استدعت هذه الحالة التي عُرّفتُم بها أن يُزاد في الخطبة الزيادة التي اشتمل عليها المدرَج في طي هذا الكتاب؛ فضعوها في موضعها منه، واكتبوا بنُسخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثامنة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة الموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، وأعانهم على اتباع أمره والعمل بما يرضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي شيد بهذا الأمر العزيز منار الحق وبناءه، وتدارك به زمن الإسلام بعد إشفائه على الذهاب وذماءه، وحسم بأمره القائم بالعدل، الناظم لأشتات الخير والفضل، عِلَلَ الالتباس وأدواءه، ووقف على مصالح الأمة وتفقَّد ما يحفظ عليها نظام الدين والنعمة إعادته وإبداءه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أزاح الله به ظلم الكفر وغناءه، ونشر في البسيطة أنوار دينه القيم وأضواءه، ووعد وَعْدَ الصدق استحواذ مُلْك أمته على ما زُوي له من المشارق والمغارب واستيلاءه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي رفع الله بظهوره عَلَم الشرع ولواءه، ووفَّى الكافة بعلْمه الواضح، وهديه المستقيم الصالح، مهاوي الجهل وأهواءه، وجدد به الإسلام بعد الإنهاج والإخلاق بهاءه الأول ورواءه، وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين المُجْري في القيام بأمر الله إجراءه، والمُعْمل في تمشية دعوته وتتميم بداءته صوارمه وآراءه، والمخصوص من إحياء الدين وإرقائه مراقي

التجديد والتمكين بما يسَّر له توصيله إلى غاية التمام والكمال وإنهاءه؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصرٍ يقمع أعداءه، وتأييدٍ يصحب عزائمه وأنهاءه، وسعدٍ يقتضي دوام أمره عليًّا ظاهرًا إلى قيام الساعة وبقاءه.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم من إرشاد هذا الأمر العزيز ما يسلك سبل الاهتداء، ويحملكم على محجة الحق السواء ويوضح لكم معالم الاقتداء، بهدي السلف الصالح والائتساء- من حضرة مراكش حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به والتوكل عليه، وأن توقنوا بأن الله جعل هذا الأمر العظيم منجاة من الزلال وعصمة، ونعمة سابقة على الخلائق ورحمة، وضياءً مُزيحًا لكل غيهب من الشرك وظلمة، وهداية آخذة عن النار بحجر الأمة، وأن الحق مقرون بعزماته، والصلاح منتج من إشاراته، وخير الدنيا والآخرة متعرف من مقاصده المباركة وإرادته. وإلى ذلكم وفقكم الله وأعانكم على اكتساب رضاه فإن الناس تجوَّزوا في أمر الرب تجوُّزًا أغفلوا فيه الاجتهاد، ورتعوا حول حماه رتعًا أوقعهم فيه أو كاد، وتسامحوا فيه تسامحًا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد، وحاول اتخاذه وبيعه من لا يتوقف على احترام، ولا يتخوف بما يكتسب من آثام، ولا يقف عند قوله عليه السلام ما أسكر كثيره فملءُ الكف منه حرام. ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحق، الناظر في مصالح الخلق، يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع، والاحتساب أبدًا يتخولهم بأتم القهر والمنع، والقتل في كل حين يأخذهم بأشد الكف والردع، والحالة الذميمة يزداد بهم تماديها، والعادة السيئة المنقومة تحجبهم عن الحقيقة باستمرار تواليها، ويذهلهم استصحاب الاسترسال، وتمادي الذهول عن الواجب والإغفال، عن تدارك زلاتهم وتلافيها. والذي أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشراء، ما أنهى طبخه غاية الإنهاء، وصيَّر جرمه في قوام الطلاء، كما فعل عمر رضي الله عنه اقتداءً بالخلفاء، واهتداءً بالأيمة الصلحاء،

والصحابة البررة الأتقياء، وأخذًا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم)) اتباعًا لأمره عليه السلام واقتفاء، ووقوفًا عند المراسم الشرعية وانتهاء؛ فتعدى الناس ما حُدَّ لهم وتدرجوا إلى ما يختاره الله ويرتضيه، وارتكبوا من اللبس والشبهات في ظلم الاختلاط ودياجيه.

ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرر، وتردد على أسماعنا ما استرسل فيه وتكرر، وعلِمْنا أن الذي وسع على الناس من اتخاذه لم يتبين لهم الحق فيه على وجهه ولن يتحرر، وأن ذلك مما يصعب عليهم بسبب ما تساهلوا فيه ويتعذر، رأينا والله المستعان أن قطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لديهم وأجدر؛ فمن العصمة ألا يجدوه، ومن العون لهم على تركه أن يعدموه ويفقدوه. فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملةً وتفصيلا، ولا تُوجدوا أحدًا إلى بيعه سبيلا، واشتدوا في ذلك اشتدادًا لا يوسع مستسمحًا فيه صُدوفًا عن هذا القصد الحميد ولا عُدولا، وأخلوا الحوانيت التي كان يباع فيها منه وأفقروها، وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيروها، والديار المعروفة ببيعه أيضًا لا تتركوها على ذلك ولا تقرروها؛ وأريقوا ما تلقون من مشتبهه وملتبسه، وعاقبوا من تجدونه عنده أشد عقوبة على دلسه؛ وتتبعوا في ذلك أبلغ تتبع وأشده، ومن وجدتم عنده رائحةٌ منه كائنًا من كان فأقيموا عليه ما رسمه الشرعُ في ذلك وحده؛ وانظروا في تتميم هذا الغرض الجامع بأصلحة الدين والدنيا أصح نظر وأسده؛ وأشيدوا بذلك في جميع أرجائكم وجهاتكم، وخاطبوا بنُسخ كتابنا هذا سائر نواحيكم وجنباتكم، ومشوه بالجد المستوفى، والاجتهاد البالغ المستقصى، بما ينفعكم الله به في حياتكم، وبعد مماتكم، والله يوفقكم من ذلك لما يزلف عنده، ويمتري عاجلًا وآجلًا إحسانه ورفده، بمنه؛ لا رب غيره.

أدام الله كرامتكم بتقواه، تأمرون العمال هنا لكم بدفع جميع ما تحصل في هذا

العام من زكاة الفطر للشيخ الفقيه القاضي أبي المكارم أكرمه الله بتقواه يوزعه على الضعفاء والمساكين رفقًا بهم وتوسعةً عليهم؛ فاعتهدوا على ذلك إن شاء الله عز وجل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب عقب شهر رمضان سنة ثمانين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة التاسعة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرَّفهم عوارف رحماه وحسناه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونِعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي هدم بهذا الأمر العزيز أصول الباطل وفروعه؛ وطمس بأعلامه الواضحة، وآياته البينة اللائحة، رسوم الظلال وربوعه؛ وهزم بأمره القاهر، وحقه الغالب الظاهر، أحزاب الشيطان وجموعه؛ وبدد جماعه الخبيث وجموعه؛ واستأصل صبابة الكفر البائد كما استأصل ينبوعه؛ وألحق آخره بأوله، وأصاره إلى سوء مصيره ومويله، مُبديًا ذله وخضوعه؛ مُمزقًا بأيدي أوليائه المهتدين، وأنصاره المؤيدين المسددين، أديمه ومسيّلا نجيعه؛ وختم له في كل محاولة، بعقبى الدار، وعرَّفه في كل معاجلة ومطاولة، عوائد الإعلاء والإظهار، ممهدًا له رحب نصره الأعم ووسيعه، وممكنا في درج النماء، ومراقي السمو والعلاء، صعوده وطلوعه؛ وجعل المصيب المنصور المفتوح له مواليه ومطيعه؛ ووالاه من نصره الأغر وفتحه الأغلب الأبر، جليله فجليله وبديعه فبديعه؛ وأجرى عوائده الكريمة له على إدلالها، وأمرها قبله على اطرادها واتصالها، مكملا لديه عوارفه ومتممًا صنيعه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي شتت الله به منظوم شمل الكفر ومجموعه؛ وختم بنبوءته

الخاتمة، وشريعته الدائمة، رسالاته المتقدمة وسروعه؛ وألزم الأحمر والأسود مسنون دينه القيم ومشروعه؛ وجعله وسيلًا له يوم المحشر وشفيعه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي لأَمَ به شعث الإسلام وصدوعه؛ وأبان بهدايته المنقذة من الضلال، وإيالته الواضعة الإصر عن الإمامة والأغلال، محجوب علم الحقائق وممنوعه؛ وقدر عود الإسلام بدعوته، على ما كان عليه في بدأته، ورجوعه؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين الذي حالَفَ في القيام بأمر الله سُهاده ونافر هجوعه؛ واستلان في جهاد أعدائه، وتبليغ أمره العزيز إلى علية تتميمه وإنهائه، خَشِنَ مستصعبه واستعذب فظيعه؛ وناضل في إعلاء كلمته، وتمشية حقه ودعوته، حتى هد مشيد الضلال واستباح منيعه؛ والدعاء لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصرٍ يوالي له سبحانه موصوله ومشفوعه؛ وسعد يمكّن من ملكته، ويضع في قبضة قهره وغلبته، مناويه وخليعه؛ ويجعل من عاند أمره، وخالف في طاعته سره وجهره، مجدِّل سيفه الماحق ومصروعه؛ ويعرّفه من تأييده، وتسديده، كريمهُ فكريمه ورفيعهُ فرفيعَه.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم تعرُّف المسرات والبشائر، وأولاكم من فضله وطوْله كل منٍّ ظاهر وأمنٍ غامر، وآواكم من عدل هذا الأمر العظيم ورفقه إلى الركن الأرشد والظل الساتر- من حضرة مراكش حرسها الله ونحنُ نحمد الله تعالى على نِعَمه التي لا يحصيها العد، وقِسَمه التي لا يحيط بها الرسم والجد، ويقصر في العبارة عنها كل قول وإن يبلغ فيه المنتهى ويُذل الجهد، ونسأله سبحانه توفيقًا إلى القيام بشكرها يؤيده التسديد والعضد، وعونًا على توفيقه الواجب من حقها يمتري به المزيد من فضله ويستنجز الوعد. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه.

وقد علمتُمْ وفقكم الله وسددكم، وأهداكم إلى مصالحكم وأرشدكم، وأعانكم على الاعتصام بعروة الطاعة الوثقى وأنجدكم ما كانت عليه حالةُ الكافر الغادر، اللعين الخائن الخاسر، بقية الحثالة الغاوية وسُؤر الكفر الدائر، شقي ميورقة لعنه الله من الانكماش في جزيرته، والمصانعة بخلوص علانيته في الطاعة وسريرته، والمغالطة بانعقاد عقيدته عن المشايعة والموالاة واستحكام بصيرته؛ وهو منطوٍّ على العداوة لله ورسوله، ومتنكبٌ طريق الحق وسواء سبيله، ومستسرٌ بصدوده عن الجادة الواضحة وعدوله، مُبزأ للجُسُر في الارتغاء، مترصدٌ لابتداء، ما يمكنه من طلب للفتنة وابتغاء، متربصٌ لدائرة السوء العائدة عليه فيما رامه من عناد وانتزاء، إلى أن استثار شفرة حتفه وبحث عن هلكه بظلفه، وتورط فيما أحاط به مكره السيءُ من عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه، وكفر بأنعم الله فذاق لباس جوعه وخوفه، ورام السمو إلى منال حكم الله برده خاسئًا وصرفه؛ وتلك عادة الله الكريمة فيمن حاد أمره الذي اجتباه، لإحياء دينه، وارتضاه، لتمهيد شرعه وتمكينه، وحباه، من نصره المؤزر، وفتحه الميسر، بغزيره ومبينه؛ فلا ينبذ لمنابذته ناجم ولا يعزم على مقاطعته إلا اكتنفته المعاطب من شماله ويمينه، صنعٌ من الله تعالى جميل أجرى به عوائده الجميلة له على اطرادها، وأدامها على متعرفها الكريم ومعتادها، وأظهر في كل متناول، ومقصد مزاول ومحاول، تضاعفُ نموها وازديادها، والحمد لله على مِننه الذي لا يفي الوسع بإحصائها وتعدادها.

ولما عَنَتْ للفاسق الفرصة، اغتنم بزعمه انتهازها، ولما مكنته الغرة، حاول برأيه البائس اقتناصها واحتيازها، وتطلب من أمانيه الكاذبة، وأراجيه الخائبة، تأتيها وانتجازها؛ فكذَّب اللهُ آماله، وقلص أفياءه القاصرة وظلاله، وقدَّر في سعيه الخاسر، تلاشي أمره الدائر، واضمحلاله؛ فداخل أوباشًا ممن كان ببجاية ممن رق دينه، وضعف إيمانه ويقينه، وزان على قلبه شيطانه المضل وقرينه؛ فيسروا له تمهد صهوتها،

وأعانوه على تشتم ذروتها، ووصلوا بسببه الضعيف أسباب قهرها وغلبتها. ولما قر فيها قراره، وانتشر بها فساقه وفجاره، ووضح له من أمله الكذوب في تملكها صبحه ونهاره، تعاوت إليه ذئاب الغارة وكلابها، واتصلت به أوغاد الفتنة وأوشابها، وتجمع له من أشباهه في الجهالة، وأعوانه في الضلالة، أوزاعٌ تمكَّنت بهم أسباب غرَّته وامتدت أطنابها؛ فقوي طمعه في الاستيلاء على ذواتها، وسوَّلتْ له نفسه الخبيثة الاستحواذ على جهاتها، والتمكن من أرجائها وجنباتها، وامتدت أطماعُ الكافر وآماله، وغرّه إملاء الله تعالى وإمهاله، وغطى على بصيرته العمياء جهله وضلاله؛ فتطوَّف على الجزائر وملیانة وأشير والقلعة وكرَّ منها إلى بجاية، وآب الخاسر الكافر وقد خاض هذه الجهات خوض المُذِل، واستباح حرمة أهلها، استباحة المستحِلّ، وعركها عرْكَ الرحى بثفالها، دون مراقبة ذمةٍ فيهم ولا إل، يأخذ أموالهم بغير حقها، ويصرّفها في غير مستوجبها ومستحقها، ويحملهم من كلف المغارم، ومون الملازم، ما لا طاقة لهم بحملها وأوقها، يمضي أحكام الجور فيهم، ويبسط أشياعه الأخسرون إليهم أيدي تطاولهم وتعديهم، ويسومهم العسف والخسفُ يُراوحهم ويغاديهم، راكبًا رأسه في الاغترار، منخدعًا بما أُملي له من مدة الانجرار، غافلًا عن قوله سبحانه: {وسيعلم الكافرين لمن عقبى الدار}.

ولما استفزه بما تهيأ له ببجاية وجهاته الغربية طمعه، واستجره حرصه المؤذي وجشعه، ووعدته التملك لأقطارها، والاستيلاء على بواديها وأمصارها، ظنونه الخائبة وخدعه، قصد إلى قسنطينة كلأها الله مؤملًا اختداع أهلها، ومقدرا نفوذ حيله في خترها وختلها، ومعملًا جهده، ومصرفًا مكره وكيده، فيما يصل حبله الواهي بحبلها؛ فألفى بصائر أهلها مستحكمة، وعقائدهم على التقوى منبرمة، وقلوبهم على الطاعة الصحيحة، والموالاة الخالصة الصريحة، مُلتئمة مُنتظمة. فخاب بحمد الله سعيه، وفال رأيه، وبدا لأوليائه الأذلين فضيحته عليها وخزيه؛ فداوم حصرها

لزاما، واستمطر من مسابيه المخفقة في خدعتها جهاما، وفي كل ذلك يُذيقه أهلها أعانهم الله حِماما، ويجرعونه من المذلَّة والإهانة كأسًا رؤاما، ويقتلون من شرذمته القليلة، وجماعته الفليلة، الجمل الجمة فُرادى وتؤاما. وألحَّ في الإقامة عليها راضيًا بصفقة خساره، مُدَّرعًا أثواب ذله وصغاره، متسربلًا سرابيل عاره وشناره، محتملًا لما ناله من فلّ غرْبَ أرذاله الأخسرين وأغماره.

وكنا وفقكم الله ويسركم لما يرضاه عندما أُنهي إلينا أمره، وتقرر لدينا خدعته ببجاية وغدره، نظرنا في إغاثة المسلمين الذين تحكم فيهم جوره، واستطال عليهم قهره وقسره، وأخذنا في ذلك بواجب الاجتهاد، من التأهب والاستعداد، والنظر في كل ما يتمكن به أسباب الجهاد، متيقنين أن الله تعالى لمن حاد أمره وعَنَدَ عن سبيله بالمرصاد، وأن معونته الربانية، وتيسيراته الإلهية، تغني عن العدد والأعداد، وتقوم مقام الكتائب والأجناد؛ لكنا أخذنا في ذلك بمتعين الحزم جريا على المعتاد، واثقين بعون الله وتأييده، مستنجزين لصادق وعوده، متوكلين عليه سبحانه في قريب التناول وبعيده، متطلبين منه سبحانه عوائد توفيقه وتسديده؛ فوجهنا من الطلبة أعانهم الله من نظر في أمر الأسطول المبارك وإعداده، وتهيئته بما يصلحه من عدده وأعداده؛ وأصرناهم بالانحفاز في ذلك في أقرب ما يمكن من أوقات الزمان وآماده، وجرَّدنا من الموحدين أعزهم الله عسكرًا منصورا، وجمعًا مباركًا موفورا، وقدمنا عليهم من الطلبة أعزهم الله من أنهضناه لتدبيره، وعصبنا به النظر في أموره، ووصيناه بتقوى الله تعالى في قليل أمر وكثيره، وأمرناه بالوقوف عند مراسم السُّنَّة وحدودها، والانتهاء إلى روابطها المحكمة وعهودها، والتقيد بأحكام السياسة المصلحة وقيودها، وأن يبذلوا الأمان لأهل تلكم الجهات حاضرهم وباديهم، ويقدموا الإنذار والإعذار بين أيديهم، ويشيدوا بها إشادةً يتساوى في العلم بها قاصيهم ودانيهم، إقامةً للحجة عليهم، وأخذًا بالعدل والرفق فيهم؛ فنفذوا على

بركة الله ويمنه، وتوفيقه وعونه، ونصرُ الله تعالى يعضدهم، وعونه سبحانه ينجدهم، وتوفيقه جلت قدرته يسددهم ويرشدهم، ومخايل التيسير والتسهيل تبشرهم بنجاح قصدهم وتعدُّهم.

وفي خلال هذه المحاولات، وأثناء هذه المآخذ السعيدة والموالات، طال الأمد على الشقي فازداد تهورًا وخبالا، وجهل ما أوقعته الشقوة فيه أملا، ليزداد إثمًا وإمهالا؛ فطلب الطعن وحده والجهاد، وطفق يتحلل القُرَى والبلاد، ويجوس الرُّبى والوهاد، ويعم بظلمه البلاء والعناد، جرأةً على الله وكفرًا به، وجريًا على عادته في الجور ومذهبه، وظنًّا كذوبًا دلاه بالغرور في مطلبه. وكان من صنع الله لأمره العزيز من حيث لا يحتسب، وفتحه الذي لا يعتري إلى القوة البشرية ولا ينتسب، ونصره العزيز الذي لا ينال بحول ولا قوة ولا يكتسب، أن ألقى على قسنطينة كلأها الله عصا تسياره، ولج في مضايقته لها وحصاره، وأطاع في الطمع في مغالبتها أم مُغريه المُضِلّ وغراه، وشغل بها عما كان يستروح إليه من هربه إلى جزيرته المستباحة وقراره، حتى دهمه أمرُ الله الذي لا ينجو منه هارب، ولا يعُزُّه مغالب، وهو مستغرقٌ في سِنة غفلته واغتراره، باقيًا عليها طول ليله ونهاره.

واستمر الموحدون أعزهم الله على سيرهم المبرور، وسعيهم الصالح المشكور، وقصدهم الموقوف على رضا الله تعالى المنصور، إلى أن وصلوا مليانة أول البلاد الشرقية؛ فألقى أهلها وقبائلها إليهم بالمقاليد، ولاذوا بالاعتصام بهذا الأمر السعيد، وتبرءوا إلى الله تعالى من الفرقة الغوية والشيطان المريد، وألظوا بالمتاب والاستغفار، واستمطروا من سحب العفو والإقالة كل مدار، واعتذروا أنهم كانوا في قبضة القهر وربقة السار؛ فقبلوا متابهم، ووصلوا بأسباب الصفح والقبول أسبابهم، وخضوعهم من لزوم جادة النجاة، والتزام الطاعة الصحيحة والموالاة، على ما يُصلح حالهم،

ويُسعد مآلهم. وفرَّ الأشقياء الذين كانوا بها على وجوههم، وساروا مُنْجرّين إلى مصارع حتوفهم؛ فقتلهم القبائل الذين على طريقهم بكل سبيل، وأتوا الموحدين أعزهم الله بمن أخَّره الحين منهم في ربقة الإسار الخاضع الذليل، ولم يفلت أحدٌ من عددهم التافه الحقير القليل، واقتدى الرعايا وفقهم الله بهذا الفعل السديد، وأشعروا كل من قدروا عليه من الأشقياء شعار التثقيف والتصفيد، وجاءوا بهم إلى الموحدين أعزهم الله مقودين بأزمة المهانة، مسوقين بنسوع المذلة والاستكانة.

وكان طلبة الأسطول المظفر اجتمعوا بالموحدين أعزهم الله بتلمسان كلأها الله ورسموا لهم أن يكون اجتماعهم بالجزائر كلأها الله؛ فسبقت الأساطيل المؤيدة إليها، وأطلت ببركة الله ويمن هذا الأمر العزيز عليها؛ فتيسر لهم مرامها، وانفرج للحين إبهامها، وتجلى بأنوار هذه الدعوة العلية غيهبها الداجي وظلامها، وبادر أهلها إلى فتح أبوابها، والقبض على من أمكنهم ممن كان عندهم من أوباش الضلالة وأوشابها، وبان للشرذمة اللعينة سوءُ مصيرها ومآبها، وكان ممن حصل في ثقاف القهر، وتمكنت من عنقه الذليلة ربقة الأسر، ابن عم الشقي الغوي وجماعةٌ من أعيان شياطينه الرجماء، وجملةٌ من كبار أصحابه الزعماء مكَّن الله من كافتهم، ومَنّ باستئصال شأفتهم، بمنه.

وعرَّفهم أشياخ الجزائر وأعيانها أن الأشقياء الذين ببجاية عازمون على البعثة بالموحدين أعزهم الله الذين عندهم إلى ميورقة فتحها الله فسارعوا بالتوجه نحوها خوفًا مما ذُكر لهم، ومبادرةً أن يتمم الأشقياء في ذلك أملهم، ويعملوا مكايدهم فيه وحيلهم؛ فلما انتهوا إليها ألفوا أخوي الشقي الذين كانا بها قد أخذا فيما ظهر لهما بالاجتهاد، وبالغا في الاحتياط والاستعداد؛ فضربا أخبيتهما بخارجها، ورتبا رُتبهما على موالجها، وكتبا كتائبهما الفليلة أثناء أنقابها ومدارجها، وهيهات أن يعصم من

أمر الله عاصم، أو يروم مغالبته رائم، أو يعازه معازٌّ أو يقاومه مُقاوِم؛ فهو أمرُ الله المنجد على كل محارب، المظهر على كل مطالب ومغالب، الموعود بالاستيلاء على ما روي لنبينا عليه السلام من المشارق والمغارب. فلما قرب الأسطول المبارك منها تقدم من طلبته وفقهم الله الشيخُ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق أكرمه الله فخاطب أهل البلد وفقهم الله بما بسط نفوسهم، ومكَّن تأسيسهم، وعرَّفهم بالغرض الجميل فيهم، وما كان من بذل الأمان لجميعهم؛ ورسم لهم أن يدخلوا ديارهم، ويظهروا في الطاعة آثارهم؛ فتابت إليهم بصائرهم، واستحكمت على التقوى نياتهم وسرائرهم، وخلصَتْ في الإيمان والإيقان طوياتهم وضمائرهم، وألقوا بيد المستسلم المبادر، ونابذوا الأشقياء الميورقيين منابذة المباعد المنافر، وتبرءوا إلى الله تعالى وإلى أولياء أمره العزيز من موالاة أمره الغادر الكافر.

وكانت للكفر ببجاية شوكةٌ اغتروا بها، وخُويلةٌ تخيَّلوا التمويه على الغزاة أنجدهم الله بسببها؛ فبرز الغزاة أعانهم إليهم واستعانوا بالله سبحانه عليهم، وناشبوهم القتال أشد مناشبة، ودافعوهم بأتم المدافعة والمحاربة، وصدقوا الله تعالى فيما قابلهم به من مطاعنة ومضاربة؛ فوالى الفسقة عليهم الدفعات، وواتروا الحملات الصادقة والشدات؛ فكان أولياءُ الله صُبراء أنجادا، كرامًا عند اللقاء مجادا، فصدَّقوهم المكافحة قِراعًا وجِلادا، واحتسبوا جهادهم ذخرًا عند الله وعتادا؛ فنصر الله ناصره، وقطع أواخي الكفر وأواصره؛ وانهزم الأشقياء أخابهم الله لا يلوون على من تأخر، ولا يأوون لمن تعذر، ولا يرثون لمن عجز عن سيرهم الخبيث أو قصر، يرومون اللحاق بغويهم، ويأملون الاجتماع بشقيهم. وكان في هذه الجملة اللئيمة، والشرذمة الذميمة، أخوا الفاسق المذكوران؛ ففرا فيمن فر من أغوياتهم، وطارا على وجوههم مع من انهزم من أوليائهم الكفرة الفجرة وأشقيائهم، والله يستأصل جميعهم، ويمحو بأسياف هذا الأمر العزيز تابعهم ومتبوعهم، بمنه.

وبادر الغزاة أعانهم الله إلى البلد فدخلوه، واحتووا على ما بقي فيه من الكِفرة وتملكوه، دون عهدٍ يمنع منهم، ولا عقدٍ يحجر عنهم، وسارعوا إلى الطلبة أعزهم الله والموحدين الذين كانوا معهم وفقهم الله فألفوهم بحمد الله على أحسن أحوال السلامة، متعرفين من الله تعالى كل نعمة وكرامة، مخولين من عونه وصونه كل عصمة مستصحبة وكلاءة مستدامة، وحصل في أيدي الموحدين أعزهم الله ببجاية الضالُّ الغوي المسمى رشيدًا عظيم الأشقياء ومديرُ أمرهم، وزعيم طغيانهم وكفرهم، ومُوقِد نار فتنتهم وشرهم. وألفوا أسطول الخائن بجملته، بجميع ما كان تأهب له من أُهبة وعُدَّته؛ فنفله الله أولياءه، وضاعف قِبَلَهم بذلك نعماءه، وعرَّفهم مزيد فضله عندهم ونماءه.

ولما سهل الله لهم استعادة بجاية.وفتحها، وأطلع تعالى بأنوار هذا الأمر العزيز فجرها وصبحها، بادروا بإعلام الطلبة الغزاة أعزهم الله بهذا النبأ السار، واستعجلوا بتعريفهم بما منح الله فيه من البشر والمسار؛ فلقيتهم مخاطبتهم بذلك وقد انتهوا إلى أوائل متيجة مهدها الله فطيروا إلينا بخطابهم المذكور، وأردفوه بكتابهم معلمين بما لقوه في محاولتهم من التبشير والتيسير، وأوضحوا فيه ما عرَّفناكم به من صنع الله وتسهيله، وما سناه سبحانه من كريم الفتح وجليله، ووالاه جلت قدرته من متابع منه وموصوله.

وبقي الخائن الخاسر بجهة قسنطينة حاطها الله مسلوبًا محروبا، مفلولًا منكوبا، قد أوبقته ذنوبه وجرائره، وخذله مُعينُه وناصره، وأسلمته إلى الجين المتاح، والموت المستأصل المجتاح، أقاربه وعشائره، وانبهمت عليه خزاه الله أوائل أمده الدائر وأواخره. وكأن قد أمكن الله منه أسيرًا أو قتيلا، إذ لا يجِد إلى مفر سبيلا، ولا يستطيع إلى نجاة تسبُّبًا ووصولا؛ والله يعجل به إلى ما أعد له من عذابه، ويصليه أليم

نكاله وعقابه، بيمنه وكرمه.

وعرفناكم أكرمكم الله بهذه البشائر، والصنع الكريم الباهر، والفتح المتناصر المتظاهر، لتأخذوا من المسرة فيه بأوفى نصيب، وتفيضوا في شكر موليه بسهم مصيب، وتوالوا حمده تعالى على ما أرى الأعداء من هول ماحق ويوم عصيب. فاستديموا النعمة في ذلك بشكرها، ووفوها واجب التحدث بها ونشرها، وأشيدوا بها في أرجائكم وأنظاركم، وخاطبوا بنُسخها إلى بواديكم وأقطارها، واستشعروا حمد الله تعالى وشكره في إعلانكم وإسراركم، ومهدوا بالانقياد لأمر الله تعالى مَهْد استيطانكم في ظل أمنته وقراركم؛ والله يوفقكم من ذلك إلا يقتضي نجاح إيرادكم وإصداركم، بمنه وكرمه، لا رب غيره. والسلام العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتب في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، وأوزعهم شكرًا يكون كفاءً لمنِ منَّ به وأولاه، وأمتع أسماعكم بمبهجات مسرات هذا الأمر العزيز وبشراه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي صدق وعوده، ونصر أولياءه وعبيده؛ وأعز أنصار الحق وجنوده؛ وأخزى لعزة أمره القاهر، وحزبه المفلح الظاهر، عدد الباطل وعديده؛ وسنَّى لأمره العظيم، من فتحه العميم، ومنحه الجسيم، قشيبَ صنعه الكريم، وجديده، وقرن بالتأييد والظفر، والعون المصاحب والنصر المؤزر، عزائمه وقصوده؛ وعرفه في كلِّ محاولة، وأثناء ما يزيغه من مبادرة ومطاولة، متعالم تيسيره ومعهوده؛ وكتب ببطشته المبيدة، وغلبة دعوته المبديئة في نصرة الدين المعيدة، مناويه وعنيده؛ وخضد بما أولاه من إعلاء، وآتاه من بسطة واستيلاء، شوكة مُعانده وأعدم وجوده؛ وأصلاه في أولاه وأُخراه عذابًا ضرم له وقوده، وأعد له في سواء الجحيم، أليم عقابه العظيم، وشديده؛ وصيره عبرة للمعتبرين، وعظةً للمدكرين المستبصرين، يستفيق بها من رام إنكار هذا الأمر العزيز وجحوده، ويقوم برهانًا قاطعًا على عناية الله به، وصلته أسباب التأييد والتمكين بسببه، فيكفي ترديد المقال فيه وتعديده، ويستيقن المؤمنون الموفقون أن الله تعالى قد

أنار سعوده، وأعلى مقاماته وحدوده، وضاعف لديه طارف إظهاره وتليده، وقدَّر بقاءه منصورًا مظفرًا إلى قيام الساعة وخلوده؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أظهر الله برسالته الحنيفة تنزيهه وتوحيده، وعرَّف الكافة بنبوته العامة تقديسه وتمجيده؛ وخصه بأن يشفعه في المحشر، ويبعثه يوم العرض الأكبر، شريف المقام ومحموده؛ وعم بملته الرافعة للمِلَلِ، ودعوته الناسخة للشرائع والنحَل، أبيض البَشَر وأسوده، وسيده ومسوده؛ وعمر بوجوبها وإلزامها، واطرادها إلى يوْم الدين وانتظامها، تهائم العالم ونجوده؛ ووعده وعْدَ الحق بلوغ مُلْك أمته روابي المعمور المروي له ووهوده؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي أقام الله بنوره منار الإسلام وعموده؛ وجعله محيي شرعه القديم ومُعيده، وماحي الظلال ومُبيده، ومُنيل الدين الحق وجوده الأتم ومفيده، وقضى أن تظهر دعوته العلية، وكلمته الهادية المهدية، تشريد الباطل وتبديده، وإعادة الإسلام بعد غربته الثانية وتجريده؛ وعن خليفته الأرضى، وصاحبه الأتقى الأهدى، سيدنا أمير المؤمنين الذي أورثه الله خلافته وعهوده، واختاره لأن يتم تقعيد أمره العلي وتمهيده؛ فاقتفى آثاره الكريمة وحدوده، ونهض بأمر الله باذلًا في تمشية حده وبالغًا في نصرته مجهوده، حتى انتشرت في الآفاق كلمته، وعمت هدايته المرشدة ودعوته، قريب المعمور وبعيده؛ والدعاءُ لنجله الطاهر، وفرعه الطيب المحاتد والعناصر، سيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين الذي ارتضاه لمقامه وكساهُ بروده، وأحله من اصطفائه واجتنائه سعيد مكانه الأرفع وحميده؛ وخباه في تتميم أمره، وتمكينه وشد أزره، رشيد الرأي وسديده، بنصرٍ يصحب راياته المظفرة وبنوده، وتوفيقٍ يقتضي إمداده بالمعونة الإلهية وتأييده، ويستنجز له من وعد الله الصادق حاضره وعتيده، ويمتري من عميم فضله، وجسيم طوله، مضاعف إحسانه ومزيده، ويُديم إعلاء أمره العزيز وصعوده، ما اتصلت الأيام، وتعاقبت

الشهور والأعوام، متراخي الزمن الأطول ومديده.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم من بشائر هذا الأمر العزيز أسرَّ مسموع، وقاد إليكم بتواترها، وتقاطرها، خير مجموع، وعرفكم بورودها، ووفودها، عوارف فضله الأتم غير مقطوع، ولا ممنوع، وأوزعكم من شكر موليها، وحمد مُسبيها سبحانه ومُسنيها، ما يثبت لكم في صحف القبول أرعى عمل صالح ودعاءٍ مرفوع من منزل الموحدين أعزهم الله- بظاهر قابس حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه. ونحن نشكره تعالى على ما منح من منن ومواهب، أعادت من الدين بهذه الأرجاء كل ذاهب، وأحلت الحق في مقاماته العلية المراتب، واسترجعت ما نهبته يد الناهب الغاصب، وجدَّلت كل معاند لأمر الله ومناصب، وأحاقت المكر السيء بالمحارب له والمصالب، وغادرت العُباق المراق كأمس الذاهب، وأعلت الكلمة المهدية في سماء عزها السامية المراقب، وأظهرت أولياءها المؤيدين وأنصارها المكافحين عن الدين، في مظاهر النصر والتمكين، كالنجوم الثواقب، وأجرتهم على معهودهم من النصر المراكب، والفتح المصاحب، وعرفتهم في كافة مآخذهم عوارف اليسر الراهن والعون الراتب.

وإلى ذلكم وفقكم الله وسددكم، وأعانكم على شكر نعماه وأنجدكم فقد علمتم ما كان من الأشقياء الغزيين، وإخوانهم في الضلالة الميورقيين، من التسحب على أرجاء هذه الجهات الأفريقية وأكنافها، وشنهم الغارات بأوساطها وأطرافها، وإجماعهم على اكتساح زروعها في هذا العام وانتسافها، وما سولته لهم أمانيهم الكواذب من قطعها بالخرابة وإضعافها؛ فحال بينهم وبين ما أملوه من ذلك المنع الإلهي والصد، والوصول إليها في ذلك الوقت الذي كيفه السعد، والأوان الذي جرى على تقديره الحزم والجد، وخلص لله تعالى في إعلاءِ كلمته، وإطفاء متوقد

شعلة الباطل وحيرته، النية الصادقة والقصد. وكان من صنع الله العجيب، أن انتهينا إليها عند بلوغ زرعها إلى حال الكمال والطيب؛ فحماه الله من اختطافهم، وصانه على أربابه من اعتدائهم وإتلافهم، وصيره رزقا واسعًا لأحزابه المؤيدين موزنًا بجمعهم وايتلافهم؛ وكانت خيبة الأشقياء منه سببًا لتشتتهم واختلافهم، وصاروا إلى جوعٍ أشفوا به على تلفهم وانجعافهم.

وكان هؤلاء الأشقياء المتمردون، والكفرة المنخلعون، من ثوب الإسلام المتجردون، والجنباء المجرون بالخلاء وهم منفردون، والأوباش المتظافرون، على الحرابة المتعاقدون، قد استنزلهم الشيطان وأغواهم، واستجرهم الطمع المهلك واستهواهم، وصور لهم أن لا قامع يقمعهم فأضلهم وأرداهم. ولما أذن الله تعالى بهلكهم، وقضى بقهرهم على أيدي أوليائه المظفرين وعركهم، وإراحة هذه الجهات مما دهاها من زورهم وإفكهم، عزم الموحدون أعزهم الله على النهوض إليهم إلى محال قرارهم، وغزوهم في عقر ديارهم، واستعانوا بالله تعالى على إبادتهم ومحو آثارهم؛ فنهضوا من تونس كلأها الله ودلائل نجحهم صادقة، وأعلامهم بالفتح والتأييد خافقة، والنفوس بنصر الله وعونه واثقة، وتيسيراته سبحانه مضايفة للرجاء في فضله وموافقة. ولم يكن التفاتٌ في هذه الحركة السعيدة إلى عدد وعُدة، ولا استظهارٌ بقوة ولا شدة، ولا تعويلٌ على ما تسكن إليه النفوس البشرية من ركون إلى ما عند الأجناد، وأبناء الطعان والجلاد، من بأس ونجدة، بل توحد الاتكال فيها على الله وحده، واستحكمت النية الخالصة في تطلب ما عنده، وتحققت اليقينية بأن الله سبحانه متمم نوره ومنجز وعده، فحقق الله تعالى الظنون. وأرأى من عجائب تسهيلاته الضروب المختلفة والفنون، وأحلَّ بمن حاد عن أمره العزيز، وخلع ربقته من الاعتصام بكهف طاعته الحريز، الحتوف المخترمة والمنون، وأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

وعندما أحس الأشقياء بحركة أهل التوحيد أعزهم الله إليهم، وإطلال راياتهم المظفرة عليهم، وأن أخذة الله الرابية قد أتتهم من ورائهم، ومن بين أيديهم، تحركوا من مواضعهم مخيلين بزورهم، منجرين بحبل غرورهم، منقادين بربق الصغار إلى مصارع تدميرهم، وقدروا فكان حتفهم بحول الله في تقديرهم، وتخيلوا أن كل بيضاء شحمةٌ وكل سوداء تمرة، وتوهموا أن تخييلاتهم الكاذبة تنفعهم كل مرة، وانخدعوا بما أُملي لهم ليزدادوا إثمًا من إمهال وتبرة؛ فسقط العشاء بهم على سرحان، وقادهم الحين المتاح لهم بأرسان وأشطان، وعُوّضوا مما قدروه من انتهاب مقر الجلاد ومر الطعان، وأعمال ظُبَى القواضب فيهم وعوامل المُرّان؛ وصارت ضروح أشلائهم الممزقة، وأوصالهم المفرقة، حواصل الطيور وبطون الذؤبان.

ولما وصل الموحدون أعزهم الله إلى القيروان كلأها الله رأوا أن يقدموا الإنذار إليهم، ويقيموا الحجة عليهم، ويسلكوا على سنن الشرع في تقرير الدعوة إلى الله تعالى وإلى رسوله وبما جاء به لديهم؛ فكفروا نعمة الرفق بهم وغمطوها، وازدروا المنة بذلك عليهم وسخطوها، وجهلوا قدر المنحة الميسرة لهم فلم يتلقوها بالقبول ويرتبطوها، واعتقلوا الرسول جريًا على عادة كفرهم، واستمرارًا على معهود خيانتهم وغدرهم، وذهابًا إلى أخفى حالهم المتبرة وأمرهم، ولم يعلموا أن عصا التوحيد تلقف ما يكون من سحرهم، وأن الثقة بوعد الله قد أثلجت صدور المؤمنين بكينهم وقهرهم؛ وكانوا عند احتلال الموحدين أعزهم الله بالقيروان، بجهات وادي ران، وحلوا من هنالك على عادتهم في المخادعة والروغان، وقد أعمى بصائرهم وأبصارهم ما غطى على قلوبهم من الحين وران؛ وكانوا من قبل يموهون على أتباعهم بالمبادرة للنزال، والمسابقة للنضال، ويخدعون الضعفاء ببوارق الزور والخلب والخيال؛ فعردوا تعريد الرئال عن الرئال، وتاهوا في جبرة الجزع والهلع بين لابتي الجنوب والشمال. ثم قصدوا قفصة أعادها الله مخيلين باللقاء عندها، ومشيعين

أنهم يقارعون الموحدين أعانهم الله إن قصدوا قصدها؛ فاقتفى الموحدون أعزهم الله آثارهم إلى مقربة منها، وأخذوا على طريق لم يخطر ببال الأشقياء السلوك عليها، ولا احتلج في صدورهم اهتداءً إليها؛ فسقط في أيديهم، واختلت أراؤهم واضمحلت دعاويهم، وتوفرت على الهرب إلى قابس كلأها الله هممهم الفسلة ودواعيهم، والأقدار تسوقهم مصارعهم أحث سوق، وتعوقهم على الفرار بكل عوق، والشيطان يخيل لهم الاستقلال بما لا قِبَل لهم به ولا طوق، حتى انتهى بهم السير إلى حمة مطماطة حيث حُمَّ حمامهم، وتصرمت أيامهم، وتزلزلت أقدامهم، وملأت الأباطح والربى أجسامهم المعفرة وهامهم؛ فألقوا بها حرانهم، واستصرخوا صعاليك سُلَيْم وذؤبانهم، وكل من وافقهم على ضلالتهم من الأعراب وأعانهم، من أهل الباطل وأعوانهم؛ واستمطر بعضهم من نصرة بعض جهاما، وهز كلٌّ منهم عليه سبحانه وإقداما؛ فعادت بعون الله بسالتهم جُبنًا وإقدامهم إحجاما.

واستمر بالموحدين أعزهم الله مسيرهم المبارك في اتباعهم إلى مقربة من الحمة المذكورة فضربوا أبنيتهم، وباتوا هنالك ليلتهم، وجددوا في جهاد أعداء الله نيتهم، وصدَّقوا عزمتهم، وأصبحوا على بركة الله وعونه وقد استعدوا للمكافحة وتأهبوا، واستلموا للمماصعة وتلببوا، وترتبوا ترتبا أقرَّ عيون المسلمين وتكتبوا، وساروا إلى عدوهم والتوفيق يسعدهم، والعون الإلهي ينجدهم، والاستسلام إلى الله تعالى يرشدهم ويسددهم، وصرف الحول والقوة إليه سبحانه يُعينهم ويؤيدهم، وأعداء الله قد أطغاهم الانجرار، وثبطهم لهلكتهم الاغترار، وصرَّفهم القدر عما كانوا معولين عليه من الإباق والفرار؛ فاحتفلوا في إظهار جمعهم الفليل وترتيب حزبهم الحقير الذليل، واعتمدوا على ما أرداهم من التمويه والتخييل، وهيهات أن تثبت عند الحقائق من خفرات الأباطيل! وعندما ناوشتهم سرعان الأجناد، وشاهدوا ما أذهلهم من صدق القراع والجلاد، وتبينوا ما أجمع أولياء الله عليه من الحرص على

الشهادة والرغبة في الجهاد، تزلزلوا تزلزل الذئاب من الآساد، وأنى تستقر لسطوة الليوث الغُلْب قلوب النقاد؛ فلاذوا بالفرار، واستسلموا لحكم الشفار، وتخيلوا النجاة في تولية الأدبار؛ فأتبعهم أولياء الله يقتلونهم في كل غور ونجد، ويجدلونهم في كل ربوة ووهد، ويصرعونهم بحيث ما تيمموا من منتحى وقصدْ، ولاقت ريحهم إعصارا، وصار نبعهم بزعمهم مرخًا وعفارا، وما زادتهم جموعهم المضللة إلا تبارا، وعاد ما قدروه من نجاة هلكةً وما أمَّلوه من ربح خسارا.

واستمر الموحدون أعزهم الله على اتباعهم سحابة يومهم وليلتهم، وسيق العدد الجم من رءوس أبطالهم وخيلهم، والناجون منهم بجريعة الذقن وهُمُ الأقلون يدعون بثبورهم وويلهم، قد أرتهم الأحوال حقائقها، وأذهبت عنهم الأيام مخارقها، وأذاقتهم محنها الكريهة وبوائقها، وعرفتهم مذاهبها في إهلاك من عاند أمر الله وطرائقها. وما لهم بعد هذا الأخذ الوبيل وزر، ولا عين تبقى لهم بفضل الله ولا أثر، ولا ضرمٌ يكون لحرابتهم بعد هذا الإثخان فيهم ولا شرر، بعون الله ومنّه. والطلب لا يني في أثر من بقي من حثالتهم، واستيصال من اغتر بجهالتهم، وانخدع بسراب محالهم وزور ضلالتهم. وأمرُ هذا السؤر الندر منهم حدٌّ يسير، وتطهير هذه الأرجاء من غيرات أدناسهم بحول الله غير عسير؛ فلم تُبْقِ هذه الحركة منهم بحول الله إلا كل منحوب الفؤاد حسير.

وفي صبيحة الليلة التي أذل الله في يومها الأشقياء، وأعز فيها الأولياء. ومنحهم الظفر عليهم والاستيلاء، وهو يوم الخميس العاشر من شهر تأريخه. وصل إلى قابس كلأها الله فلحين الأطلال عليها خرج أهلها راغبين في الأمن والأمان، مُعلنين بكلمة التوحيد والإيمان، مُتطلبين لعوائد هذا الأمر العظيم في العفو والإحسان؛ فشملهم من الرفق والأمان ما أقرَّ قرارهم، وعمَّر بالسكون والهدون ديارهم،

واستقبلوا في ظل الدعة والعدل أيامهم المستجدة وأعمارهم.

وكان بقابس بنو الشقي قراقوش وأهله، وجملة ما قمشه انتهابه وضمه حبله؛ ومعهم جماعةٌ من أوباشه الذين يعتمد عليهم، ولا يثقُ بأهله وولده وماله إلا إليهم؛ فتحصنوا بقصبةٍ بها منيعة الجواب، سامية المراقب، مستصعبة على المنازل لها والمحارب، وأجمعوا على الاستماتة فيها؛ فأحدقت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحيها واستنزلوا منها على الأمن في رقابهم، واستقصاء كافة أموالهم وأسلابهم، واسترقاق نسائهم وأبنائهم وعيال من شهد الوقيعة من مقتولهم وهرابهم. وحصل أهلُ قراقوش وبنوه وماله غنمًا لأولياء الله ونفَلا. وملكًا لطائفة الحق وخوَلا.

وهذه المدينة العتيقة روحُ هذه الجهات الإفريقية ومعناها، وقُفْلُها الذي يحمي حوزتها ويكفُّ عداها، ومنعتها التي لا يتهيأ لمُفسدٍ أن يتخطاها إلى أذيتها ويتعداها، وما تمشي للإغزار أبادهم الله ما تمشى إلا بملكها، ولا توصلوا إلى ما اغترهم إلا بانتثار سلكها. وهي جامعةٌ مع هذه الفوائد الجمة، والمنافع الكاملة المستتمة محاسن يروق الناظرين رواؤها وتملأُ الأعين بهجتها المؤنقة ولألاؤها، يتفجر خلالها الماء العذب، ويتلقى بها الركاب والركْب، وتحدق بأرجائها الجنات الألفاف والحدائق الغلب، وتجتمع فيها أصناف الثمر المتخير والحب. وقد طهرها الله بانتظامها في سلك التوحيد، وإعادتها إلى هذا الأمر السعيد، واستنقاذها من لص الفتنة الغوي وشيطانها المريد. وكان من صنع الله الذي لم يُدْرَ في خَلَد، ولا يُسببه إلا التوكل على الواحد الصمد، أن لم يفقد من الموحدين أعزهم الله أحد، ولا انتقص لهم بفضل الله عدد، ومن خصائص توطد هذا الأمر العزيز على الأطوار وتجدده، وعلامات تمكنه مع تعاقب الأدوار وتأكده، وتمام ما وُعد به من دوامه إلى يوم الدين وتمهده، أن ذخر الله قتال الطوائف التي قوتلت في بدء الإسلام، وقام عليهم في دعوة أمر الإمام،

وهُم الفُرْس المجوس والفسقة أهل اللثام، وفي ذلك بصائر لأولي الأحلام، واعتبارٌ بيّن لذوي الألباب المدركة والأفهام.

وعرَّفناكم وفقكم الله بهذا السرور المتتابع، والفتح الناظم لأسباب الخير الجامع، والظفر المروي لغلل النفوس الناقع، لتأخذوا من الحظ فيه بأوفر نصيب، وتضربوا في المشاركة بالابتهاج فالمسرة بسهم مصيب، وتشكروا الله تعالى على ما أرى الأعداء من هولٍ ماحق ويومٍ عصيب. فاستقبلوا وفقكم الله هذه النِعَم بواجب شكرها، ووفوها حق بثها ونشرها، وافعموا أرجاءكم ونواحيكم برياها العبق ونثرها، وأجيلوا في نواديكم ومحاضركم، وبين بواديكم وحواضركم، قداح التحدث بها وذكرها، إن شاء الله تعالى؛ والربُّ سبحانه يجعلكم من الشاكرين لنِعَمِه، المتحدثين بآلائه وقِسَمِه، المستدعين بحمده سبحانه عوارف جوده وكَرَمه، بمنه وفضله؛ لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ونُفِّذ من نفزاوة كلأها الله في الثامن عشر من شعبان المكرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الحادية والثلاثون

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن مخشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بتونس أدام الله كرامتهم بتقواه، وأعانهم على شكر ما منحه من فضله وآتاه، وتابع لهم المسرات بترادف فتوح هذا الأمر العزيز وبشراه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونِعَمه، ونصلي على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي واتر لهذه الدعوة العلية فتوحه السنية ووالاها، وقرب لها الآمال القصية وأدناها؛ وتمم عندها نعمه الجمة ووفاها؛ وأجزل عطاياها من مِنَحه الجسيمة وسهاها؛ وسهل لها مراماتها على أفضل ما يتهنأ متخيرٌ أن يكون وسناها؛ وقضى أن يكون في إعلاء كلمته، وإذلال أتباع الباطل وشيعته، قصدها المحتسب ومسعاها؛ وقرن بالتوفيق والتأييد، وانتظام الأغراض على أتم مراد المريد. مبادي مآخذها الميمنة وعُقباها؛ وجعل إلى المآل الميسر، والمصير المضلل المدمر، مغبة مشاقيها وعداها، وأذل فئتها الخاسرة بأيدي أوليائه المريدين وأخزاها، وأوقفها على عاقبة هلكها ورداها، وروى من دمائها المُسالة قناها، وحكم في طلالها المذالة صوارمها العضبة وظباها، وكشف غماء شركهم وغيابة زورهم وإفكهم بحقها الواضح وجلاها، وأراح بنظرها السعيد، ورأيها الموفق السديد، كرب هذه البلاد وباراها، وأبرأها من عللها الفادحة وشفاها، ونقع بزُلال المنّ، وسلسال العدل والأمن، غللها المُبرحة ورواها؛ والصلاة على

محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، مُبصر الأمة من عماها، ومُجلي غيهب الحيرة ودُجاها، ومُرشد الكافة إلى سبيل هُداها، ومُعرفها بخيبة من أوبق نفسه ودساها، وفلاح من طهرها بالطاعة وزكاها، ومُزهدها في عاجلةٍ قصيرٌ مداها، قليلٌ نداها، نزيرٌ جناها، مُعتصر بيد الاسترجاع والانتزاع عطاها النزر وجداها، ومُرغبها في آجلةٍ لا نفاذ لرزقها ولا انقطاع لمحياها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذ ي أعاد ملته الحنيفية وأحياها، وأظهرها وأبداها، وأوضحها بيضاء نقية بعد أن حجبها الجهْلُ وغطاها، وصيرها بينة جلية وقد كان الضلال أضمرها وأخفاها، وحد الكافة على مصالح دينها ودنياها، ودعاها إلى ما يحييها وينجيها وهداها؛ وعن صاحبه الأهدى، وخليفته الأعدل الأتقى، سيدنا الإمام أمير المؤمنين أحق البرية بخلافته العلية وأولاها، ومُمشي كلمته المهدية إلى غايتها الشريفة ومُنتهاها، ومُرقيها في درج النماء والعلاء إلى أبعد مرقاها، وأصعد مسماها، ومُؤدي تعليماته النافعة، ومقالاته الناظمة للخير الجامعة، كما سمعها ورعاها، والمُناضل بالأدلة الباهرة، والأسنة الباترة، كل من عاندها وأباها، حتى استقرت في نصابها الأكرم ومعناها، واستمرت على نهجها الأقوم ومغناها، ملقيةً أزمتها إلى من يحفظ حوزتها ويحمي حماها؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين وارث مقاماته الكريمة وعلاها، ومُشيد أركان مآثره العميمة ومبناها، بدوام سعوده الصاعدة وبقياها، وترادف الفتوح المتناسقة، لدعوته السامية السابقة، موفيًا على أولاها أخراها.

وهذا كتابنا إليكم -عرَّفكم الله من فتوح الأمر العزيز ونشره، ومحمود مقاماته في نصرة الدين وجميل إثره، ما يفعم أرجاءكم بطيب عونه الأرج وعطره، ويملأ مسامعكم بمتعذب مسموعه الذي لا يُمَلُّ وخبره، ويُوزعكم شكرا يؤدي حقوق ما أولاكم من خصائص الاستناد إلى طائفته المنصورة وأثره- من مَنْزِل الموحدين

أعزهم الله بظاهر قفصة فتحها الله والذي نوصيكم به تقوى الله، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تُوقنوا بأن لله تعالى في طي محاولات هذا الأمر العزيز أسرارًا يُمحص بها عباده، ويحقق رجاء من أخلص نيته في التوكل عليه واعتقاده، واحتسب في طاعته، وابتغاء مرضاته، سعيه وجهاده، وألقى مستسلمًا في يد الرضا بما اختاره الله لأمره العزيز زمامه ومقاده، وعلم أن الله جلت قدرته لا يخذل أمره ولا يخلف ميعاده، ليزداد المؤمن إيمانا، والراضي بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا تسليمًا وإذعانا. ويثق بنجاز ما وعد من إظهار دعوته، وإعلاء كلمته، ثقةً لو كشف له الغطاء معها ما ازداد إيقانا، ولا يطلب على ما ثبت منها في روعه، وانطوت عليه أحناء ضلوعه، دليلًا وبرهانا، والله يجعلنا ممن استدام بالشكر الأتم ما أنعم به إسرارًا وإعلانا، بمنه وجوده.

وكانت وفقكم الله هذه الحركة المباركة مبنيةً على التجرد فيها لقمع المعتدين، ووقم العابثين والمفسدين، والقيام لله تعالى بما أوجب من حماية الحق ونصرة الدين؛ فسنَّى الله سبحانه فيها من التيسيرات الخارقة للعادة، المربية على أقصى الفتوح ونهاية الإرادة، والمكيفة على أوفى متخير من تأتي الآمال المصحبة المنقادة، الجارية على إدلالها في عموم الخير وانتظام السعادة، وتعرف النماء في كل حالة وظهور الزيادة، ما شفى صدور المؤمنين، وصدق ظنون الموقنين، وحقق الثقة برب العالمين، وعرَّف أن العاقبة للمتقين المحسنين. ولما منَّ الله تعالى بدمار الأعداء وتبابهم، وقضى بقهرهم على أيدي أوليائه المؤيدين وغلابهم، وصيرهم إلى عاقبة خسرهم وسوء مآبهم، وأراح هذه الأصقاع من إشاباتهم الخبيثة وأوشابهم، على ما تقدم به إليكم خطابنا، وتضمن شرحه أرسالنا الواردون عليكم وكتابنا، نهض الموحدون أعزهم الله من قابس كلأها الله آخذين على صحرائه، وقاصدين إلى البلاد الجريدية من ورائها، على طُرق لا عهد لها بالعساكر، ولا علم فيها لعامر، ولا منفذ أمامها لوارد ولا صادر،

بحيث منقطع التراب، ومتصل القفر اليباب، ولا ماءٌ ينبع في الأرض ولا يستقر من صوب السحاب، وإن سلكوها لمن العجائب العجاب، وآيات هذا الأمر الميسر الطلاب، المذكر ببراهينه الواضحة لأولي الألباب، المنصور اللواء الممكن الأسباب.

وعندما شارف الموحدون أعزهم الله الجهات المذكورة جاءت الفتوح تبارى في شدها، وتُنظم لآلئ الأقطار الجريدية في عقدها، وتنجز لأولياء الحق وأنصاره صادق وعدها؛ واستُنقذت نفزاوة وقسطيلية كلأهما الله من وبش الفتنة ووعدها. وألقت بلاد نفزاوة وتوزر وتقيوس والحمة ونفطة بأزمتها، وتطلبت من هذه الدعوة العلية معلوم منتها، واستنزلت بتحقيق توبتها متعارف رفقها ومعهود رحمتها، وحققت أنها لم تُبدل دينها ولا فارقت إيمانها ويقينها في حالتي سكونها وفتنتها، فعمهم من هذ الأمر العزيز وأمنه ما مهد أرجاءهم، وصدق في فضل هذا الأمر العظيم رجاءهم، وعرَّفهم ببركة ما أمهم من الخير العميم وجاءهم. وثاروا بمن كان عندهم من الأشقياء يقتلون فريقًا ويأسرون فريقا ويوسعونهم تشتيتًا بجموعهم اللئيمة وتفريقا، ويوردونهم بإرهاق نفوسهم الخبيثة سعيرًا لا يخبو اتقاده وحريقا. وكلما مر الموحدون أعزهم الله ببلد من هذه البلاد المذكورة كلأها الله أتوهم بالعدد الجم من أساراهم وبقاياهم؛ فتقط الرقاق طلاهم، وتنظم الصِعادُ كُلاهم.

وكانت بتوزر منهم جملةٌ ذميمة فادرع بعضهم جنح الظلام وفروا من الحمام إلى الحمام، وتوغلوا في الصحراء المهلكة كشارد الأنعام، والله يعجل لهم ولمن أمهله الأجل من حثالتهم بوادر الانتقام، ويجرعم كما عوَّد بأيدي أولياء هذ الأمر العزيز أكؤس الموت الزؤام، بمنه وجوده. وتركوا جميع أحوالهم وأموالهم، وكافة ما تأثلوه من أثاثهم وأثقالهم، ونفل الموحدين عامة أسلابهم وأنفالهم، وملَّكهم رق أهليهم وبنيهم وعيالهم؛ وأجْلَت بهم الغِيَر مثلاتها، وأرتهم العِبَر عجائبها الغريبة وآياتها،

ونفَّس مهلهم القدر إلى انتزاع أرواح الخبيثة لأجلها المكتوب وميقاتها، بحول الله وقوته.

وهذه البلاد الجريدية لم يكن الوصف يعرب عن صفتها، ولا يؤدي كنه صورتها، ولا يطلع السامع على ما يجتليه المعاني من حقيقتها، وغاية كل عبارة وإن بالغت التقصير على تبيين جليتها، فحققت المشاهدة أنها إقليمٌ متسع الأكناف، رحب الأوساط والأطراف، كثير المنافع والمرافق والألطاف، جم الحدائق الغُلْب والجنات الألفاف، وكل مدينة منه مستقلة بذاتها، مكتفيةٌ بأقواتها، مستغنيةٌ عن غيرها بما جمعت من ضروب غلاتها، محتاجٌ إليها لما يُجلب منها من أنواع فوائدها وصنوف ثمراتها. وتوزر حاطها الله حاضرة هذا الإقليم العظيم وقطبه، وروحه وقلبه، ومركز دائرته الذي عليه يستدير محيطه وبالاستناد إليه يتمهد رحبه؛ وقد توطدت بعوده إلى هذا الأمر العظيم أقطاره، وعُمَرت بالأمنة والهدنة دياره، وطُهرت أدناس الكفر من أرجائه ومُحيت آثاره، بحول الله وقوته، وجوده ومنته.

واستمر بالموحدين أعزهم الله سيرهم المبارك من توزر حاطها الله إلى قفصة أعادها الله؛ فألفوا بها جملةً ذميمة من أشقياء الأغزاز وأتباعهم قد ران على قلوبهم هواهم، واستغواهم الشيطان واستهواهم، وسول لهم مغالبة الغلاب فوعدهم غرورًا ومناهم؛ فأظهروا ما عندهم من الامتناع، واستشعروا شعار المصارمة والدفاع، واغتروا بجدراتهم الساميةَ الارتفاع؛ وهيهات أن تعُزَّ هذا الأمر العزيز شامخات البواذخ وطامحات القلاع؛ فعزم الموحدون أعزهم الله على منازلة هذا المعقل وحصره، واستعانوا بالله تعالى على أمره، وسألوه سبحانه معهود تسهيله كما عوده ويُسره، ومرامه بحول الله أيسر محاول وأقرب متناول، وأدنى مروم وأسهل مزاول، بحول الله وقوته.

وفي يوم الحلول به وصل خطاب قراقوش وأرساله راغبًا في التوحيد خاضعا، مادًا يد الاستكانة إلى هذا الأمر السعيد ضارعا، معلمًا أنه إن قُبلَت توبته، وأُجيبت رغبته، جاء إلى الموحدين أعزهم الله مطيعًا سامعا. ووصلت في غده أرسال أبي زيان ومخاطبته مُعرفًا بركونه إلى هضبة هذا الأمر العظيم وركنه، واعتلاقه بذمة أمانه وأمنه، وإيوائه إلى كهفه الأرقى وحصنه؛ وهو زعيمٌ من زعماء الأغزاز يُضاهي قراقوش في قدره، ويُقاسمه في أمره. وكان قد انتبذ عنه أنفةً من مشاركته، وعزمًا على مصارمته ومتاركته؛ واستبد بطرابلس كلأها الله ونواحيها، وأظهر دعوة التوحيد فيها، وصارت والحمد لله هذه البلاد كلها إلى معهودها من الطاعة، والانتظام في سلك الجماعة، والفيئة إلى ملكة هذه الدعوة العلية المطاعة، وأفاقت مما خامرها من الأدواء، وأفلتت من سقم الفتنة المُعضل ودائها العياء. وكمل المقصود لها من تمهيد الأكناف وتوطيد الأرجاء، وتأمين الجهات وسكون الدهماء، بفضل الله ذي المن والآلاء.

وعرَّفناكم وفقكم الله بهذه الفتوح الجمة التي عظمت قدرا، وأعجزت حمدا وشكرا، وخرقت العوائد تسهلًا غريبًا ويُسرا، لتضربوا بقداح المساهمة فيها، وتذيعوها في أداني جهاتكم وأقاصيها، وتجددوا حمد مُحولها حلت قدرته ومولِيها، وتقوموا بالواجب من شكر مُسبيها سبحانه ومسنيها، والله تعالى يعينكم من ذلك على ما يتكفل لكم بتضاعف نعمه عليكم وتواليها، بمنه وجوده، لا رب غيره. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتب في الثاني من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثانية والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، ووالى عليهم من فتوح هذا الأمر العظيم وبشراه، ما يُربي على أُولاه أخراه، وتكرم مغبته وتحسن عقباه. سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعدُ فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونِعَمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي فرَّج لهذا الأمر العزيز مُبهمات المغالق، ودكدك لوطأته وسطوته، مُشمخرات الشواهق، واستنزل العزة ورهبته، من اعتصم بشُم البواذخ وطامحات الحوالق، وحكم بإعلاء كلمته، واستيلاء أمره المؤيد وملكته، على من ترفل في اليفاع الممنع أو توغل في البيد السمالق، وحكم صوارمه البتار في طُلَى كل مازق، وروى مُنْفصله الظميء وأسَلَه الحران من علق كل منافق، وأحل بمن عاند أمره العظيم، وخالف نهجه القويم، مُجْحفات البوائق، ومستأصلات المواحق، وقضى لدعوته المهدية، وإيالته المظفرة العلية، في إله السابق ووعده الحق الصادق، أن يبلغ ملكُها الثابت القواعد، وأمرها المحكم المعاقد، ما روي لنبينا صلى الله عليه وسلم من المغارب والمشارق؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أذهب الله بنوره كل مظلم من الكفر غاسق، وجعل شرعه الحنيفي، ودينه الواضح الجلي، آخر ماحٍ للشرك ماحق، وألزم ملَّته الخاتمة للملل، وشريعته الناسخة للأديان والنِّحَل، كافة الخلائق،

ودعا الأحمر والأسود إلى ما يُحييهم ويُنجيهم من توحيد الباري الخالق، وتمجيد الواحد الصمد الرازق؛ وعلى آله وصحبه الكرام البررة الأصادق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُبيد المخارق ومُعيد الحقائق، ومتلافي رمق الدين الزاهق، والمُحيي من شريعة جده عليه السلام ما أماته كل جاهل مائق، ومصيرها بعد الدروس والطموس إلى أصلها الراسخ وفرعها الباسق، ومُبديها عِضةً جديدةً تلوح في جمالها الرائق، وكمالها الفائق، لكل موفق ناظر بعين البصيرة إليها رامق؛ وعن خليفته الأهدى، وصاحبه الأكرم الأرضى، سيدنا أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز على نهجه الواضح الطرائق، ومبلّغه إلى غايته الشريفة المبادئ واللواحق، والحائض لأسمائه وإعلائه نجم المضايق وغمرات المآزق. والمُناضل دونه أعلام المهارق، وبُهَم الفيالق، بكل دليلٍ قاطع وغضبٍ فالق، وحتى خَرِسَت هِزَةُ الشقاشق، ببرهانه الباهر الفارق، وانحسمت علل العلائق، بسنانه الباتر الخارق، وانقاد لحقه الواضح كل جامح ورجع إلى جماعته الدينية كل مفارق، وخلَّص أمره العزيز من شوب الشوائب وعوق العوائق؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين، وارث مقاماته السوامق، ومآثره البواسق السوابق، ومتقبله في كريم الضرائب وعظيم الخلائق بنصرٍ مؤازر وسعدٍ مرافق، وفتحٍ مصاحب وظفرٍ موافق، وجدٍّ يقضي بتأييد لوائه الخافق، على كل خارج عن طاعته ناعق، ما اطرد بزوغ البازغ ودرور الشارق.

وهذا كتابنا إليكم -أسمعكم الله من تواتر البشائر، وتقاطر فتوح هذا الأمر الظاهر الظافر، ما تستغرق بالمسرة به أوقاتكم، وترتفع بالشكر لمُسَنّيه أصواتكم، ويطول لمُوليه سبحانه تضرعكم في إدامته وإخباتكم، ويُعيد عليكم من السكون والهدون ما تؤهّل به حِلالُكم وأبياتكم، ويطيب معه في ظل الأمنة ومهاد الدعة عيشكم الأرغد وحياتكم- من قفصة مهدها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى،

والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، ونحن نحمد الله تعالى على ما عرَّف أولياء دينه وحُماةَ دينه من إظهار وإعلاء، وتسديد مذاهبَ وتأبيدِ آراء، وتيسير مآرب وتيمين أنحاء، وقهر مُناوين وكبتِ أعداء، وإصحاب أمره العزيز الإنجاد والإسعاد، أية سلك، وإشعاره التوفيق والإرشاد، فيما أخذ أو ترك، واقتران التيسير والتسهيل بمحاولاته والنجحُ والحمد لله يضمن النيل لمطالبه والدَّرَك.

وإلى ذلكم وفق الله مقصدكم، ويمَّن في طاعته مصادركم ومواردكم فقد تقدمت مُخاطبتنا إليكم بنُبذٍ مما سناه الله تعالى في هذه الحركة السعيدة ويسَّره، وقضى به من قهر أعدائه وقدَّره، وأبداه سبحانه من عنايته بهذا الأمر العظيم وأظهره، وعقَّب وفقكم الله تلكم الفتوح العظيمة، والمنوح الجسيمة، والعوارف الجمة، والمواهب الكريمة، فتح هذا الأبلق الفرد، والمرقب المتجاوز في الحصانة كل حد، والعَلَم الباذخ والخصم الألد، المُدافع من رام نزاله، وحاول قتاله، بألسنة لُد. وكان فيه على ما أعلمناكم به ضروب من الفسقة وأصناف، وأوباش جمعتهم الفتنة وأخياف، وأغمار استجرهم الطغيان وأحلاف، ولصوص نظمهم على الحرابة، وصرفهم عن التوبة والإنابة، الشقاق والخلاف؛ فركبوا في العصيان رءوسهم، وبذلوا في طاعة الشيطان نفوسهم، ولم يفارقوا وقد أرتهم الحقائق وجوهها، وحذرتهم الأيام صروفها، تلبيسهم وتدليسهم؛ وتتابعوا على الهوى في مساقط الردى، وهُدوا فاستحبوا العمى على الهدى، وتجاوزوا في الانخداع بجدراتهم المنيفة، والاستنامة إلى خنادقهم المطيفة، كل غاية ومدى؛ فسُلِك معهم على مناهج هذا الأمر العزيز في إقامة الحجة، والدعاء إلى سواء المحجة، وبُذِلَ لهم من العفو والتأمين، في النفوس والأموال والأهلين، ما تسكن إليه نفوسُ المؤمنين، وتطمئنُّ به قلوب الموقنين، وتنشرح له صدور الباخعين بالطاعة المذعنين؛ فأصمهم العين وأعماهم، وغرهم أملهم الكذوب واستهواهم، وغلب للشقوة الغالبة عليهم على عقولهم

هواهم. فلجُّوا في طغيانهم، واستمروا على خذلانهم؛ فألقوا بمقاليدهم وأشطانهم إلى مغويهم المُضل وشيطانهم.

فرفهنا الموحدين أعزهم الله عن قتالهم، ورَبَأْنا عن مصاعهم ونزالهم، ورأينا أن محاربتهم بالآلات المتخذة أبلغ في نكايتهم وإذلالهم، وأسرع في إبادتهم بعون الله واستئصالهم، وأُخِذ فيما يُمهد مقام الموحدين أعزهم الله من تأمين المذاهب، وتسكين المسالك والمسارب، وحسم كل ما يتوقعه كلُّ جاءٍ وذاهب، من العوائق في طرقه والنوائب. فدرَّتْ.....[1] من كل الجهات والجوانب، وكثرت الأقوات والمرافق بسَبْق السابق وجلب الجالب، ولم يعدم الموحدون أعزهم الله عيشةً واسعة، وخيرات متتابعة، وأحوالًا ناظمةً لكل خير جامعة؛ وضاعف الله أجورهم صومهم وإفطارهم، وعدُّوا مُدة رباطهم أفضل ماضٍ من أعمارهم، واحتسبوها عند الله تعالى أزكى أعمالهم وأنفع أذخارهم. وشُرع في إقامة الآلات المذكورة على اختلاف ضروبها وأشكالها، وبولِغ في تمام أوصافها وكمالها، وتُوُخيَ فيها أن تكون على أحسن ما عُهِدَ من أحوالها، فاجتمع منها فوق ما كان الظنُ يقضي بوجدانه، وتُعجّل في أسرع أوقاته وأعجل أحيانه، وتهيأ المراد منه على معهود هذا الأمر السعيد في تيسير مقامه وإمكانه. ونحن نتخيل في خلال محاولتها أن ينوب للمردة ثائبُ استبصار، ويزعهم وازع إقلاع على الغواية وإقصار، ويصرفهم عن الارتباك في الضلالة، والتمادي على الجهالة، صارفُ ازدجار وادِّكار، فيسعهم العفو الرحبُ المحل الفسيح المضمار، ويروي ظماهم الصفحُ الشاملُ بكل ديمة هطلاءَ وواكف مِدْرار؛ فرانَ على قلوبهم ما أرداهم من الإهمال والاغترار؛ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار؛ وما ازدادوا إلا ضلالا وخبالا، وتماديًا في الغي واسترسالا، وإضاعةً

(١) هنا وقع قطع نحو نصف سطر في الأصل المنقول عنه.

لحظوظهم الدينية والدنياوية وإهمالا؛ ووعدُ الله يأبى إلا أن يوبقهم بما كسبوا، ويذيقهم وبال ما حملوا من الأوزار واحتقبوا؛ وظنوا أنهم مانعَتْهم حصونهم من الله فأتاهم.....[1].

وفي أثناء ذلك شُرع في العمل بالآلات المذكورة فنُصَبتْ إليهم مجانيق، يُنْهَد من جنادلها النيق، ولا يَبِلُّ كليمُها ولا يستفيق، فيذهب بها كل يوم منهم ومن أسوارهم طائفةٌ منهم أو فريق، ويُصبُّ عليهم منها عذابُ واصبٌ وحريق، وتُصيبهم منها صواعقُ لا تستطيع نفوسهم المحروبة، وقلوبهم المنحوبة، صبرًا على إحمال بلائها المُهلك ولا تطيق. واستمرت مدة على نكايتها فيهم، وقتل مقاتلتهم وهدم مبانيهم، وأحدق بهم أذاها الملازمُ من جميع أرجائهم ونواحيهم، حتى ألحقت بالأرض مسافات من جدارهم، وثلمت فرْجا جمًّا في أسوارهم، وهدمت عددًا من أبراجهم الشاهقة وديارهم، وآذنتهم بتبابهم وأشعرتهم بدمارهم. وكان لها من عظيم الأثر وكريم الغناء، ما لم يُعهد في سالف الأزمان والآناء، ولا تيسَّر ببركة الأمر المطرد التجدد والنماء، الدال بتصرف حالاته، وتطور مآخذه في جُزئياته وكلياته، على ما لله تعالى به من الاعتناء، وأنه المؤيد العزائم المسدد الآراء، المظفر الأحزاب المنصور اللواء.

ولما تُمم بعض الآلات المباركة وكُمّل، ووُشح بضروب الأسلحة وجُلّل، وسُتّر بأنواع الخيس الواقية وظُلّل، قُرّب إليهم لردم حفيرهم وتسهيل الطرق إلى هلكهم وتدميرهم؛ فللفور تمكن الموحدون أعزهم الله من خندقهم وسورهم، وأذهب الله ما كان في ظنهم أنهم لا يُرامون وتقديرهم، وهناك أذاقهم المنون، مُرَّ نكالها، وعرَّفتهم الحرب الزبون، عَرْكَ الرحى بثفالها، وأرتهم عين اليقين، حقيقة اصطلامها

---

(١) بتر نحو كلمتين أو ثلاثة بسبب القطع المذكور.

واستئصالها، وعرَّفتم وخيم مراتعهم في الضلالة وذميم مآلها. وأُدني البُرج المبارك إليهم يسير إدناء، فأطل على أرجائهم إطلال الفتخاء، وخات عليهم فرَغَا فوقهم سقفُ السماء، ورُمُوا منه بالموت الزؤام والداهية الدهياء، وكان وإياهم كالبازي المصرصر فوق نبات الماء، وتيقنوا بمرآه أن لا طمع لهم في حياة ولا أمل في بقاء، وأنه يستأصل ما أسارت المجانيق فيهم من رمق وغادرت من دماء؛ وتهيأ للموحدين أعزهم الله بمكانة توطئته ردمُ الخندق على اعتدال واستواء، وجازوا إلى سِتارتِهم وضرَّموا النار بأعلى برج ابن زواج، وهو بمنزلة الإكليل من المدينة والتاج؛ فاضطرم في جوانحهم من نيران الجزع والهلع كل متوقد وهاج، وتعجل الفتح الميسر فيهم بفضل الله وباج، وعندما تحققوا أن أخذة الله الرابية أحاط بهم سرادقها، وأخذت بمخنقهم مخانقها، وطرَّقتهم بالحوادث النكر والمنايا الحمر طوارقها، وأظلتهم بالأزمات الشديدة، والهلكات المُبيدة، رواعدها المتلفة وصواعقها، وأن هضبتهم المنيعة قد مُلكت عليهم أسوارها وخنادقها، مدُّوا أعناق الاستكانة والخضوع، وأبدوا صفحات الإنابة والنخوع، ولاذوا بالأوبة إلى الطاعة والرجوع، وكثُر في سؤال قبول متابهم استصراخهم وتداعيهم، وأهلّ بالاسترحام والاستصفاح داعيهم ومناديهم، واستنزلوا رحمة هذا الأمر العزيز برفع أصواتهم وبسْط أيديهم، متحققين أن عفوه الواسع أعظم من ذنب مُذنبهم وجناية جانيهم؛ فشملهم عفوه الذي لا يضيق عن مستقيل تائبٍ مجاله، وعمهم صفحه الذي لا يتعذر على مستقبل آئبٍ مناله، وغمرهم منُّه الذي لا تتقلَّص لِمُسْتَفيءٍ زاعبٍ أفياؤه وظلاله. وبُذل لهم من الأمان الأتم ما أقرَّ بجسومهم أرواحهم الداهية، ورد عليهم عقولهم الطائشة وألبابهم الغاوية، وعرَّفهم أن شيمة هذه الدعوة العلية الإحسان والإسجاح وإن كانت المدركة الغالية.

واندرج هذا التأمين على الأغزاز وأتباعهم وجميعهم وجميع أهل قفصة وكافتهم

وعامة من كان معهم من قبائلهم وأهل باديتهم، واستُثْنِيَ المرتدون المارقون، والضالون الميورقيون، وكانوا قد اعتقدوا معهم وارتبطوا، وانتظموا جميعًا في سلك التألف والتعصب وانخرطوا وادَّكروا تأمينهم معهم فيما رغبوا فيه وأشرطوا؛ فروجعوا بأن لا أمان لهم إلا بإسلامهم، وأن رحمة هذا الأمر العظيم لا تنالهم لعظيم اجترامهم، وأن حُكْم الله الحق فيهم تمزيقُ أوصالهم وتضريب هامهم. فلما رأوا عين اليقين أسلموهم وتبرَءوا منهم، واغتنموا سلامة حشاشتهم بالإفراج عنهم، وكانوا عددًا كثيرا، وجمًّا غفيرا، وجمعا كبيرا؛ فغزاهم الموحدون أعزهم الله غزوًا شفى صدورهم، وأذهب غيظ قلوبهم وأعظم أجورهم، وضاعف جذلهم وأكَّد حبورهم. وعاد إلى ملْك الموحدين أعزهم الله هذ المعقِل الأشب، وقفلُ هذه البلاد الممتنع المستصعب، وجامحها الذي لا ينقاد لرائضٍ ولا يصحب، قد سَمَتْ جدارته، واحتمت عن المحاربين جهاته، وحادَّت البروج أبراجه الباذخة وشرفاته، أربى في الإباءِ على كل حصن، وحوى من ضروب الحصانة كل معنًى لا تؤديه العبارة وفن، إذا شاء فيه شارب مد كفه فيغترف الماء الزلال من المُزن؛ ولولا بركة هذ الأمر الذي لا يعاند ما ذل جامحه، ولا تطأطأ طامحه، ولا حوت المتوقلين بأذرائه والمتمنعين بجنباته السامية وأرجائه، أجارعه السهلة وأباطحه؛ وطال ما اتخذ الناس سورَ هذه المدينة وخندقها عُجْبا، واستمر اغترار قاطنها بها سنين متطاولةً وحُقْبا، وظن الجميع من ساكنيها وحاضريها، على تقادم الأيام وتماديها، أن طالبها لن يستطيع لها طلبا، ولا يبلغ من قهرها أملًا ولا ينال من غلبتها أربا؛ فأظهر الله فيها من كرامات أمره العزيز ما صير الثقة بمنعها غرورا، والحديث عن حصانتها كذبًا وزورا، وحقق أن هذه الدعوة المهدية لا تلقى دون مرادها موانع وإن عظمَتْ ولا حجبا؛ وكان في أخذها من انخراق العوائد ما غدا أمرًا موجبا، لثبوت إيمان من ضعف يقينه وسببا. وأيقن أولو البصائر والأبصار، أن حركات هذا الأمر العزيز لا تخلو من اعتبار، ولا

تنفكُّ من تنبه واستبصار، وأنها مع تناوب الأدوار، وتعاقب الأطوار، غير عرية عن إيقاظ العقلاء وادكار.

وبتملكها تمت هذه الحركة المباركة تمامًا على الذي أحسن، وظهر عظيمُ صنع الله فيها لأوليائه المؤيدين وتبيَّن، وتحقق كل مؤمن لطيف عناية الله بهم وتيقن. ولم يبق في هذه الجهات كلها من الأعزاز من ينفخ للفتنة في ضرم، ولا من يستقل للسعي إليها على قَدَم، إذ أذهبت هذه الغزوة المباركة يوم الفتح الأعظم أنجادهم وأعيانهم، وتملَّكَتْ بقابِس وقفْصة أشداءهم وشجعانهم؛ فصار جماهيرهم وأهلُ البسالة والنجدة منهم، خوَلَ الموحدين أعزهم الله وعبدانهم؛ واجتمع منهم عندهم جملةٌ وافرة، وجماعةٌ ظاهرة، وأعدادٌ جمةٌ متكاثرة. وأذهب الله كل ما كان بهذه البلاد من أثر الفتن وغين، وأبطل ما كان عويها المريد يخدع به الضعفاء من شبهةٍ ومَيْن، وتبيَّن برهان الحق الباهر، وصبحُه الظاهر، لكل ذي قلب وعين؛ ومهَّد التقويم تأمينا وعدَّل منآدها، وطرح عن كواهلها ما أثقلها من المحن وآدها، وصيرها إلى معهودها من الهدنة والدعة وأعادها، وظهر من إخوانكم الموحدين أعزهم الله من الإقدام على أعدائهم، والمبادرة إلى مصاعهم ولقائهم، والتعطش إلى إرهاق نفوسهم وإراقة دمائهم، ما حملهم عليه خلوص السرائر، وصحة العقائد والضمائر، واستواء البواطن في طاعة الله تعالى والظواهر. والله تعالى يُذخر لهم أجور احتسابهم، وينفعهم بما قدموه في هذه الغزوة المباركة من رابح اكتسابهم، ويُجنيهم ثمرة مساعيهم الناجحة، وأعمالهم الصالحة، في حالهم ومآبهم، بمنّه وكرمه.

وعرَّفناكم وفقكم الله بهذه البشائر، والفتوح العظيمة الأوائل والأواخر، لتأخذوا من المسرة بها بقسم وافر، وتوالوا حمد الله تعالى على فضله الشامل ومنّه الغامر، وتستوزعوه سبحانه شكر عوارفه المستغرقة حمد الحامد وشكر الشاكر،

ونِعَمِه التي لا يفي بإحصائها عدُّ العاد وحصرُ الحاصر. والله تعالى يجعلكم ممن استدام بالشكر الأتم دون إحسانه السابغ وجوده المتواتر، بمنّه، لا رب غيره.

وكانت وفقكم الله أسوار هذه البلاد لهفةً على ساكنيها، وفتنةً لعامريها وقاطنيها، وسببًا لمحنتهم بكل ناعق يروم الانتزاء والامتناع فيها؛ فَرُب نعمةٍ في طيها نقم، وراحةٍ ينشأُ عنها ألمٌ مُلازمٌ وسَقَم، وحالةٍ تُظَنُّ وجودًا وهي في الحقيقة عَدَم. فأجمع رأي الموحدين أعزهم الله على إراحتهم من شرها، وإزاحة مكروهها عنهم وضرها، وتصييرها في تمهيد أحوال هدنتها، وتوطيد أسباب معيشتها، كسواها من البلاد وغيرها؛ فاقتسموا سورها بالقبائل، وصيروه في يوم أو بعض يوم كرجاف من الرمل سائل. وإن من أعظم العِبَر، وآيات هذا الأمر الكريم الكُبَر، أن يسر هدمه في المدة المذكورة وما كان يظن ذلك به في أمد متطاول؛ والله تعالى يحوط الكافة بنظر هذا الأمر الشامل الكامل. لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثالثة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم بتقواه، وأوزعهم شكر ما منحه من فضله وآتاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونِعَمه؛ ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، والحمد لله الذي رفع بهذا الأمر العزيز قواعد الإسلام ودعائمه، وأبان بإظهاره مناهجه ومراسِمَه، وعفى بهدايته النيرة، ودعوته المؤيدة المظفرة، رسومَ الضلال ومعالِمَه، وقرن بتأييده المتظاهر، وتسديده المنجز المؤازر، مُناجيه وعزائمه، وتحكَّم في أفئدة الملحدين، وطُلى الفسقة المرتدين، مناصله وصوارمه، وهدى بأيدي أوليائه الموحدين، وأشياعه المناضلين في سبيله المجاهدين، مباني الكفر وقوائمه، وقطع بهم علائقه وشكائمه، وقص بنصرهم أية سلكوا وتأييدهم فيما أخذوا أو تركوا خوافي الشرك وقوادمه، وسكَّن بهذه الحركة التقويمية مرتج بحر الفِتن بهذه الأرجاء الإفريقية ومتلاطمه، وأطفأ من سعيرها المحتدمة، ونيرانها الملتهبة الملتطمة، ما أرَّثت الضلالة وقودَه وأججت الغواية جاحِمَه، وأوطأ بسباسبها اللقاح، وفراقدها التي أنفت التجاوز والطماح، سنابِك عرمرمه اللهام ومناسمه، وجعل الجحافل والمقانب، والقبائل الجمة والكتائب، أنفاله ومغانمه، ونظم في حبل مقاده، وعلى طوع إيثاره وحكم مُراده، كماة الأبطال، وآساد النزال، وضراغمه، وأفاء على أحزابه المفلحين، وأوليائه المؤيدين المنجحين،

عجائب النفل وعظائمه، ونِعَمَه الجُمْرَ ونعائمه، وذخر لهم أجوره وأجزل عندهم غنائمه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أزاح الله به سحائب الكفر وغمائمه، وأذهب بنبوءته الخاتمة للنبوءات وشريعته الناسخة للملل والديانات، قوادح الشرك وقواصمه، وأضاء بأنوار حنيفيته السمحة القياد، ونذارته المصلحة المبدأ والمعاد، مسودَّ غيهب العمى وفاحمه؛ والرضا على الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي نظم الله به من روابط العقائد والضمائر، ما حلَّ الضلال مناظمه، وطحر بهديه عن نواظر القلوب والبصائر، متكائف زين الهوى ومتراكمه، وجلى بأضوائه المهدية، وعلومه الواضحة الجلية، مُدَلِهِم ظلام الجهل وعاتمه؛ وعن صاحبه الأهدى، وخليفته الأعدل الأرضى، سيدنا أمير المؤمنين الذي شاركه في نسبه الكريم وقاسمه، وعاونه في تمشية أمر الله تعالى وساهمه، وأعمل في إعلاء كلمته وتمهيد أمره ودعوته قواضبه ولهاذمه؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الممنوح من الانتهاض بخلافته، والوفاء بعظيم أمانته، خصائص الارتضاء وكرائمه، بنصر تمر له السعود المساعدة، والحدود السامية الصاعدة، متصلة ودائمة، وتأييد لا يزال يكبت مقاومه، ويرغم مراغمه، ويستنجز له من وعد الله الصادق ما يُعرفه تصاحب الفتح المبين في كل مروم وتلازمه.

وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من مسرات هذا الأمر العزيز ما تملأ ببشراه أسماعكم، وتعمر ذكراه أصقاعكم، ويجعل على بث منحه ونشرها، وذكر نِعَمه التي لا يحصيها العدُّ وشكرها، انتظامكم أبدًا واجتماعكم، من منزل أبي سعيد يمنه الله ونحن نحمد الله تعالى على ما يسر من محاولات هذه الغزوة السعيدة وسهل، وتمم من أرغابها الحميدة وكمل، وأولى من عوارفه الجسيمة فيها وأجمل، حمدا يكون كفاءً لما خوَّل من إحسانه الأتم وأجزل. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل

بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه.

وكانت وفقكم الله هذه الحركة السعيدة التي آلت بها أمور هذه الأرجاء خير مآلها، وأقرت لها قدوم الكفر بعد تخمطها وصيالها، وأذاقت زعماء الكفرة، وصناديد الفسقة الفجرة، وبال أمرها وصائب نكالها، واسترجعت من البلاد المغتصبة، والأقطار المنتهبة المستلبة، ما امتدت الأيدي الظالمة إلى اختلاسها واغتيالها، على ما أعلمناكم به من التجرد فيها لنصرة الدين وحمايته، وإزهاق الباطل وإبادته، وإحياء الإسلام الذاهب بهذه الأصقاع وإعادته، وتحقيق التوكل فيها على إنجاد الله وإعانته، والثقة بما وعد سبحانه من تبرأ من الحول والقوة إليه من عضده وكفايته، وإرشاده في كل مقصد وهدايته؛ فسنًى جلت قدرته فيها من لطفه الخفي، وصنعه الجلي، وفتحه السنيّ، من حيث لا يحتسب لأمره العلي، ما تواترت به مخاطبتنا إليكم، وأوردناه على معنى الاقتضاب عليكم، وعرَّفناكم بما ولاه سبحانه من فتوح تناسق ورودها، وتلاحقت وفودها، وتلاحقت على التيسير والتسهيل قلائدها وعقودها، وأبلغنا لكم بنُبذٍ مما كان فيه من الخوارق التي لا شبيه لها، والحقائق المُنبهة لمن تدبرها وتأملها، على أن هذه الطائفة المباركة هي المنصورة المصيبة المفتوح لها التي لا يضرها من خالفها ولا من خذلها. وإن من أعجب العجائب وأغرب الغرائب، وأبدع الأمور التي لم يُعهد مثلها في العصور الذواهب، ولا تعلق بها لبعدها أملُ آمل ورغبة راغِب، أن كانت الجحافل المجردة في هذه الغزوة السعيدة بعض المغانم، والعساكر الجمة مقودةً بشكائم الغلبة والخزائم، وأهل البسالة والنجدة، والحماسة المشهورة والشدة، مسوقين في ربق الخضوع والنخوع كالخود النواعم؛ وما ذلك إلا يسر الله تعالى في هذا الأمر العزيز أرغم له به شُمَّ المعاطس، وأذل لرهبته وهيبته كل جامح شامس، واستنزل بعزته وسطوته من اعتصم بشُم البواذخ ونازحات البسابس.

وكنا وفقكم الله قد عرَّفناكم بمن استولي عليه بقابس كلأها الله من الأغزاز ومن استُنزل منهم بقفصة حاطها الله وهُمْ معنى من كان منهم بهذه الجهات وأعيانهم، وجماهيرهم وفرسانهم، وأشداؤهم المشهودون وشجعانهم؛ وقد انتظم كُليُّ العفو رئيسهم ومرءوسهم، وملك غامر الإحسان، وشامل الامتنان، قلوبهم واستحق نفوسهم، وظهر من توحيدهم ومتابهم، ورجوعهم عن الغواية وإيابهم، ما يستدركون به بحول الله تعالى في خدمة الأمر السعيد صلاح حالهم ومآبهم. وقد اجتمعت منهم كتيبةٌ جأواء، وفيلق شهباء، وجحفل نجباء، ترتعص منه الأباطح ويفضل منه الفضاء، وحصلوا في ملكة هذا الأمر العزيز بكافة أحوالهم، وجميع من معهم وما عندهم من بنيهم وأهليهم وأموالهم، وكلٌّ منه قد استعبده الأمر العظيم واسترقه، واستوجبه بالغلبة القاهرة واستحقه، ومنحه بعد الملك، والإشفاء على الهلك، حياته وعتقه؛ وقد قدموا بين يدي الموحدين أعزهم الله غنمًا يروق أهل المغارب منظره، ومرأى يقصر عن مشاهدةٍ خبره، ودليلًا على عظيم المنة في التمكين من نواصيهم، وكريم المنحة في استنزالهم من صياصيهم، لا يُطلب بعد عينه أثره، وأنها لفتوحٌ خرقت المعتاد، وتجاوزت الأمل والمراد، وأربى ميسَّرُها العجيب، ومسهلها الغريب، على ما يتمنى مُخيرٌ أن يكون وزاد. والحمد لله على نِعَمه المتواترة الأطواد، حمدًا يمتري التضاعف من فضله والازدياد، ويتجاوز في ترداد ذكرها، وتعداد شكرها، الغايات البعيدة والآماد، بمنه، لا رب غيره.

ولما أنجح الله مقاصد هذه الحركة الميمونة التي رفع منارها، وحسَّن بفضله ورحمته آثارها، ووقف على إعلاء دينه وتمهيد أمره وتمكينه إيرادها وإصدارها، وكان فتح قفصة مهدها الله لبنة تمامها، ومسكة ختامها، وأقصى رومها ونهاية إقدامها، ولم يَبْقَ للفتنة بهذه الجنبات من عين ولا أثر، ولا لغواتها الشقاة استقلالٌ فيها بورد ولا صَدَر، وكمل تمهيدها بعون الله وتوطيدها على أوفى بغية وأتم وطر، رأينا والله

المستعان أن من كمال النعمة على أهل هذه الأرجاء، وتمام ما يُراد لهم من اطراد الأمنة وسكون الدهماء، وتمشي تسديد أحوالها على ما يعود عليهم بانبساط الأمل وامتداد الرجاء، أن يتلوم بها إلى استحصاد زروعها التي آذنت بكمال الرفع والنماء، وحملهم الأمر الشامل، والرأي الكامل على البلوغ إلى غاية الاستكثار منها والانتهاء، وازدعاع جميع محرثاتهم على الاستيعاب والاستيفاء. وعَيَّنَّا لهم في خلال ذلك من الطلبة أعزهم الله من رجونا استضلاعه بما أسندنا إليه من أمورهم، وانتهاضه بما نُطنا به من مصالح كافتهم وجمهورهم، وقدرنا اكتفاءه بما قلدناه من النظر الشامل لمواسطهم وثغورهم.

ثم استخرنا الله تعالى في الوصول إلى المهدية حرسها الله لمطالعة أحوالها. وترتيب أشغالها. فكان من بركة قصدها ويمن احتلالها أن أرت السعادة لقبائل عوف والشريد بن سُليم وفقهم الله محياها، وأنشقتهم رائحتها العبقة ورياها، وسفرت لهم عن نورها الباهر وسناها؛ فعشوا مستبصرين إلى أضوائها، وهدوا مسترشدين بهديها المُنجي من مداحض الفتن وأهوائها، وانخرطوا مسلمين مستسلمين في سلك طائفة هذه الدعوة العلية وأوليائها. ففاز بخير الدنيا والآخرة قدحهم، وأوري بعد الصلود والأكباء قدحهم، وبيَّن لهم الحقائق فجرهم المستنير وصبحهم، ولقوا من قبل هذا الأمر العزيز وإقباله، وتأمينه الشامل وإجماله، ما استمرت به عوائده الكريمة لمن تمسك بحباله، وآوى إلى ركنه واستند إلى ظلاله. وهاتان القبيلتان وفقكم الله صدْرُ سُليم وكاهلهم، وأسنتهم المذروبة وعواملهم، ومقدموهم على قديم الأيام وأوائلهم؛ وبانقيادها بحول الله ينقاد أبيهم ويستبصر جاهلهم، بمن الله وفضله.

وما زلنا وفقكم الله وهذه الآفاق الإفريقية مطالع العزمات المؤيدة، ومأمُّ

المقاصد الميمنة المسددة، ومجال الفكر المُعانة بتوفيق الله المنجدة نلتفت إلى تلكم الأرجاء، ونصرف إليها جانبًا من التهمم والاعتناء، لتأخذ كل جهة بقسطها من النظر النافع، والتقوى العام الجامع، على سواء؛ فعندما أبرأ الله تعالى سقم هذه البلاد واعتلالها، ورأب ثاءها وأصلح اختلالها، وأباد أعداءها ومحق أقتالها، تعيَّن النظر لسواها، ووجب تسديد العزائم إلى غير مرماها، واستدعت الأحوال المحاولة، والمصالح المزاولة، أن يعم الالتفات الكريم أقصى بلاد أهل التوحيد بسطها الله وأدناها؛ فاستخرنا الله على أنْ تعمل إلى الجهات الغربية المطي، ويقرب بصلة التأويب بالإسناد خرقها النطي، وتطوى بأيدي السُّبَّق العناجيج، والضمر الهماليج، شقتها البعيدة ومداها القصِيّ.

فاستبشروا -أعزكم الله- بقدوم إخوانكم الموحدين، واشكروا الله تعالى على ما ذخر لهم من نصرة الدين، وحمدوه سبحانه على إعلاء كلمته، والحمد لله من أجر هذه الغزوة السعيدة وفخرها كل خصل، وتقلبوا في تضاعيفها من رحمته سبحانه في أسبغ من غامر وطول، وانقلبوا والله المشكور بنعمة منه جلت قدرته وفضْل. واعلموا وفقكم الله أنهم وإن آبوا إلى ديارهم، وعادوا إلى محال سكناهم ومواطن استقرارهم، فإن صدورهم معمورةٌ بنية الجهاد، في جهرهم وإسرارهم، وعزماتهم مصروفةٌ إلى التأهب له والاستعداد، في إيرادهم وإصدارهم، وأجورهم بيمن الله موفورةٌ على ما ينوونه من حسبتهم في سبيله تعالى وإيتجارهم؛ والرب يبلغ الأمل في مكافحة أعدائه، والمنافحة لإعزاز دينه وإعلائه، وإظهار أمره على كل مُعاند وجاحد وإسمائه، بمنه وفضله.

وعرَّفناكم وفقكم الله بهذه العوارف الجمة، والمواهب المستكملة المستتمة، لتأخذوا بحظكم من المشاركة فيها، وتضربوا بسهمكم في شكر موليها جلت قدرته

ومُسنيها، وتعتبروا بما أظهر الله فيها من آياته، وعرَّف من عناياته، وأنجح من مقاصد هذا الأمر العزيز ومراماته، وأبداه سبحانه من إعلاء مقامه وإبانة كراماته؛ فأقدروها حق قدرها، وأشيدوا في جميع نواحيكم بواجب حمدها وشكرها، وخاطِبُوا بها إلى كافة جنباتكم معلمين ببثها ونشرها، والله يعينكم من موالاة حمده، على ما يجزل حظوظكم من رفده، ويهديكم إلى اتباع سبيل رضاه وانتهاج قصده، بكرمه وجوده ومجده؛ لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتب في العاشر من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة الرابعة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأعيان والأشياخ والكافة بسبتة أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، ويسر لما يحظي برحمته ويدني من رضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونِعَمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي أرغم لهذا الأمر العزيز شُمَّ المعاطس، وألان بأيده قباح الجامح الشامِس، وأخضع لعزته وسطوته كل جيد متطاول وأخشع كل لحظ مشاوس، وحكم بظهور أمره، واستيلاء غلبته وقهره، على ما توقل في الشمم الشوامخ وتوغل في البيد البسابس، ويسر له من الفتوح الخارقة للعادة، المقودة بزمامي البركة والسعادة، ما تجاور تقدير المقدّر وقياس القائس؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، المختار من أشرف المحاتد وأطيب المغارس، المُسكت بفرقانه المعجز، وبيانه الموجز، كل نافس، والماحي بنور نبوءته الخاتمة للملل، وشريعته الناسخة للأديان والنحَل، مظلمات الغياهب ومُدلهمات الحنادس؛ والرضا عن الإمام المعصوم؛ المهدي المعلوم، الذي أحيا الله به من مراسم الإسلام كل دارس، وأبان بظهوره من معالم الإيمان، ومناهج التوحيد والإيقان، كل طاسم طامس، وختم بأن لا نجاة في العاجلة، ولا مفاز في الآجلة، لمتوقف عن طاعته متقاعس؛ وعن خليفتيه سيّدَيْنا الإمامين أميري المؤمنين

المخصوصين من تمشية أمره، وصلة عضده ونصره، بالمقامات العلية النفائس، المحبوين من الانتهاض بخلافته، والقيام بعهوده وأمانته، بالكرامات الموقوفة عليها الحبائس، المظهرين لكلمته العالية، ودعوته المستمرة إلى قيام الساعة الباقية، في أشرف الرؤاء وأفخر الملابس.

وإنا كتبناه إليكم أسمعكم الله من بشر هذا الأمر العزيز ما يفعم أرجاءكم طيبه، ويقوم بأكنافكم خطيبه، ويتمهد لكم في ظلاله غَضَر العيش الأرغد وطيبه، من حضرة إشبيلية حرسها الله تعالى، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، والتيقن بأن لله تعالى في محاولات هذا الأمر العزيز أسرارًا يُسلم المؤمنون لها، وينتهج السعداء الموفقون مناهجها اللاحبة وسُبُلها، ويتحقق الصادقون الموقنون أن الخيرة التامة، والمصلحة العامة، لا تعدو مجملها ومفصلها، ثقةً بما أنسوه من أنه سبحانه يوضح لأوليائه المسددين مشكلها، ويفتح مقفلها، ويحملهم على ما يصفي للمسلمين مورد الأمنة ومنهلها، بحيث لا يمسهم نصبٌ ولا قدح، ولا يناهم إكداءٌ ولا كدح، ولا ينيهم نصرٌ ولا يتأخر عنهم فتح؛ والله المحمود على ما أولى من صنعه وآزره عونٌ وظاهره نجح؛ لا رب غيره.

وكنا وفقكم الله عزمنا في هذه الحركة السعيدة على غزو الكافر بهذه الجزيرة من جميع أرجائه، واستعانته سبحانه على إبادته وإفنائه، واستنجاز وعده الكريم في إظهار حزبه وتأييد أوليائه؛ فاستنفرنا الموحدين أعزهم الله وإخوانهم العرب وفقهم الله وبعض القبائل من الرعية حاطهم الله فبادر كلهم بنيات صادقة، وعزائم إلى اغتنام الأجور مسابقة، وضمائر لكل مشوب وريب مباينة مفارقة. واستعجلنا النهوض بمن حضر من جميعهم، ولم يقتض البدارُ والانحفاز التلوم لاستدعاء بعيدهم والاستكثار من جموعهم، على أنا وفقكم الله لا نعتدُ بالكثرة ولا نعتمد

عليها، ولا نسكن إلى الأعداء ولا نركن إليها، ولا نقاتل إلا بالله وحده ولا نُعوِّل إلا عليه، ولا نطلب النصر والعون إلا من لديه، ولا نستند في إظهار دينه وتمهيد أمره الحق وتمكينه إلا إليه، نيةً استحكمت فيه تعالى بصيرتها، واستمرت على إعلاء كلمته مريرتها، واستوت في الثقة به سبحانه والاعتماد على عونه جلت قدرته علانيتها وسريرتها؛ فكان مما أظهر الله تعالى في مبادئ هذه الحركة الميمونة، وعرَّفه من محاولاتها الميسرة وفتوحها المضمونة، أن قذف في قلوب الكفرة رعبها، وقدم إليهم قبل الأطلال عليهم طعنها وضربها؛ وأعمل فيهم والعوامل لم تسدد والصوارم لم تجرد حدها وغربها، فطارت نفوسهم شعاعا، ونخبت أفئدتهم ارتياعا، وصاروا بحمد الله فرقًا مشتتة وأوزاعا، وتفرى أديم اجتماعهم وانتظامهم فلًا وتعينًا بغلب وانصياعا؛ فلاذوا بالخضوع، واستخبئوا بالنخوع، وتيقنوا أن أمر الله القاهر لا تعصم منه سابغات الدروع، ووافرات الجموع؛ فكلٌّ سنهم داخل من يليه من الطلبة أعزهم الله راغبًا في أن يشفع له، وفي أن ينال من الاعتلاق بذمة هذا الأمر العزيز أمله؛ ووصل بعض زعمائهم ورؤسائهم منتظمًا في سلك من استخدمه الأمر العلي واستعمله.

وسارع عظيمهم صاحب قشتالة إلى مخاطبتنا مستأذنًا في إرسال رسله إلينا، ليؤدوا عنه رغبته في التمسك بحبل هذا الأمر العظيم وذمته، وحرصه على الانقطاع إلى جنابه والاستناد إلى هضبته، وأنه يخدم الموحدين أعزهم الله بمحاربة أهل جلدته، ومقاطعة أهل ملته؛ فراجعناه بالإذن له في ذلك لنرى رأينا في حربه أو هدنته. وشرع الموحدون أعزهم الله في حركتهم، واستقبلوا سعيد وجهتهم، محتسبين لغدوتهم في سبيل الله وروحتهم، متوكلين عليه سبحانه في إنجاح سعيهم وتأييد عزمتهم، والمسرات تتلقاهم وفودها، والخيرات تتوالى عليهم ورودها، والبشائر يُربي على سالفها مستأنفها وجديدها؛ والحمد لله على ذلك حمدًا يستدرُّ به تضاعف النِعَم

ومزيدها؛ لا رب غيره.

ولما وصل إلى قصر المجاز يمنه الله وصل أرساله إلى إشبيلية حاطها الله ولقوا الموحدين مع طلبتها أكرمهم الله وأوصلوا خطابه يفصح بأنهم زعماء قومه، الذين يعتمد عليهم في نقضه وإبرامه، ويثق بهم في أحكام ما يلزمونه وإحكامه، وأنه ألقى إليهم مقاليد تفويضه في كل ما يربطونه إليه واستسلامه؛ فسُمعت مقالتهم، واستوعبت رسالتهم؛ فأنهوا ما حملهم صاحبهم من الإعلام بما عنده، وقدروا غرضه في خدمة أمر الله وقصده، وذكروا أنه متى استدعى إلى مشاركة بنفسه أو رجاله بادر إلى اقتفاء ما رسمه الأمر العزيز من ذلك وحده، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن من النظر العام المصلحة للمسلمين تشتت أعدائهم، وتفرق كلمتهم واختلاف آرائهم، وأن من أعظم المعونة عليهم تقاطعهم وتباين أهوائهم. فأمضينا له السلم على ما فيه العزة لله ولأمره، وعلى وجهٍ يؤذن بحول الله بوقم العدو وقهره، والله المشكور على ما حول من تسهيله وعونه ويسره، لا رب غيره.

وكان ابن عمه ومناهزه في رتبته عند قومه صاحب ليون في مُهادنة؛ فرغب في تجديدها، وخاطب ضارعًا في تقريرها له وتمهيدها؛ فأسعفناه برغبته وقوفًا عند شروط المصالحة ووفاءً بعهودها. وتجرد العزم لغزو عدو الله ابن الريق إذ هو أقرب دارا، وأصعب جوارا؛ فصرفنا إلى بلاده أعنة القصد، ولفتنا إليها وجه الاعتزام والصد، ورجونا الله تعالى في استئصال جهته بالاكتساح وشوكته بالحصد، والله المحمود على ما أولى من المعونة في ذلك والعضد، لا رب سواه.

واستمر الموحدون أعزهم الله على مسيرهم إلى قرطبة كلأها الله فحطوا بها أثقالهم وأخذوا منها أزوادهم، وجددوا بها تأهبهم واستعدادهم، وأقاموا فيها أياما استوفوا فيها غرضهم من ذلك ومرادهم، ونهضوا منها على بركة الله وعونه،

وتوفيقه ويمنه، والبشرى تطالعهم بقسماتها الوسيمة، ومقدمات الفتوح تؤذنهم بنتائجها الكريمة، وتيسيره سبحانه يعدهم بما منحهم من منه جمة وعارية جسيمة، لا يقطعون واديًا إلا عظم به أجرهم، وربح عند الله تعالى تجرُهم، وزكا لديه سبحانه عَمَلُهم وكرم ذخرهم، إلى أن أجازوا وادي تاجو على بركة الله وتوفيقه وعونه جلت قدرته لهم مصاحب، وصنعه الكريم مؤازر مواكب؛ وقصدوا مزرعة شنترين فتحها الله فانتسفوا زروعها، واستأصلوا بالأخذ والتدمير جميعها، وتناولوا بالإحراق والتخريب منازلها وربوعها. ثم نهدوا إلى قلعةٍ للأداء تُسمى طُرش على هضبة منيفة المراقب، مسامية للكواكب، قد انقطعت حافاتها، وبعدت قذفاتها، من كل الأرجاء والجوانب؛ ولعظمها ومكانها من نفوسهم أشبوها بالبناء الشامخ وحصنوها، وألفوا بها جموعهم المؤتشبة ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم وائتمنوها واعتدوا قفْلَ بلادهم فخانتهم بحمد الله آمالهم التي أملوها في استقصائه وكذبتهم ظنونهم التي ظنوها. ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام، ولا يُهتضم المتوقل فيها ولا يُستضام، ولا تثبت لمحاربها لوعورة مراقبها وجوانبها الأقدام، لولا سعود هذا الأمر الذي تؤيده الأقدار وتنجده الأيام، والحمد لله على ذلك حمدًا تُستنجز به المنن وتُستدام، لا رب سواه. فنازلها الموحدون أعزهم الله أصدق نزال، وصالوا على كفرتها أعظم مصال، وصدقوهم القتال صدقًا أزال من نفوسهم كل زور انخدعوا به في الامتناع وخيال.

وعندما عضتهم الحرب الضروس بها، وجرعتهم أكؤس مقرها وصابها، وأذنتهم بخلاف أنفسهم الخبيثة وذهابها، مدوا أيديهم إلى رحمة هذا الأمر الذي لا يتوقف عن مستمطرها واكف سحابها، ولا ينبهم لطالبها وسيع بابها؛ ورغبوا في أن يخرجوا بحشاشتهم ومن معهم من نسائهم وذرياتهم، ويفرجوا للموحدين أعزهم الله عن كل ما اشتمل عليه حصنهم من أموالهم وأقواتهم؛ فأجبناهم إلى ذلك لما ظهر

فيه من النظر، وليكونوا لقومهم وأهل ملتهم من المثلات والعبر، وليحدثوا من وراءهم بما شاهدوه من عظيم الآيات والنذر؛ فيزيدوهم ذعرًا إلى ذعرهم، ويصدقوهم فيما عاينوه من أمر الله شر نكرهم، ويؤذنوهم بخراب ديارهم وذهاب أمرهم. وألفى الموحدون أعزهم الله فيه عددًا من خيولهم وأسلحتهم، وأموالهم وأمتعتهم، وفتحه الله على هذا الوجه الكريم لأوليائه، وقصم بقهره ظهور أعدائه؛ وأشعر الكافر ابن الريق باستباحته من أمامه وورائه. ووجد الموحدون أعزهم الله هذه المدينة المذكورة قد أخذت زخارفها، ولبست من النضرة حُللها الرائقة ومطارفها، وتوشحت رُباها ووهادها من غروسها وكرومها بما أعجب مبصرها وأعجز واصِفها؛ فابتزوها بهجة تلك الملابس، وألحقوها بمغربات المهامه ومفقرات البسابس، وغادروها بلاءً وعفاءً كأن لم تغن بالأمس الدابر الدارس.

ثم توجهوا منها إلى مدينة طُمار، وهي من القواعد المنيعة، والبلاد المخصبة المريعة، ذات كروم وثمرات، ومحارث جمة ومُزدرعات، وبسائط وسيعة ومناظر رائقات. فأعدتها أختها للخراب كالحرباء، وصارت مثلها كالحرة السوداء، واضطرمت فيها نار الدمار والتبار من جميع الجوانب والأرجاء. وفي خلال المقام عليها، وأثناء التعفية لأثرها، كانت سرايا الموحدين أعزهم الله تخرج يمينًا وشمالا، وتجوس من بلاد أعداء الله شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، وتحلُّ بهم القوارع والفواقر إصغارًا لهم وإذلالا، والكفرة منحجزون في حصونهم الاشيبة، ومعاقلهم المستصعبة، يحنون ضلوعهم على جحيم الحسرة المضطرمة الملتهبة، لا يستطيعون دفاعا، ولا يملكون ذبًّا عما نزل بهم ولا قراعا، قد صفرت من أقواتهم أيديهم، واكتسحت أنعامهم ومواشيهم، واستعرت بنيران الخراب والتباب أرجاؤهم ونواحيهم، وحلَّ بها من الدروس، والعفاء والطموس، ما يبعد معه استدراكهم لعمارتها وتلافيهم؛ وملكهم ابن الريق بشنترين أعادها الله ملازمٌ لانجحاره، مستكنٌ

في وجاره، مدرع جلابيب خزيه الطويل وعاره، لا يبرز لمقارعة، ولا يظهر لمُصاعة، ولا يبدي من جموعه الذليلة، وجنوده الفليلة، أحدًا لمنازلة أو مدافعة، قد ألقى للخادثة بيده، وطأمن أحشاءه ذلًا وصغارًا على كمده، وجعل الاستتار على قريته المحصنة والالتجاء إلى جدره الممنعة أعظم معتمده، في الإبقاء على حشاشته التالفة وأكبر مستنده؛ وقد أقصدته جنود الحق وكتائبه، وانتشرت بجهاته المستباحة جحافله ومقانبه، وتدكدكت بوطء العساكر المنصورة، والجيوش الموفورة، أرجاؤه وجوانبه؛ ولو أصحر الكافر لناله إدراكها، وعُلقت به حبائل الهلكة وأشراكها، وغشيه سيلُها وحطمه عراكها.

وأقام الموحدون أيامًا يدوسون بلاده، وينسفون رغده وثماده، ويحملونه من أوق المضرة، وثقل المخزاة والمعرة، ما لا يستطيع حمله وأوده. والحمد لله رب العالمين، وكنا وفقكم الله بحكم انقطاع ما بين المسلمين والكفرة من البلاد، وحمل الموحدين أعزهم الله من قرطبة كلأها الله ما يصلحهم من العلف والأزواد، وأخذهم في ذلك بواجب الحزم ومتعين الاستعداد، مشينا بهم على هيئتهم، ولم يتأت الإسراع بحركتهم، وأخذ أعداء الله على غرتهم، والانكماش في المسير الموجب لفجأتهم وبغتتهم؛ فطارت الأنباء إليهم قبل أن يدهموا، واتصلت الأخبار بهم فأحكموا حذرهم وأبرموا، واستعجلوا بضم ما أدرك من زروعهم، وبادروا بالجلاء عن بسائطهم وربوعهم، واستعدوا في حصونهم المؤتشبة بأمدادهم وجموعهم؛ فلم يتسع للموحدين أعزهم الله ما أساروا من طعامهم، ولم تتمكن مع قلة العلف أسباب مقامهم؛ فرأينا وبالله التوفيق أن ننقلهم بما نالوا من خيرات عميمة، وأحرزوا من أجور غنيمة، وحازوا من منالات جمة ومفاخر كريمة؛ فإن حركتهم السعيدة أشرقت ابن الريق بريقه، وسدت عليه مسالك نهجه وطريقه، وأرته شجى نفسه، وخزي يومه وأمسه، في حزبه الذميم وفريقه، وقذفت بأمره الدابر، وجمعه

الخاسر، في سعير الهلك وحريقه. فعُدنا إلى بلاد المسلمين مهدها الله صدور الركاب، وثنينا إليها زمام الرجعة والإياب، شاكرين الله تعالى على ما نول من نعمه الجمة ومننه الرغاب؛ وانقلب الموحدون أعزهم الله إلى هذه الحضرة حرسها الله بنعمة من الله وفضل أكرم انقلاب، مستصحبين من عوارفه سبحانه كل نعمة دائمة السمح هاطلة التسكاب.

وعرَّفناكم وفقكم الله بهذه المسرات الكُبَر، والآيات الواضحة الحُجول والغرر، لتأخذوا بحظكم من سرورها، وتفيضوا بقدحكم من حمدها وشكورها، وتشاركوا بشكرها ونشرها في جسيم حظوظها وكريم أجورها؛ والله يجعلكم من المتحدثين بنعمه، الشاكرين لآلائه وقِسَمه، المستدمين بحمده سبحانه درور جوده وكرمه، بمنه وفضله، لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتب في السادس والعشرين من جمادى الآخرى سنة ست وثمانين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة الخامسة والثلاثون

وهي من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بفاس وعملها أدام الله كرامتهم بتقواه، ويسرهم من العمل والشكر لما يتقبله ويرضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله الفتاح العليم، المنزه بسلطان العقل عن التثليث والتجسيم، حمدًا يكون إلى العوارف سعيرا، الواحد الذي استحال عليه جواز العدد، واتخاذ الصاحبة والولد، فتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا، القاذف بالحق على المبطلين، وبالصدق على المكذبين، ثم لا يجدون وليًّا ولا نصيرا، مُثيب من توجَّه إليه وتوكل عليه فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة وكان ربك قديرا، ومنجده من السبع الطباق، بمن يغني عن السمر العوالي والبيض الرقاق، وكفى بملائكة السماء ظهيرا؛ والصلاة على سيدنا محمد نبيه المرسل شاهدًا ومبشرًا ونذيرا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرًا، مطلع الآيات الكُبَر؛ على مراقب السمع والبصر، فطوبى لمن كان سميعًا بصيرا، والمجاهد بجيش القرآن، من دعاهم إلى السجود للرحمن، فقالوا: {أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا} كاسر الصلب والأصنام، ومُعجز فرسان المنطق ورؤساء الكلام، حيث لم تعدم البلاغة لسانًا ولا الرمح مديرا؛ وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه قولًا وفعلا، فكان حكمهم فاصلا، وسيفهم قاصلا، ولواؤهم منشورا؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُعيد الحق وقد أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئا

مذكورا، والمُنشر بنور هدايته، وظهور رايته، قلوبًا سكنت من الجهل قبل القبور قبورا، والمُحيي بخاصي صفحه وبيانه، نفوسًا قابلةً والمُهلك بحادي سيفه وسنانه، قومًا بورا؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين الذي اختاره الله سجيرا، وللمؤمنين أميرا، متلقى راية الإمامة في مغرب الشمس والله قد أعد لها في مشرقها منبرًا وسريرا، والكاشف ما دجا من الفتن المُدلهمة، والخطوب المُصمة، وقد أمسى جنح ليلها ذابلًا وأصبح شرهاً مستطيرا؛ وعن سيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الإمام أمير المؤمنين متقبل آثاره، وباسط أنواره، يقروها أثرًا أثرًا ويبسطها نورًا نورًا، والمُعطى من الكمال، وشرف الخلال، ما يردُّ الذهن كليلًا ويصرف الطرب حسيرا، والمُعان بالنصر الذي لم يزل النهار مواكبًا والليل سميرا.

وإنا كتبناه إليكم وألسن الأقلام، تعجز عن حقيقة الإعلام، لعلمها بأن إلينا في صنع الله العظيم سبحًا طويلا، وأن لسان هذه الحال الشريفة أقوم قيلًا وأكبر تفصيلا. من حضرة إشبيلية حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تعلموا أن الجيوش وإن كثرت جنودها، وانتشرت ذات اليمين والشمال بنودها، فلا ثقة إلا بالواحد الذي يغلب، والكتائب الباغية كثيرة الأعداد، والاستظهار إلا بسيفه الذي يضرب، والسيوف في مضاجع الأغماد، وإلا فما يؤثر الخميس العرمرم إذا لم يكن السعد من نفره، وما تغنى شجر القنى إذا لم يكن العونُ من شرفه والفتح من ثمره، وما تفيد عيونه الزرق إذا كان صنع الله محجوبًا عن بصره؛ وكلا ولا حول ولا قوة إلا بمن بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، ولا نيل ولا نجعة إلا من وعده لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ والحمد لله عودًا بعد بدءٍ على المواهب التي يتلاحق موحَّدها ومثناها، والعطايا التي لو خير الدين في كل أُمنية عدا لما تعداها، والمِنح التي قد أنبأت بها الغيوب فلو تنكرت لعُرِّفَتْ بسيماها.

وإلى ذلكم أوزعكم الله شكر النعمة فإن الله سبحانه لما كسر طاغية الروم الكسرة التي أعزت الحنيفية، وأذلت النصرانية، وفتح من معاقله الأشبة ما فتح، ومنح عباده من أنفاله وأسلابه ما منح، أجفل لعنه الله إلى قشتالة فتحها الله إجفال الظليم، وقد أبقى منه سيف الله ما يبقي الصباح من الصريم، والرياح من الهشيم. وفصل الموحدون وشكر الله ملءُ حقائبهم، وصنعه الكريم حسبُ رغائبهم، وشرعة العود متمأر قناهم وقواضبهم، لا بتمنٍّ للقاء العدو، ولا بتصويب إلى مهواة الكبر والعلو، بل بمجرد الافتقار إلى الواحد الذي ينصر من ينصره، ويزيد الإحسان من يشكره، ومحض الثقة بقوله تعالى وهو أصدق القائلين: {وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين}. ولم يزل الكافر يرغب في السلم رغبة منخوب الفؤاد، موتور الأمل، مقطوع السبب، وتكررت مخاطباته فردت بالخواتم على أدراجها، مشعرةً بأن استخارة الواحد القهار على غزوه بسبيل أجامها على الله وأسراجها وما يُصنع بالرغبات المذحولة والحبال الرمائم، وصنع الله الذي عود عباده مقرون بنواصي العزائم، وجانب الظفر الذي من به سبحانه أشد وأوثق، ونسب القتال في شرف الإسلام وأهله أكرم وأعرق.

وعند ذلك تحرك الموحدون على ما جاءت به السنة الحنيفية من الإعداد والإرهاب، عالمين بأن لا عدة ولا عُدَّة ولا قول ولا صول إلا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة ربهم العزيز الوهاب، عائذين بالله من الإعجاب أن يركبوا له طرفا جامحا، ويمدوا إليه طرفًا طامحا، ويوطئوا عقبه نافلًا ورامحا، بل هم القوم يستنجزون ما جاء به الوعد، وينتظرون ما عود الأقبال المتعارف والسعد، ويسلمون في كل مكان وزمان لمن له الأمر من قبل ومن بعد؛ فأول ما مررنا به حصن منْت انتش وهو حصن يتلفع بالعنان، ويقتض الطائر بالسنان، ويقذف السجاعة في روع الجبان الهدان، على طودٍ قد سافر في الجو مُقتربا، ولم يرض الجبال أكفاءً ولا بالبسيطة

مُنْتسبًا؛ فقبل الخلوص إليه من العروج، والنزول عليه من السروج، فتحه الله فتحا تفاءل التوحيد فيما يؤمله، وقال أهله: اللهم اجعله مفتاح كل باب نستقبله.

ثم عمدنا إلى تَرْجالُه قاعدة الثغر الشمالي ترضعُه بدرها، وتدربه على شرها، مدينة لم يخافوا عليها للحوادث ظفرًا ولا نابا، ولا توهموا أن سيغلقون لها في وجه منازل بابا؛ فعندما سمعوا بالمرور عليهم نادى فيهم مُنادي الجلاء في ساعة القتل والسبا؛ فاتبعهم من سرعان الجيوش من قتل بمقاتلهم وسبى حريمهم ولم ينجُ منهم إلا من تخطاهُ جناحُ السيف أو دخل في خفارة الليل.

واقتدى بهم في الفرار أهل شنتقروس وهي القلعة الحسيبة في الامتناع، المجلوة على منصة اليفاع، أول حصن بالجهة أُهينت فيه شعائر الله واتُّخذ فيه المسيح وأمه إلهين من دون الله، منه تفتحت أبوابها، وتوزعت أسلابها، واستُبيح بالغدر حماها، ورماها الكفر إلى أجل مسمى بالداهية التي رماها. فشُحنت ثلاثتها خيلًا ورجْلا، وأترع لها الحزمُ غربًا من النظر الكريم وسجلا، ونقل إليها من أهلها كل من كان يستسقى لعهدها هطالًا من الديم، ويرى وجدان كل شيء بعدها كالعدم. وكان يجاورها من معاقل الكفرة ما لم يُلحق في المنعة بغايتها، ولا نُصب في الحرب رايةٌ مثل رايتها؛ فاقتدح فيها زندُ الاستخارة، على الهدم والعمارة؛ فأخذها الرجفان أخذًا وبيلا، وصُيرت للفور بإذن الله كثيبًا مهيلا.

ثم أجزنا وادي تاجو وهو سور الأرض التي كان بالآذان عهدها، وزلزل بالناقوس غورها ونجدها، بعد أن قيل للموحدين على شاطيئه الإسلامي: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وعليكم بتجديد النيات، واستنزال نصر الله تعالى على هذه الرايات. فبايعوا بيعةً سرَّت بها في دين الله المشرفية والقنى، واستنت بها خيل الكلمة الإسلامية في سرف المنَى.

ثم سرنا متغلغلين في أرض الروم إلى مدينة إبلتانسية وكانت مدينة تهالك في إنشائها برهةً من السنين، ونقل إليها من أهل الشمال كل من تلقى راية الحرب باليمين، وحدَّث فيها نفسه بآمال سبق إليها الفساد قبل الكيان، وانعدام الخبر قبل العيان؛ وإذا بأهلها قد غزاهم من الرعب جيشٌ طارق، وسيفٌ بارق؛ فودعوها وداع من يحسب كل صيحة عليه، ويظن البلاقع والبراقع جيشًا ناهدًا إليه، واغتر بقصبتها من كان يُدبر حربها، ويشد بزعمه دربها، وهم جملةٌ كبيرة من الروم فيها زعماء مشهورون ما منهم إلا من كان ذا راية منشورة، وكتيبة مستورة، وفتكة في المسلمين مذكورة؛ فاستولى الموحدون على المدينة يُدمرونها تدميرا، ويُتبرون ما علا منها تتبيرا، ويزيحون أهلها تتبيبًا وتحسيرا؛ وغلبت القصبة على الكفرة فلاذوا ببرج أصيل المنعة، محكم الصنعة، عريض الحافات، باسق الشرفات، فأرسل الله عليهم سحابًا دلوحًا من النبال، وقذفًا بصُم كالجبال، وإذا أراد الله بقوم سُوءًا فلا مرَدَّ له وما لهم من دونه من وال؛ فلم يلبثوا إلا ليلةً وقد نزلوا على حكم الأسر، باضطرار منهم وباختيار من القهر والقسر، وبدلهم الله بالجبن والخور من تصميمهم وإقدامهم، وصُيّرت السيوفُ التي كانت في أيديهم أغلالًا في أعناقهم وقيودًا في أقدامهم؛ ولفقدهم على الكافر أشد من ذهاب البلاد، فإنهم كانوا عند أهل الآراء المسموعة والسيوف الحداد.

ثم عطفت الأعنة على أعمال طلبيرة فأوسع الله أرضها اعتسافا، وأقواتها انتسافا، وعمائرها خرابا، يقول عنده الكافر: يا ليتني كنت تُرابا، ثم جئنا ظاهرها وكانت جنتهم التي يتفيئون ظلالها، ويعتمدون استقلالها، يفرحون بما أُوتوا منها، ولا يعرفون لبأس الله حقيقة ولا كُنْها؛ فاستؤصلت أشجارها الملتفة أصلًا وفرعا، وأُفنيت حدائقها الأنيقة قضبا وقطعا، وتلاقت عليها عوامل الحديد، ببأسه الشديد، إرغامًا لأنف الكفرة وجدعا. فلما صفرت من الخير، وصارت أوحش من جوف

العير، وذبل روضها الخضل، وخرق حجابها المنسدل، وقالت الكفار بلسان الحال: ودِّعوا في جناتي آمالكم، واندبوا في عرصاتي أحوالكم، فوَّض عنها الموحدون في رحال ثقيلة، ورجال طويلة، يمرون على البلاد مر السيل بالليل لا يُبقي ولا يذر، إلا ما لم يمر بالخاطر ولا وقع عليه البصر، ينزلون على الزرع وقد شابت بها نواصي الوهاد والنجاد، فلم يرحلوا عنها إلا وقد عاد بياضها إلى السواد، ويعمدون إلى القرى الظاهرة، والمدائن الباهرة، فيجدونها بالأقوات راجحة الميزان، كثيرة الحسان، خاوية على عروشها، من قُطانها وجيوشها، قد أسلموها لكلمة الإسلام، وفارقوها قبل صهيل الخيل وخفق الأعلام، وطُرحوا يريدون أقاصي الروم على غير طريق، فتخطفهم الطير أو تهوي بهم الريح في مكان سحيق، فمنهم طريد خوف، وحصيد سيف، ومنهم من أصابته الرماح كسبا، وأخذته السفاح ولكن يُسرُّ غصبا، فإذا نزل بساحتها نزلت بعقرتها أمُّ الخطوب السود، وأمحى أثر نجمها وشجرها من ديوان الوجود، هدمًا خبيرا، وحريقًا مستطيرا، وقطعًا استأصل معمورًا ومغمورا؛ والله يقدم إلى ما يعمل الكافر من عمل فيجعله هبًّا منثورا.

ولم يُعْهَد لعمارة هذه المدائن المذكورة، لما عرض لعمارة ما فتح الله في صدر الحركة المنصورة؛ فإن تلك وبلاد الإسلام كانت مترائية النارين، مُدانية الدارين، يتعارف بينهما أهل الملتين، بالاسم والعين، فقصد بعمارتها طيُّ بسط الكافرين ونشرُ خطة المؤمنين ومشي الناس في مناكب الأرض وأطرافها آمنين وادعين؛ ولم يُلحِحْ في بلاد الروم إلا طلبًا للكافر عينه، فيستوفي منه سيف الله بقية دينه، ولو كره المفر، وجره رسن الاغترار كما جر، لورد من أمر الله بحول الله ما أحاط به عِلْما، وانطبع في نفسه الخبيثة المردودة نقشا ورقما، ولكن تدكَّر فتوارى في قشتالة بالجبال، ولف فيها رأسه حياءً من الكفر والضلال، وخلَّى البلاد والسيف يحكم فيها كيف شاء، ويبدع الإعدام والتدمير لا الإيجاب ولا الإنشاء، وجهده العضُّ على يديه وكذلك يفعل

الظالم، ويروم الاعتصام وكيف يعصم ولي الشيطان والله هو العاصم؛ فكل ما عرض لحزب الله في طريقه، أُلحق بحزب الشيطان الذي أهلكه الله بالأمس وفريقه.

فلما صارت البلاد كأن لم تُغنَ، والمعاقِل كأن لم تُبْنَ، وعلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات، أحياءٌ ولكن في عداد الأموات، صوَّبنا على طليطلة قاعة الصُّفْر، وأم بلاد الكفر، وجئناها من جهات أبواب قشتالة وهي الجهات التي كانوا يأمنون من افقها، ولا يسدون بابًا يقضي إلى طريقها؛ فأخذهم العذاب وهم لا يشعرون، وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العِبَر أفواجا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبًا وإدلاجا، إلى أن نزلنا بظاهرها الشمالي ولم بجيوش الإسلام لم تُوقع بصرًا على حدودها، ولا جُرَّتْ صيدةٌ في صعيدها؛ فُردَّ ما كان يليها منه نفنفا، وقاعًا صفصفا، بين هدم يستأصل الشأفة، وحريق يلتهم الجهلة، وقطع ينحت الأثلة، ويحصد الشوكة. ثم تظاهر الموحدون ثاني يوم فيما أعطاهم الله تعالى من قوة العدد والعديد، وفاضوا على أعطافها في بحور الخيل وأمواج الحديد، كل قبيلة في شعارها الموسوم، وعلى مدرجها المرسوم، كأنهم من البحر لجٌّ موجه متراكب، وأسحاب خريفٍ زعزعته الخبائب، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وللكفر وأهله الخسران المبين، والعذاب المهين؛ فبرزوا عليها تبريزًا ثوّب إن شاء الله لبقعتها بالرضوان، وقرب الأوان، والانتصاف من الكفر الذي نجسها بين أخواتها، وعطَّلها من الإيمان، الذي هو حِلَى أترابها ولداتها، ونادى في المشركين بتقويض الرحال، ورمي الأقصى فالأقصى من أسياف البحار وجزائر الشمال، وأفصح لهم ذلك اليوم بأن لله طالب مدركها وهو الحق الذي قامت به السموات والأرضون، والمنهاج المبين والدين القيم الذي هم عنه معرضون.

ثم أجزنا وادي تاجو إلى جنابها الإسلامي، وهو منشأُ دوحها المائس الأعطاف،

وحدائقها الغُلْب ذات الألفاف، وجناتها المعرشات وغير المعرشات، وفوائدها التي هي عندهم من كمال الدين وقوام الحياة؛ وفيه المُنية التي كانت جنة الكافر ومأواه، وحظه من أولاه وأخراه، فكر على الجميع المؤمنون كرَّة، فكان انجعافه بإذن الله مرة؛ فلم يكن بين رويتها في حُلَى الحسن والابتهاج، وتضاؤلها في شُعُر مسودة كالليل الداج، إلا بقدر ما غير الله نعمها بالبوس، وبدلها من الأمن والحفظ بالخوف والجوع وهو شرُّ لبوس. وهذا القطر كان عندهم مركز اللواء، وكرسي الاستواء، والحرم الذي يُنفر طيره، ولا يبيد خيره، فالحمد لله الذي أباده، ويسَّر جهاده؛ فلا بُلْغة حال، ولا مسحة جمال، ولا أمل يتعلق الكفر بذيله، ونيام ولو غِرارًا في ليله؛ وأعرض عن قتالها، وقتال ما تعلق به الكفرة من بعض أعمالها، وإن كان ذلك بالإضافة إلى ما استغرقه الدمار، وأتى عليه البوار، قليل الحساب، ضعيف الجزء في الانتساب، ترفيهًا للموحدين وإجمامًا، مع العلم بأن الله سبحانه قد أعطاهم جرأة على كل عظيمة في ذاته وإقداما؛ ولو أُشير عليهم في قتالها بلحظة، أو أُكدت لهم بلفظة، لما تعذرت عليهم بحول الله أقفالها، ولا غربت عن أيديهم أنفالها، ولكن أراد الله أن يجمع لهم في هذه الغزاة الكريمة بين الفتوح الجليلة، والغنائم الجزيلة، والجهاد المبرور، والانقلاب بالعدد الموفور، وترك سيف السطوة في العدو يضرب يمينًا وشمالا، ويتراءى يقظةً وخيالا، ويبث سرايا الجوع، والرعب المانع من الهجوع، ويُخرج عنها الأضعف، فللأضعف، حتى يرجع المليءُ عديما، والمخدوم خديما، وهناك توجد إن شاء الله بفتحة الأبواب، ميسرة الأسباب، في غير سيف يُسَلّ، ولا دَمٍ لمؤمن بفضل الله يُطَلّ.

وخلال هذه المحاولات الكريمة كان صاحب ليون، وهو ابن عم هذا الكافر المغرور، قد استجار من أمر الله بذمة، وتوسل إلى المُسالمة بخدمة، وألقى الله بينهما حربا، استدعت منها طعنًا وضربا؛ فشغل بالرغبات، أفواه المخاطبات، عسى أن

يُبعث إلى أرضه بجيش من المسلمين يغزون عدوهم وعدوه من جنابه، ويدخلون إلى سرارة أرضه من بابه، وهو بابٌ ما أقدم عهد المسلمين ببابتيه، وبإرسال الأعِنَّة في جنبتيه؛ فسبحان المغرب، كل شأوٍ مغرب، والمنعم على أهل هذا الزمان، بما كان إلى الاستحالة قبل أقرب منه إلى الإمكان؛ فبعث إلى أرضه جيشٌ من المسلمين هالته شجاعتهم، وبهته إنابتهم لله وطاعتهم، وألهته عن كل شيءٍ قدرتهم بالله على العدو واستطاعتهم؛ فحكموا على بلاد الكافر بحكم الكلمة العليا، ونالوا فيها ما شاءوا من دين ودنيا، وتنوعت في عدو الله الرزايا، وأخذت عليه المكاره الأنقاب والثنايا، وصار لا يستطيع دفعا، ولا يملك لمن اتبعه ضرًّا ولا نفعا؛ ولو يعلم الكافرون أن الكرَّة عليهم تجوس الخِلال، وتُهلك الحي الحلال، وتمحق الكفرة محق الوبأ، وتذرو ما جُمع وما غُرس بين مهب الدبور ومهب الصبا. لاعتاضوا من الإقليم الخامس والسادس بمنقطع الترب، ولم يقنعوا من السابع إلا بمسامتة القُطب.

ولما كتب العمل الصالح، وحصل المتجر الرابح، واشتمل الغزو على فتوح كثيرة، وأيام على الكافرين عسيرة، وتُركت البلاد عُرضةً لأول طليعةٍ إن شاء الله تُطل، ورايةٍ بحول الله تظل، فريسةً بين يدي سيف الخوف والجوع، والأمل المقطوع، وهو سيف الله الذي يدرك ما طلب، ويجهز كلما ضرب، أخذ الموحدون في القفول على ميعاد، من أعمال مستغيثة بكلمة الإسلام ويلاد، ويا له من قفول ما أعزَّ أناءه، وأصدق أنباءه، وأكرم حله ورحليه، ومعرسه ومقيله. وعرض في صدر الإياب معقل دار الغارة [1] على مرحلة من طليلطة، وكان بابها الذي لا ينام إلا على سده، وظلها الذي لا يُسكن إلا في مطارح مده، والقلعة المسماة ببطربونة، وكانت ركاب الكفار إلى الضرر، وموقد نارهم المتطايرة الشرر، وفيها جملةٌ كبيرةٌ من محاربة

(١) اسم هذا الحصن تحت الشك لكونه غير مضبوط في الأصل المنقول عنه.

الكافرين، وشجعانهم الأفريرين، بقية سيف الله المسلول، ونسالة جيش الصليب المفلول، وكلهم قد عقدوا على الموت حباهم، ووثقوا حيث لا ثقة بقلوبهم وأسنتهم وظباهم. فلما سلقتهم ألسنة القتال، وكشف لهم الغطاءُ عن خيال الضلال، رضوا من الانتصار بالإسار، ومن فائت الريح بحاصل الخسار؛ فنزلوا مسرعين، ولبوا داعي الرق مهطعين، وحُشروا في زمرة أهل دينهم السابقين إلى القيد، المستضعفين ما جاءوا به قبلهم من الكيد. وعُمَّ المعقلان برجال من المؤمنين يقيمون فرض الجهاد، ويهجرون فيه النوم للسهاد، ويرون الوقوف كل حين على طليطلة وظيفةً دينية، وعزةً دنياوية. وطال ما كانت حجرًا على النوائب، سلًّا على الجيوش الكثيفة والكتائب؛ وها هي اليوم وخيلُ الله تسرح في شعابها آمنة، ورماح المجاهدين تندقُّ في أبوابها طاعنة أسيرة الركب، وقعيدة الخطب، ضعيفة الحيل، ونفيٌّ من أرجُل الخيل، ليس على جادتها إلى بحر المجاز صليبٌ يُنصب، ولا ناقوسٌ يُضرب، لا إهلال لغير الله، ولا نداء إلا بذكر الله حتى ينجز الله وعده في سنامها، ويفيض نور الملة المحمدية على ظلامها، بحوله وقوته.

فاشكروا الله على نصره الذي يفرح به المؤمنون، وروحه الذي يأيس منه القوم الكافرون، واعلموا أن الله لم يرض لقوم بالكفر إلا ليجعلهم أحاديث ويمزقهم كل ممزق ويفتح عليهم بابًا ذا عذاب شديد ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتًا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا، ويستقر في نفوسكم أن الأقلام لا تفي بالإيضاح، ولا تستقلُّ بالإفصاح، ولو ركبتْ من الإحسان كل سنن، وجاءت من البلاغة بطريقة أهل كل زمن، فصنعُ الله أكبر، وآتيه أشهر، وفعله سبحانه أيسر خبرا، وأبقى على ميسم الأيام أثرا. وقد حضر هذه الغزاة الكريمة رجالٌ من أعيانكم ممن حركه السعد، ولم يقعد به البعد؛ فلتؤخذ منهم الأخبار على نسقها، والأحاديث من طرقها، زيادةً في البيان، واستنامةً إلى مشافهة أهل العيان. اللهم

أوزع شكرك هذه الأمة على الزمان، الذي استدار بالفتوح المتناسقة تناسق الجمان، والرعب الذي ينوب في أعدائهم مناب الخميس الأرجوان، ضاربًا بغير سيف طاعنًا بغير سنان؛ إنك على كل شيء قدير، وإنك نعم المولى ونعم النصير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة.

obeikandl.com

الرسالة السادسة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش المذكور:

الحمد لله فاتح الأغلاق، ومانح الأعلاق، مُمِدّ هذه الدعوة الإمامية من السبع الطباق، وناصرها في البحار المرتجة الغوارب النازحة الآفاق، الواحد الذي فطر هذه العصابة على التظافر في إعزاز دينه والاتفاق، وأغناهم في كل موطن ومأزق طعن وضرب عن السمر العوالي والبيض الرقاق؛ والصلاة على سيدنا محمد نبيه ورسوله الناشئ في أشرف المناسب وأكرم الأعراق، المنبعث لتغيير السنة الجاهلية ولتتميم مكارم الأخلاق، المصطفى على حين فترة من الرسالة، وعموم من الجهالة والضلالة، بالآيات الساطعة الوضوح النيرة الإشراق، الداعي إلى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعلية على الأعناق؛ وصلى الله عليه وعلى آله ما أرسلت السماءُ بالوابل الغيداق، ووجبت الغوادي الغر بالإرعاد والإبراق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الآتي زمانه والدين إليه بالأشواق، المعتز مكانه بالاجتماع النبوي والاصفاق، متلافي الشريعة النبوية من فهوة الابتداع والاختلاق، ومُنقذها من أيدي الرؤساء الجهال وهي تأخر الأرفاق؛ وعن الخلفاء الراشدين المرشدين المحافظين على العهد الإمامي والميثاق، المستنزلين من أسِرَّة الطغيان، وصُروح الظلم والعدوان، أهل التيجان والأطواق، الظاهرين في كل محاولة يُصادمها وجه الباق، الغالبين في كل حرب مُلتفة الساق بالساق؛ رضي الله عنهم أجمعين ما جرب خير فضائلهم في السياق، وأشرقت الأرض بنورهم إشراق العارض البراق.

وهذا كتابنا إليكم -أسمعكم الله من البشائر أبعدها مطارح، وأبرعها سوارح، وأيمنها خواطر وسوانح، وأرواها قلوبًا ظامئة وجوارح- من حضرة مراكش حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، والعلم بأن هذا الأمر حجة الله التي أفصحت مقاولها، وأظهرت على كل من في قلبه زيغٌ قبائلها المنصورة وقنابلها؛ أطلع الله شمسه والدين غريب، وأفاض نوره والحق ليس له داعٍ ولا مُجيب؛ فكوَّر شمس المحادين، وأظلم ديجور المضادين، بتبليغ أمر الله الذي اكتنفه البشير النذير، وصدع به الهدى والكتابُ المنير، وتبينه كل من عقد الشيطان على قافية رأسه ولم ينظر لنفسه، بإعمال فكره وحدسه، معتزًّا على من اختصه الله بالافاقة والعباد، وأمده بالجيوش للذكر النافعة والسيوف الحداد. ونصب له من القرآن علمًا هاديا، وجعل له من خوف المقام والوعيد سابقًا وخاديا، ليمتاز فريق الجنة من فريق السعير، وليتغين البصر الحديد من البصر الحسير؛ فمن يتلق راية النجاة باليمين، ولم ير نفسه أهلًا لأن يكون مع الحق المبين، فقد تعرَّض للعذاب الشديد والنكال العتيد، وما ربك بظلام للعبيد، كما أن من نضا عنه أثواب الجهالة، وأسلم من إشراك الغواية والضلالة، فقد سبق له السعد في أُمّ الكتاب، وصار بمفازة من العذاب، وعلى شرف من كرم المآب.

وإلى هذا وفقكم الله، وأوزعكم شكر نعماه، فقد علمتم أن الله استأصل شر الأنام، ورُعاء الإبل الصُمّ البُكم أهل اللثام، وطهر منهم المغربين تطهيرا، وكفَّر سيئات الأرض التي أقلتهم، والسماء التي أظلتهم، بحسنات هذه الدعوة الإمامية تكفيرا؛ ولم يُبقِ منهم إلا من كان بجزيرة ميورقة لجئوا إليها، وتعلقوا بيابسة ومنُورقة جناحيها؛ فكانت في بساط المغرب نُكتًا سودا، وكان أهلها على ما انتشر في الدين من لطائف الحسنيين شهودا، وما زال الخلفاء الراشدون يدعونهم بالذكر الذي هم له غافلون، وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون، تقذف

إليهم في كل حين دُرر المواعظ أمواج البحار، وتطلع الآيات البينات عليهم طلوع النهار، وهم لا يزدادون إلا مريةً متقاذفة، وعمايةً متكاثفة، وضلالا مازجا، وعملًا عن الحكمة الربانية والسنة النبوية خارجا؛ وكلما وعظتهم الأيام، وخطبتهم السيوف والأقلام، وظهرت لهم الآيات في الآفاق وفي الأنفس، واستمعتهم النذر من حصيد فروعهم الراوية وأطلالهم الدرُس، أتوا من العداوة بأجمحها عنانا، وأصرمها حديثًا وعيانا، وأخزاها لهم سيفًا ناصلًا وسنانا.

ثم قض الله ببابسة ومنورقة جناحيهم، وقضى بأخذها من الدائرة السوء ما قضى به عليهم، وظن بأن ستكون لهم وعظًا ييسرهم لليسرى، ويلين قلوبهم للذكرى؛ فما أفادهم الوعظ إلا عتوا، وما زادهم وهُمْ في الحضيض إلا علوا. ثم إنهم قرعوا في وقتٍ باب الأمان، وجعلوا الاعتراف لهذمات سيئاتهم وسيلةً إلى الإحسان؛ فبذل الله لهم ما أمَّلوه، وفتح لهم الباب الذي قرعوه، وامتطوا من الإبقاء صهوةً لا تنالها صروف الزمان، ولا تخب نحوها عواصف الحدثان، والأقدار في ذلك تسوقهم إلى حينهم، وأحكام الله بالمرصاد لزورهم ومينهم؛ فلم يمر إلا قليل وقد بعثوا ميورقة بقية الخداع، ونازلوها بأشد الحصار والمصاع، مُتقنعين على غير حياء، جاهلين بأن لله عادة في شفاءِ أمره من كل داءٍ عياء، غير عارفين بأن العهد ما كفر به قومٌ إلا جب الله عاديتهم وسلط عليهم طالبهم، وحكم فيهم بالعذاب الهون، ورماهم بسهام الخطوب الجون؛ فلم يتنفقوا منها جؤادا، ولا شربوا ماءها إلا ثمادا، وعادت إلى الموحدين على ما علمتم كأن لم تنلها مضرة، ولا وطأتها من وطأة الفجار معرَّة.

وعند ذلك تلمظت إليهم حفائظ الموحدين تلمظ المرود، وركبت هممهم العالية ركوب هام في السروج قعود، وعلموا أن هذا الزمان هو المؤذن بحربهم، وأن حجة الشرذمة البائسة داحضة عند ربهم. فجهزنا إليهم في أثناء حركتها التي عرَّفنا الله فيها

عجائب من السعود، وأفانين من الأمل المنقود والموعود، جيشي برٍّ وبحر، وجمعي معونةٍ من الله ونفر، وأمرناهم بالعزم الذي لا تُرجى دون الظفر غواضبه، ولا تكلُّ دون الضلوع والهام قناه وقواضبه، وأتبعناهم من الدعاء ما تقتضيه النيةُ للمؤمنين، والطوية في إعلاء الموحدين؛ فسار الجيشان في سمت، وتكفل الله بإقامة كل صعب من المستصعبات وأمْت، وركبوا إلى جند الشيطان، بحرًا سَلِسَ القياد والعِنان، وجواري تسبق في الموج سبق الجياد يوم الرهان، من الصاقبات، إلا أن الرياح قوادمها، ومن الطير إلا أن السراع خوافيها الخافقة ومقادمها، قد جالت بين السماء، وبين بسيط الماء، وأقلت من وجوه الجيوش رجالًا كالنجوم، مُرسلين على السور الذميم، وشيطانه الرجيم، إلى أن نزلوا بساحل ميورقة، وأعلام النصر خافقة، وقلوب الموحدين على التظافر متوافقة، وشعارُ العدو المعرة والهون، والهلاك الذي سبقت به الكاف والنون، ولسان الحال يتلو ما يوقن به الموقنون؛ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون. فلم يكن بين الحلول بالجزيرة والظفر بجهاتها الأربع، والاستيلاء على شيطانها الرجيم ومعقلها الأمنع، إلا سبع ليالٍ، سخر الله فيها على الأعداء سبع ليالٍ حسوما، ثم هجم الموحدون عليهم في عقر دارهم هجوما؛ وكانت بين الفريقين حرب، ظن فيه الأشقياء أن الزمان كما عهدوه طعنٌ وضرب، ولم يعلموا أن أمر الله في مزيد، وأن سعده من جديد إلى جديد، وأن ستأتي الأيام بما لا يبقى معه من الباطل باق، ولا يقوم به الضلال والمحال على ساق.

ثم أُجلي ذلك الموطن عن قتل الشقي وأتباعه، ومحو الباطل المموه وأشياعه، وحصول أُسْرَته في قبضة الموحدين، ومغالبة أهل الجزيرة مآل الضالين الملحدين، ورفعت أعلام التوحيد في أعالي جدراته، التي لم يكن لها عهدٌ بعز تلكم الأعمال ولا استظهار في قديم وحديث بالحرب المشمر في خدمة الإيمان والإسلام؛ وأُقيمت

الخطبة على منبرٍ كان أشعث أغبر، ثم عاد بالقول الصادق والاعتقاد الحق أزهر أنضر، وعرفت الرعايا بأن الله أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأعتقهم من الجور والخوف إلى يوم النفخ في الصور. وإنهم اليوم في رُباب الرأفة يرتعون، وشرائع العدل والإحسان يكرعون؛ وقد طهر الله صقعهم من الأرجاس، وكفاهم حيف كل يد عادية وقلب قاس. وعُجل إلى حضرة الموحدين برأس الشقي الداحض الحجاج، وأعلامه المركوزة الأسنة مواضع الزجاج؛ فرأى الناس من أمرٍ انجلت به السنون، وتمنته قديمًا القلوب والعيون، وأُعملت فيه للخلفاء ضروبٌ من التدبير، وكل شيء بمقدار عند اللطيف الخبير؛ والله سبحانه قد قضى بأن يكون وارث سعودهم، والفائز بإنجاز وعودهم، والمتقاضي ديون آمالهم، واللاحق ما عجّل دونه ركاب ارتحالهم، والمشرق بهذا الصنع الذي هو فوق أمل الآملين؛ فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين.

فأبشروا بهذا الفتح العظيم وتوابعه، ولواحقه الجسيمة وجوامعه؛ واعلموا أن هؤلاء الأشرار كانوا يجادلونكم القبلة وهم عنها مدبرون، ويدعون معكم أيمانًا بكتب الله وهم عنها معرضون، أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل، أولئك الذين راموا الشحنة العظمى بالتحريف والتبديل. ثم إن الفتح فيهم فتحٌ في النصرانية، وظهورٌ على ممالكها الساحلية؛ ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف وأوحش من القطع بحلول الممات؛ فإنها تحوجه إما إلى الصغار، وإما إلى الخسار، وتلجيئه إلى أخذ الخطتين قسرًا وقهرًا بالرغم والاضطرار. وأما شقيهم الذي هو بالأطراف الأفريقية فقد نُصب له غُراب البين، وجاءته القاضية مجيء السيل بالليل، ووترته الفاقرة في أهله الأعزين عليه، وجزيرته التي كانت متى حربه حاربُ نصب عينيه؛ فأخلق بشياطينه الجماع، وأعرابه الأوزاع، أن يلفظوه لفظ النواة ويعدوه من سقط المتاع، وما بقاءُ الأبعد

الأصول، وما اغتباط أشياع بالأخسرين والرسوم الدارسة والطلول.

وخاطبناكم بهذه النعمى، والمسرة العظمى، والبشائر الكبيرة الحسنى، لتزدادوا علمًا أن الله على كل شيءٍ قدير، وأنه بعباده خبير بصير، وأنه سبحانه يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، وأنه جل جلاله تكفل بهذا الأمر العزيز بنصر الراية، وظهور الآية، وتيسير العسير، ونيل الكبير من الفتوح بالكبير. ونحن ندعوه بما يدعوه به المخلصون، ونحمده بما يحمده به الشاكرون العارفون. اللهم إنك قد قلدتنا أكبر قلادة، وعودتنا من نصرك ومعرفتك أفضل عادة، وأسرجت لنا في كل مشكلةٍ سراجًا وهاجا، وأوضحت لنا في كل معضلةٍ طريقًا لائحًا ومنهاجا؛ فاجعلنا من الشاكرين في أول رعيل، وخُذ بنا في دينك ودنياك على أوضح سبيل، وأمدنا بموادٍّ نصرك التي لا تنقطع، وآتنا من العمل ما يتقبل به الدعاء ويرتفع، بمنك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة السابعة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش المذكور:

الحمد لله مُحق الحق بكلماته، ومُبطل الباطل برغم دُعاته، وناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته، ومُظهره في كل مآمٍ يؤمه، وشعثٍ يلمُّه، على عُداته، ومُنجده على كل منوي، قريب أو قصي، بصادق عداته، الواحد الذي قرن النصر المؤزر، والفتح الميسر، بعزماته، وعرَّفه في كل شأن يرأبه، ومذهب يذهبه، نزلات اللطف الإلهي وسكناته، وأيأس طوائف الملحدين، وجماهير المفسدين، من قرع صفاته، وغمز قناته، وجعل الليل والنهار والشمس والأقمار، من بعض عتاده وأداته؛ والصلاة التامة والبركة العامة، على سيدنا محمد نبيه المؤيَّد بسواطع آياته، وقواطع معجزاته، ورسوله المظهر على الدين كله والناس بين أزمة الضلال وحداته، المُبتعث بشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، بالبرهان، العائد بالخسران، على نُفاته، والمُرسل إلى الأحمر والأسود، والأدنى والأبعد، من حُضَّر المعمور وبُداته، صلى الله عليه وسلم ما أرتل ركبٌ بفلاته، واستقبل البيت العتيق من جميع جهاته؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، بخصائصه الكريمة وصفاته، متلافي الشرع، من تلاف الأصل والفرع، والموت مصرصر فوق شواته، المبشر به الأثر المتداول، والخبر المتناقل على أسنة رواته، العائد وجه الإيمان، بصدعه في ذات الرحمن، إلى أحسن قسماته، وآنق صفحاته؛ وعلى الخلفاء الراشدين المرشدين، والأئمة الهادين المهتدين، ولاة أمره النبوي وهداته، ومظهريه على كل جبار عنيد وشيطان وحماته، والمقتدين به رضي الله عنهم من علمه وعمله وشداته وأناته، الموصولة أيامهم، المنصورة

أعلامهم، ببراهين الحق الواضح ودلالاته.

وهذا كتابنا إليكم أسمعكم الله من البشائر أقومها قيلا، وأعظمها تقسيمًا وتفصيلا، وعرَّفكم من الفتوح أصدقها تأميلا، وأعرقها تأسيسا وتأصيلا، وأطلع عليكم من نفائس الأنباء، وحبائس الآلاء، أدلها دليلا، وأقلها في السالف تشبيهًا وتمثيلا، من منزل الموحدين أعزهم الله، بظاهر المهدية فتحها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تعلموا أن دعوة الإمام المهدي رضي الله عنه منارٌ لا يضلُّ عليه بصرٌ سليم، وشعارٌ لا يغبه فتحٌ مبين وصنعٌ كريم، ونهارٌ كلا طرفيه إلى يوم القيامة وضاحٌ وسيم، بها جدد الله تعالى ريعان الحق وهو هشيم، وأنشر ميت الشرع وهو رميم، وأحياه كما أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم؛ فمن هُدي إلى طريقها، وأسند إلى ذروة نيقها، ولم يزل لدينه ودنياه فريقًا غير فريقها، وقد عرف عدو الحق من صديقها، وأشرف عقلًا وسمعًا على أخيذها من طليقها، وكان لها مُناصبا، ولحقٍّ من حقوقها عاصبا، فقد استحق بالغدر السابق، والوعد الصادق، عذابًا واصبا، واستنزل من سماء الكفاح، وسحاب الأسنة والصفاح، سافيًا وحاصبا، ومن الله النصر الذي لا تُطوى بنوده، ولا تُزوى عن قصد السبيل جنوده، ولا تُتوى بسرِ كيد، ولا بجهرِ أيد، صعاده وسعوده؛ وبه العياذُ من عاقبة قوم قد ضلوا عن السواء، وحملوا على العنات لأمر الله والنواء، وراموا الرقي بغير درج، ولا منهج، إلى السماء؛ فكانوا جزر العواء، في البيداء والهواء، وخبر اللسان المشرفي والصعدة السمراء. والحمد لله قالبةً بعد ماضية ولاحقةً بعد سالفة على التوحيد الذي نصر أنصاره، وأظهر على سائر العصور أعصاره، وطهَّر من كل بهتان وعدوان منابره وأمصاره، والتجسيم الذي أطفأ بحوله وقوته ناره، وأذهب بحكمته ونعمته عينه وآثاره، وأنفذ فيه بعدله وفضله وعيده وإنذاره؛ لا إله إلا هو بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

وإلى هذا أوزعكم الله شكر نعماه فإن خير الفتوح ما وفَّى الآمال وأنصفها، وأعجز قدرة الفراعنة وسادة البراهمة أن يصفها، وأراح صدور المشرفية، ومتون السمهرية، وقد شحذها العزمُ وأرهفها، وقضى مقصود هذه الطائفة وقد لواها اعتراض المنون، ما في ذمة السعد من الديون، وسوَّفها، وأشرف الصنع الممنوح بما نخت أقلة الأشقياء نختًا مستأصلا، وحكَّم فيهم ضروب الرزايا، وأنواع المنايا، فأبادتهم جبانًا هِدانًا وذمرًا باسلا، وبذَّر هلال أيامهم عن الابدار، وقد كانوا يرونه بعمى البصائر والأبصار، بدرًا كاملا، وطهَّر منهم البلاد، وكفى شرهم العباد، فلا يرى الناس لهم قائلًا ولا فائلا.

وقد كنا قدمنا الخطاب إليكم، وأوردنا فيه من المسار ما أوردناه عليكم، وأعلمناكم على التفصيل بما لقي الموحدون في سفرهم من التيسير والتسهيل، واسترجاع تونس والجريد لأول إطلالهم الذي ارتج لهم ما وراء دجلة والنيل. وبثبات العساكر المنصورة لسُليم بن منصور وهلال بن عامر في كل منزل وسبيل، وبالاتفاق، وانعقاد الاصفاق، على اتباع الشقي حيث طرح به خاطر الهرب، وترامت به وبأشياعه ذوات التضبر والخبب، وهوت به الاجزاع التي يقطعها، ويفاع الأرض التي يفرعها، من ثنية موطوءة أو حدب، ويلغ به الفرار من دو وفُساح. وجو تصافح الشمس براح، وأين الفرار وخيلُ الله في الطلب. وكان حينئذٍ على باب القيروان وقد بقي معه من العجب ذباب، ووشح بينه وبين الدعوى انتساب، وحل عليه صدى من خيالاته المُضمحلة وسراب، وظن أن له في تونس منقعًا لا يعدل عنه في ذلك الوقت ركاب؛ وهيهات هيهات من علم ما يطلب لم يُطف به سورٌ ولا باب، ولا هاله أُجاج طوق ولا قفر يباب. فلما سمع بأن العساكر قد طُويت عليه كواسرها، وعُمِلَت على قصده ميامنها المنصورة ومياسرها، وتساوى في الصمد إليه والإقدام عليه دارعها الكمي وحاسرها، وتسابقت إلى تكذيب مُحاله، والبطش

بمحاله، كتائبها الخضر ومناسرها، ودع إفريقية بغير سلام، ومضى يستذم ببلاد الجريد من له منها أو من غيرها بذمام، وقال بأن الجيوش لا تقتحم عليه الصحراء في هاجرة واحتدام، واستقر بقفصة على طمانينة بزعمه من هيبة الحسام، ووطأة الجيش اللهام، وأنى يلقى العصا ويسقربه النوى وسيف الإمام المهدي رضي الله عنه في أعقاب أهل اللثام؛ فلم يرعه إلا عطف الموحدين أعنتهم على أثره، يسألون في كل حال وترحال عن مورده الوبيل ومصدره، وتخفق ألويتهم المظفرة وتُمرع خيولهم المضمرة بين ضال القفر وسمره، وتُظلهم السماء بظل سحابها وتسقيهم العين الغدقة من شرب مطرها. فعند ذلكم التقت عليه حلقتا البطان، وضاقت به ظهور الرعان، وبطون الطعان، وعلم أنه ولا بد مضطرٌّ إلى الخروج عن الأوطان.

وبقي له بعض أهل بقابس ليطرفها في البيداء، ولما بين الموحدين وبينها من عدم الزاد والماء، وطول المفاقد التي يهابها راكب الفرس الوجناء، باطن بالفيلق الجأواء؛ فبينما هو يسوم الرعية بها خسفا، وينسف معايشها وأقواتها نسفا، ويستدر مكاسبها القديمة والحديثة ضرعًا فضرعًا وخِلْفًا فخلْفًا، إذا اقتحمنا عليه صحراءه يسر الله ركوبها، وسهل لحزبه الغالب حرارها ولُوبها، وملأ من ميامنها سجال المجاهدين وغروبها، وأوجدهم فيها من يمنه وكرمه صنوف الخيرات وضروبها؛ فيومئذٍ لم ير في التمسك طمعا، ولا وجد لعثرته القاصمة لعا. وقال لنفسه الخبيثة لو أطاعته:

أيها النفسُ أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وما جبال دمرها الله كما فعل عليه وعلى أشياعه، يرثى لحاله البائسة ولأشاباته وجُماعه، ويصرم الحبال الواهية التي كانت بينه وبين أطماعه، ويضرب للناس الأمثال الشاردة في لعب الزمان به وأبداعه.

وجئنا نحن قابس وأقمنا بها مدة نُصلح من أحوال أهلها ما فسد، ونُنفق من آمال قومها ما كَسَد، ونُردُّ على باديتها وحاضرتها من كان شرده الخوف والجورُ فشرد؛ والبائس أثناء هذا بين دَمَّر ونُفُوسة بشر حال، يضطرب بين حل وترحال، ويمني فرقته الضالة من الصبر والتجلد بمحال، وكانت المسافة التي بيننا وبينه إذ ذلكم شعتة الفارق، قمئة المرافق، نائية بمجر العوالي ومجرى السوابق، فجهزنا إليه عسكرًا من الموحدين والأغزاز والعرب، وأعلمناهم بأنه رذيةٌ من الرذايا ليس من الجنة والناس في حسب، وطال ما كان يتعاطى لقاء الجمهور، ويعماه عن النور، ويقطع لنفسه بالغلب، فلما سمع بدنوهم من جنابه، واقتحامهم عليه من بابه، فر فرار الظليم، وحث النجاء خوفًا مما لحقه من العذاب الأليم، وكان قد أعد بمدينة طرابلس مهماته، واتخذها ملجأ من طوارئ الاغترار وآفاته، والله قد نزهها لأن تكون عصرة لسيئاته، وعصمةً لهنواته. فبينا نحن في أثناء هذه الحال بظاهر قابس إذا بوجوه قومها يرفعهم التيار المتدافع، ويقدمهم الموج الخافض الدافع، ويلوح للهدى على أسارير كبيرهم وصغيرهم نورٌ ساطع، ويجمع بيننا وبينهم الاهطاع إلى الحق وهو سببٌ جامع؛ فأعلموا أن الطاعة لم تفارقها سرائرهم، وأن النور الذي فاض على إفريقية لم تحرمه أبصارهم ولا بصائرهم، وأنهم وإن بعد مزارهم، وكادت تكون من ديار مصر دارهم، فما زالت تمتد إلى هذا اليوم آمالهم ونواظرهم؛ وعرّفوا بأن الشقي الذي كان عندهم مذموما مدحورا، وأنهم لم يفارقوا مدينتهم حتى جعلوا بينهم وبينه خندقًا وسورا، وحتى أقاموا على منبرهم دعوة الحق التي وعدها الله في المشرق والمغرب علوًّا وظهورا؛ فكرمت وفادتهم، وبانت لهم سعادتهم، وأعرب عن حال غائبهم وشاهدهم غيبهم وشهادتهم، وأُمروا بطالب من الموحدين وقطعة من الأسطول، وأُحسن إليهم بإحسان أهل القرى المبذول، وإلى الوافد المقبول، وبشروا عن النزوح، والهوى الطروح، بالتهمم الموصول.

ثم عَيَّنَّا عسكرا يقيم بقابس حافظا لجنابها، ومؤتمنا لشعابها، ومانعًا للعدو من تولج بابها. وعند ذلكم أنشأنا العزيمة ثانيا، وروأنا الصمد إلى المهدية لا بمتردد أوَّلا وانيا، وسألنا الله عز وجل في تطهير بقعتها، وتذليل منعتها، أملًا صادقًا دانيا. ثم استقبلناها بسيرٍ يقصر عنه متطاول الرعان، ويعلم ذوات القرن والركاب ملاعبة الزمام والعنان، ويشرق البيض والسمر إلى هبر الضراب ونثر الطعان، إلى أن جئناها ونور بياضها قد غشاه الظلم ظلاما، وأحكام أهل التجسيم قد أثقلت كاهلها، وحملت معالمها ومجاهلها، خطوبًا جساما. فبينا نحن نشتغل بمحاولته؛ وننظر في قوام منازلتها، ونعمل على تطهيرها بحول الله من رجس مقابلتها، إذا بالشقي قد طال عليه في الضراء الأمد، وخانه الصبر الذي كان يدعيه والجلد، وأعياهُ البؤس المدفع الذي كان به والكمد، وتوهم أن بلاد الجريد متلافية لرمقه، وعرضةٌ لتلصصه وسرقه، وأنه سيجد فيها بعض جيران لمنهج أمله وخلقه؛ فجاءها مجيء الخائق المترقب بين صقب النشاز وصلقه، فرمته كل مارة بسجيل، وقاتلته قتال من يرى أنه من أخبث طائفةٍ وشر جيل، وأن كل شرٍّ جرته إليه الأيام فهو سببُ الجرّ ورأس التأجيل.

وعند ذلكم استخرنا الله تعالى الذي هو ولي الاستخارة ومُسعدُها، وموثق الآراء المدارة ومُسددها، ومُنفذ العزائم المغارة ومُنجدها، وعينا لغزوه الشيخ الأجل الأكرم أبا محمد ابن الشيخ الموقر أبي حفص أدام الله كرامته في جيش من الموحدين والأغزاز والأعراب؛ فساروا إليه بسيوف معودة الضراب، وخيول مُلْس البطون لواحق الاقراب، متوكلين على من عوَّدهم النصر في الهيجاء، واليسرَ الأراء، والصبر في ملتقى الجيلين وقتل الأعداء، موقنين بأن لا عدد ولا عدة إلا ما ينزل من السماء، معتمدين على الله تعالى لا على الأبيض المشرفي والصعدة السمراء. فلما نذر بهم عدو الله، وهو بحمة مطماطة، ركب الجبال وفارق الزهو والاختيال، وحذر الأمام

والوراء واليمين والشمال، وظن أن الموحدين لا يقدرون على اتباعه وما زال يظن المحال ويتبع الخيال.

وبلغ الموحدون أعزهم الله قابس فجدَّدوا زادهم، واستأنفوا جدَّهم وجهادهم، واعتقدوا التفويض إلى الله تعالى سلاحهم الأوفى وعتادهم، وصاروا في أثره برأي عازم، ونظرٍ حازم، ثقةً بأن الله لا يسلم الصابرين ولا يُضيع أجر العاملين، وعلمًا بأنه جل جلاله لا يُصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين؛ واستمروا على ذلك أيامًا، يمرون على العمائر والشعوب كراما، وتُهدي إليهم البشرى في كل فج تحيةً وسلاما. وكان للشقي طمعٌ في زُغْبة والشَّريد حيين من سُليم، فمر بهم مرور منافٍ غير هادٍ ومستنصر بمحجوبٍ غير بصير، ومستنجز بغير ولي على الحقيقة ولا نصير؛ فأجابه كلُّ من دنا أجله، وأورده المصرع الوبيل أمَلُه، وكان عليه لا له سعيه الضال وعمله، فلما التقوا عليه في جيش كأنه لجٌّ متراكب، أو سحاب خريف زحزحته الخبائب، كرَّ راجعا نحو الموحدين، ولسان الحال تالية: أولئك لهم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين؛ فلما نُذّر به الموحدون وهُم في منزل يسمى بمنزل أم العافية، زحفوا إليه، وأقدموا إقدام الأسود الطاريئات عليه. فكانت بينهم مضاربة نفق فيها سوق القتال، وازدحمت فيها الرجال على الرجال، والنصال على النصال؛ في كل ذلك لا يمسُّ الموحدين قدْح، ولا يتخطىَ صفقتهم ربح، ولا يعدو ليل هيجانهم صبح. ثم إن الله فتح لهم باب ظهورهم وعلوهم، ومكَّنهم أتم تمكين من أكتاف عدوهم، وآواهم بين مستجر القنى عاقبة رواحهم في ذات الله وغدوهم؛ واستحرَّ القتلُ في أهل بيت الشقي ورجاله، ووجوه زعمائه الضالين وأبطاله، وجميع من كان حشد من قبائل سُليم وشرار هِلاله، حتى كادت الرماح تغنى بذاتها عن المعاصم، والصفاح لا يبقى منها في الأيدي سوى القوائم. والخيول لا تدرس غير الترائب والجماجم، وهذا يومٌ كان فيه للموحدين موقفُ الأبرار، وأفعالُ الأحرار،

وقتالُ المهاجرين والأنصار، وظهور أهل الجنة على أهل النار، وصولةُ أهل الإقبال على أهل الإدبار.

فلما رأى عدو الله ما هاله فر جريحًا في جريدة من الخيل، وفاض الموحدون على الكراع والسلاح والأهلين والبنين في السيل بالليل، ونالت في ذلك أيديهم، ورماحهم فوق ما عهده السالف والخالف من العطاء المحسب والنَّيْل، واستنقذوا الطلبة والموحدين الذين كانوا في إسار الشقي بحكم السيف الذي لا يصلو به إلا عزيز، وحجته التي فصلها في كل موطن وجيز، ومن أفلَتَ من الحمام، وتخطاه في المعترك جناح الحسام، اعتلق ببعض من الموحدين بذمام، حتى لم يَنْجُ الشقيّ ولات حين نجاة إلا برأس طِمِره ولجام. فالحمد لله الذي أوهن كيده، وأضعف محاله وأيده، وجعل رأيه الدبير أُحبولته وقيده، والحمد لله الذي أطمعه في صيد ما لا يُصاد فكان فريسته وصيده. وكم ضل ضلالًا بعيدا، وأضل كافرًا غويًّا وحديدا، وأذاق الجموع الحافلة لشحط المزار، وبعد الأمصار، حربًا ضروسًا وبأسًا وما كان الله ليذر بهتانه وطغيانه أنه كان به كفورًا ولآياته عنيدا.

وهذه إفريقية قد خلت من الوسواس، ونقيت من الأدناس، وصفت من شوائب الأرجاس، وطهرت من الدعوة المنسوخة دعوة بني العباس، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. ولم يبق إلا هذه المدينة وما بقاءُ الفروع بعد انتهاك الأُصول، وأي جدى بعد تكسير النصول، وأيُّ أمر يبقى لمن فيها من الأشقياء، وقد رأوا أعلامهم منكوسة تنذرهم بالداهية الدهياء، وتُناجيهم ذوائبها بانقطاع الأمل من صاحبهم والرجاء. فانتظروا بشارتها قاطعة بحول الله عرض البيداء، مطلعة عليكم بحمد الله تمام النعماء والسراء. وأما الأعراب فقد دنا قصيها، ودان عصيها، وألقيت بهذا الجناب رجالها وعُصيُّها. وفي هذا التأريخ قدم أبو سرحان مسعود بن

سلطان بن زمام يرسف في قيد هرمه، ويطلب لمن وراءه من بنيه وأهل بيته ما يقدمون عليه من قبول هذا الأمر العظيم وذمه، وهم الذين كانوا قد أوحشتهم سوالف الجرائم والله واسعٌ باب عفوه وفضله وكرمه.

فانشروا هذه المسرات، واشكروا الله تعالى على تواتر الأنباء المنشرات، واحمدوه جل جلاله على نفحات رحمته المنثرات. ونحن نقول: اللهم قد فتحت لنا أبواب نصرك، وأعنتنا على ما استحفظنا من أمرك، وأريتنا في عدو الحق أحكام سطوك وقهرك، وأريتنا من آلائك وعوارف نعمائك ما يوجب صلة حمدك وشكرك؛ فتمم علينا النعمة تتميما، وعرفنا في كل محاولة نصرًا عزيزًا وصنعًا كريما، واجعل طريقتنا في خدمة الديانة، وتحمل الأمانة، طريقًا مستقيما، وضاعف لهذه الطائفة من النعم الواكفة ما أنعمت به عليها حديثًا وقديما، واكتب لنا لسان صدق في الشكر والثناء، إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيءٍ في الأرض ولا في السماء. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

obeikandl.com

فهرس تبيين الرسائل

الرسالة الأولى من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة يخبرهم برجوعه إلى حضرته بعد كمال غزوة ويعظهم وينصحهم	١١
الرسالة الثانية من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج يخبره بوصول رسله إليه ويقبل عذره	١٤
الرسالة الثالثة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة صنهاجة تاسغرت في ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ وفيها بعض الإعلانات والنصائح	١٦
الرسالة الرابعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ الأجلّ أبي زكرياء يحيى بن علي يعني ابن غانية في ٩ ربيع الثاني ٥٤٣ يدعوه فيها إلى التوحيد	١٨
الرسالة الخامسة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة يخبرهم بوصول كتابهم عن غزوة أسطولهم على النصارى بمدينة المريّة	٢٢
الرسالة السادسة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى جماعة المشيخة بقرطبة في ٢ صفر ٥٤٤ يخبرهم بوصول وفدهم إليه ويعظهم	٢٥

الرسالة السابعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى أهل مدينة قسنطينة في ٢٤ جمادى الأولى ٥٤٧ يعظهم ويدعوهم إلى التوحيد	٢٩
الرسالة الثامنة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة تلمسان في ١٠ شعبان ٥٤٧ يعلمهم بفتح قسنطينة وإنابة يحيى بن العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد	٣٤
الرسالة التاسعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ أبي محمد وسنار وكافة أهل مراكش في أول ربيع الثاني ٥٤٨ يخبرهم بغزوته في البلاد الشرقية وظفر الموحدين على الأعراب بناحية سطيف	٣٨
الرسالة العاشرة لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد يعني ابن مرذنيش صاحب شرق الأندلس في ١٦ جمادى الآخرة ٥٤٨ يعظه ويدعوه إلى التوحيد	٤٥
الرسالة الحادية عشرة لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن وهي عديمة الرأس لبتر وقع في الأصل ومخبرة بثورة أخي المهدي بمراكش وقتلها وقتل أصحابها	٤٨
الرسالة الثانية عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة تلمسان يخبرهم بتطوير الموحدين على طبقات ثلاث بحسب قدر كل واحد منهم	٥٦

الرسالة الثالثة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة وطنجة يخبرهم بتقديم ابنه محمد على بلاد إفريقية وولايته عهده	٦٣
الرسالة الرابعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ١٢ ربيع الأول ٥٥١ يعلمهم بولاية بنيه على بعض أقطار مملكته	٦٨
الرسالة الخامسة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ٥ جمادى الآخرة ٥٥١ يعظهم وينصحهم	٧٣
الرسالة السادسة عشرة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية في العشر الأول من شعبان ٥٥٢ يخبرهم بفتح المرية وبيّاسة وأُبَذة وموت السليطين أمير النصارى	٧٨
الرسالة السابعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بعض مُدُنه في ٨ شوال ٥٥٢ يذكر فيها وفود القبائل الذين ببلاد السوس والتماسهم الأمر وتوحيدهم وما انضاف إلى ذلك من الوصول إلى تينملل وزيارة قبر المهدي بن تومرت	٨٧
الرسالة الثامنة عشرة من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول كتابهم في غزواتهم على الروم	٩٧
الرسالة التاسعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة غرناطة في ٢٠ قعدة ٥٥٤ يعلمهم ببناء مدينة بجبل الفتح	٩٩

الرسالة العشرون من إنشاء الكاتب أبي الحكم بن المرخي عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة قرطبة يخبرهم بفتح مدينة قفصة	١٠٢
الرسالة الحادية والعشرون من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة فاس في ١٤ ربيع الثاني ٥٥٥ يعلمهم بهزيمة عرب إفريقية ودخولهم تحت طاعة الموحدين	١١٤
الرسالة الثانية والعشرون من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي عن الخليفة عبد المؤمن مخبرًا بهزيمة النصارى في نواحي قرطبة	١٢١
الرسالة الثالثة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية في ٣ ربيع الثاني ٥٥٦ وهي الرسالة المعروفة برسالة الفصول يوصيهم فيها بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات	١٢٦
الرسالة الرابعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى أخيه أبي سعيد والشيخ أبي سعيد يخلف بن الحسن يخبرهما ببعث غزوة إلى المرتدين من صنهاجة وإقامة الجيوش لغزو العدو بجزيرة الأندلس	١٣٧
الرسالة الخامسة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى أمير شرق الأندلس وهو أبو عبد الله محمد بن سعد المشهور بابن مرذنيش في أول رمضان ٥٦٤ يدعوه فيها إلى التوحيد	١٤٠
الرسالة السادسة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة قرطبة في نصف شوال ٥٨٦ يخبرهم بارتحال رياح من عرب إفريقية إلى الأندلس برسم الجهاد	١٤٧

الرسالة السابعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة غرناطة في ٧ جمادى الأولى ٥٨٠ يخبرهم ببيعته ويدعوهم إلى اشتراكهم فيها	١٥٤
الرسالة الثامنة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة إشبيلية في عقب رمضان ٥٨٠ يأمرهم بقطع شرب الرب وبيعه ودفع زكاة الفطر للقاضي أبي المكارم ليوزعها على الضعفاء	١٥٩
الرسالة التاسعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة إشبيلية في ٥ ربيع الثاني ٥٨١ يخبرهم بغزوة الموحدين على علي بن غانية وفتح مدينة بجاية	١٦٣
الرسالة الثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراكش في ١٨ شعبان ٥٨٣ يخبرهم بهزيمة بني غانية بحمة مطماطة وبفتح مدينة قابس	١٧٣
الرسالة الحادية والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة تونس في ٢ رمضان ٥٨٣ يعلمهم بدخول أهل الجريد تحت طاعة الموحدين وبحصار مدينة قفصة	١٨٢
الرسالة الثانية والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراكش في ١٣ قعدة ٥٨٣ يعرفهم بفتح مدينة قفصة	١٨٨

الرسالة الثالثة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراكش في ١٠ ربيع الأول ٥٨٤ يخبرهم برجوعه من إفريقية إلى المغرب الأقصى	١٩٧
الرسالة الرابعة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ٢٦ جمادى الآخرة ٥٨٦ يخبرهم بغزوته بغرب الأندلس وأخذ بعض حصون من أيدي النصارى	٢٠٤
الرسالة الخامسة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة فاس في ٩ رمضان ٥٩٢ يخبرهم بغزوته على الروم في ثغر الأندلس الشمالي	٢١٢
الرسالة السادسة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي مخبرًا باستيلاء الموحدين على منورقة ويابسة وميرقة	٢٢٣
الرسالة السابعة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي مخبرًا بغزوته في قبلي إفريقية وحصاره للمهدية	٢٢٩